ظلال تونسية

38 قصة قصيرة
من الأدب العربي التونسي

اختارها وقدم لها

عبد الرحمن مجيد الربيعي

الكتاب: ظلال تونسية (38 قصة قصيرة من الأدب التونسي)

اختارها وقدمها لكم : عبد الرحمن مجيد الربيعي

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الربيعي ، عبد الرحمن مجيد
ظلال تونسية (38 قصة قصيرة من الأدب التونسي)/ عبد الرحمن مجيد الربيعي– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: 1 – 31 – 5772 –977 –978
أ – العنوان رقم الإيداع : 11598

ظلال تونسية

38 قصة قصيرة
من الأدب العربي التونسي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

في البدء:

"هذه المختارات القصصية"

عبد الرحمن مجيد الربيعي

(1)

تعود معرفتي بالأدب التونسي بشكل عام إلى سنوات البدايات، ربما إلى المدرسة الابتدائية، ولكن من خلال اسم واحد فقط هو الشاعر الخالد أبو القاسم الشابي وقصيدة واحدة هي «إرادة الحياة».

ورغم أن هذه القصيدة كانت تخيف الحاكمين في الخمسينات إلا أنها وبما يشبه الاتفاق انتشرت في كل مدارس العراق، الابتدائية منها والثانوية، وقد أشاعها صوت حليم الرومي عندما لحنها وغناها في أيام مجده الفني.

لكن السنوات التي تلت جعلتنا نعرف أن تونس التي اقترن بها لقب الخضراء، فلا تنطق بدونه هي بلد منجاب وعطاؤه ثرٍ وغزير، وفي كل ضروب الإبداع الأخرى.

وبدأنا نسمع عن المسرح التونسي وتميزه وتقدّمه لكننا لم نر عملا مسرحيا واحدا، كانت الإشارات ترد في الكتابات حول المسرح العربي.

وذات يوم عندما كنت أعمل في مجلة «الأقلام» العراقية- بداية السبعينات- دخل على شاب في مثل عمري، لكن شيئا من الصلع استبق الزمن فحصد شعر جبينه، وكان يميل إلى النحافة والقصر أكثر من الامتلاء والطول.. وخلته أحد أقاربي القادمين للتعرف على من «الناصرية»، وما جاورها من قرى «الشطرة» و«النصر» و«الغراف» أو «أبو هاون» فسحنته السمراء تحيله إلى تلك البقاع الجنوبية من عراقنا، لكنه قدّم لي نفسه، ورغم أنه كان يحاول التكلم بالدارجة العراقية إلا أنه أوقف تصوراتي وتخميناتي عندما نطق:

محمد صالح الجابري طالب تونسي في كلية الآداب ببغداد، وقبل هذا أنا مثلك كاتب قصة، ومن «توزر» مدينة أبي القاسم الشابي في أقصى الجنوب التونسي.

وأظن أنه أهداني وقتها كتابا له، وبعض أعداد مجلة «قصص»، كما كان يحمل معه بعض النصوص الشعرية والقصصية لأدباء تونسيين قدمها لي لغرض نشرها في المجلة.. كان محمد صالح الجابري «الدكتور» بعد ذلك ومدير الثقافة «حاليا» في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الأليكسو» نافذتي الأولى نحو الأدب العربي في تونس.

وقد سعدت هيئة تحرير المجلة بهذه النصوص، حيث كنا نطمح لجعلها مجلة الأدب العربي كله لا مجلة قطرية للأدب العراقي وأمامنا مثال مجلة «الآداب» العريقة التي أصبحت بجدارة المجلة المركزية للأدب العربي.. وقد لعبت «الأقلام» ما يشبه هذا الدور في السنوات اللاحقة عندما صارت توزع في المشرق والمغرب، ووصل مطبوعها إلى خمسة عشر ألف نسخة حتى اندلاع الحرب العراقية الإيرانية فعرقلت هذه المشاريع الثقافية الرائدة، إن لم أقل قضت عليها.

وتوثقت عرى العلاقة بيني وبين الجابري الذي تحمست لكتاباته الروائية بشكل خاص ولزملائه الآخرين من أبناء جيل الستينات وأعضاء نادي القصة.. وفي عام 1973 وعندما عقد مؤتمر الأدباء العربي للمرة الأولى في بلد عربي مغاربي هو تونس تلقيت دعوة شخصية من اتحاد الكتاب، تكريما لي لما قمت به من توثيق العري وربط الأواصر ثقافيا بين تونس والعراق.

وفرحت بهذه الدعوة، وجاءت رفقة الوفد العراقي وعوملت معاملة خاصة، إذ وباقتراح من الصديق الأديب المعروف أبو القاسم محمد كرّو جرت توجيه الدعوة لي أسبوعا آخر لأتنقل فيه بين بعض المدن التونسية وأتعرّف أكثر على أدباء البلد، وقد وجهت دعوة مشابهة لكل من الأديبين المعروفين الشاعر السوري شوقي بغدادي والروائي السوداني الطيب صالح.

وقد كان لنا لقاء «تاريخي» في «نادي القصة» بمنطقة «الوردية» الذي يقع في النادي الثقافي أبو القاسم الشابي، وهو المكان الذي مازال النادي يشغله حتى يومنا هذا، ومن الصور التي أصرخ الأديب الرائد محمد العروسي المطوي مؤسس هذا النادي ومجلته المعروفة «قصص» على تعليقها صورة لذلك اللقاء مازالت في مكانها حتى يومنا هذا، وتجمع بين الأستاذ المطوي وأديب تونسي رائد آخر هو الأستاذ مصطفى الفارسي مع الضيوف الثلاثة: بغدادي، صالح، والربيعي.

(2)

يعّد كتاب الدكتور محمد صالح الجابري «نشأة القصة التونسية وروادها» الصادرة طبعته الأولى بتونس عام **1975**- منشورات مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله هو أهم محاولة في كتابة تاريخ القصة التونسية ونشأتها.. والجابري كتب مؤلفه هذا بنفس عربي، أي نظر لهذه النشأة من خلال مرحلة الريادة في معظم البلدان العربية: العراق، مصر، لبنان، سوريا، الجزائر، المغرب.. إلخ.

وهو بهذا يؤكد وحدة هذا الأدب ووحدة المنطلق والمنشأ، ووحدة الحاجة لهذا اللون من الإبداع الجديد في أدبنا- لنا قراءة متمعّنة قدر الإمكان لهذا الكتاب في كتابنا «الشاطئ الجديد- قراءة في كتاب القصة العربية «ط» منشورات الدار العربية للكتاب «تونس- ليبيا» **1983**.. لقد عانى الكتّاب الأوائل في تونس شأنهم شأن رفاقهم في البلدان العربية

الأخرى من المشكلة التي واجهتهم، وتتمثل في التحفظ بل والرفض اللذين جوبهت بهما نصوصهم.

يقول الجابري: (كثيرون عندنا يشاؤون أن ينظروا إلى القصة عكس نظرهم إلى الشعر، ينظرون إليها على أنها فن متطفل على وجداننا، فن بلا ماض).. مع إقراره بأن تلك البدايات لم تكن بالشكل المقبول، ومع هذا فإن كتّابها يعرفون بل و«كانوا يدركون أشدّ الإدراك أنهم يكتبون في لون أدبي جديد هو: القصة».. ويشير الجابري هنا إلى مسألة مهمة تتمثل ليس في إيمانهم بأهمية الفن الذي يمارسونه ومستقبليّته فقط بل أنهم «كانوا في أشدّ الحرج حين يقابلون بين إنتاجهم وبين إنتاج غيرهم من القصاصين الغربيين، فيجدون البون شاسعا فيسعون إلى حرق هذه المراحل بما يتوافرون عليه من التراجم ومن استيراد كتب الروايات والقصص ليطلعوا بعمق على هذا الفن الحديث».

ويشير الجابري إلى عام **1930** بأنه العام الذي صدرت فيه أهم المجلات الأدبية التونسية التي عنيت بفن القصة وهي مجلة «العالم الأدبي». للشيخ زين العابدين السنوسي.. وتمضي هذه المجلة أبعد عندما أصدرت عام **1932** عددا خاصا بالقصة (زخر بالقصص الموضوعة والترجمات وبالدراسات الفنية حول هذا الفن).. وقد شبّهتُ هذه المجلة بمجلة «الهاتف» التي أصدرها القصاص العراقي الرائد المرحوم جعفر الخليلي، وعنت بالقصة في وسط أدبي يرفضها- رغم أن «الهاتف» صدرت بعد «العالم الأدبي» بسنوات.. إن فن القصّ كان يفرض نفسه وتتسع دائرة

متلقّيه مما يزيد في حماس كتابه ودأبهم على كتابة المزيد من النصوص التي تناقش القضايا الاجتماعية والسياسية الملحة في مجتمع عـــربي إســـلامي محافظ.

(3)

في كتابة التوثيقي المهم «الكتابة القصصية في تونس خلال عشرين ســـنة **1964- 1984**» يحاول الروائي والقاص رضوان الكوفي أن يستكمل ما بدأه الجابري الذي ركّز بحثه بين عامي **1860** (وهو العـــام الـــذي برزت فيه الطباعة) و**1930** (الذي صدرت فيه مجلـــة «العـــالم الأدبي» للشيخ السنوسي- أهم مجلة عنت بالقصة.. أما عن اختيار الكوني لســـنة **1960** بداية لكتابة فلأنه في هذا العام شهدت الساحة الأدبية في تونس دفعا جديدا لأدب القصة تمثل في إحداث جائزة «علي البلهوان» – وهو مناضل تونسي كبير – للقصة وهي جائزة تنظمها منذ ذلك التاريخ وكل سنة بلدية العاصمة.. ويرى الكوني أن هذه الجائزة (أســـهمت في إبـــراز العديد من الآثار الروائية وفي التعريف بأسماء جديدة من الكتاب).

ونذكر هنا أن مؤسسات أخرى قد خصصت جوائز للأدب بعد ذلـــك مثل جائزة البنك التونسي التي تمنح كل عام لجنس أدبي يجري الإعـــلان عنه مسبقا.. وقد انضافت إلى هذه المؤسسات المانحة قبل عامين مؤسســـة «كومار» للتأمين التي خصصت جائزة سنوية للرواية التونسية «بالعربية» وأخرى للرواية «بالفرنسية».

وكل هذه أدلة على أن القصة صار لها حضورها القـــوي والمحتـــرم، لا الحضور الوجل المتردد الذي كانت عليه في بداياتها لا في تونس فقط، بل في كل البلدان العربية حتى التي لم تكن تعرف القصة أو عرفتهما متأخرة.

(4)

من المحطات المهمة في مسار القصة التونسية تكوين «نادي القصة» بدعم وحماس كبيرين من مؤسسة الأستاذ الشيخ محمد العروسي المطوي، وكان ذلك عام **1961**.. وقد التف حوله معظم كتّاب القصة. وللنادي تقليد ثابت يتمثل في أمسية أسبوعية كل يوم سبت، حيث يـــأتي القصاصـــون بنصوصهم ليقرأوها ومن ثم ليستمعوا للملاحظات حولها.. وقد تسنى لي أن أتابع جلسات السبت هذه في فترة إقـــامتي الأولى بتـــونس أعـــوام (**1981-1982-1983**)، ومن ثم في فترة إقامتي الثانية بدءا من عام **1989** ولكن في فترات متباعدة نظرا لكثرة المشـــاغل، ونشـــير إلى أن الجلسات يجري تدوينها وحفظها في أرشيف النادي مما يشكل وثائق مهمة عن فن القص.. وفي عام **1966** صدرت عن النادي وبشكل فصلي مجلة «قصص» التي فاق عدد ما صدر منها المائة عدد، وقد قام النادي بخطوة ثانية من أجل تعزيز مكانة القصة عـــام **1968** عنـــدما بـــدأ بإصـــدار منشورات «قصص»، وظهرت فيها عدة أعمال لكتـــاب مـــن مختلـــف الأجيال.

هذا إضافة إلى الملاحق التي تصـــدرها الصـــحف اليوميـــة، وكـــذلك الصفحات الثقافية التي اهتمت بهذه الأعمال وبدأت تعرف بها سواء كان

ذلك في أخبار مسهبة أو في دراسات.. وبدأ بعض القصاصين بنشر أعمالهم في الدوريات والصحف العربية من أجل أن يحققوا لها الانتشار العربي ولعب بعض الجامعيين المعنيين بالسرد دورا كبيرا في تدريس بعض النصوص القصصية والروائية، كما جرى تسجيل رسائل جامعية عنها.

(5)

إن السنوات الأخيرة التي أعقبت تغيير السابع من نوفمبر عام **1987** شهدت عناية كبرى بالثقافة والكتاب، خاصة من قبل الجهات الرسمية ووفق التوجيهات العليا التي جعلت الثقافة من رهاناتها الأساسية، وقد كانت النتائج مشجعة جدا إذ اتسعت حركة النشر بعد أن تم الاهتمام بالكتاب من قبل وزارة الثقافة وأجهزتها المسئولة، سواء كان ذلك بما يتم شراؤه من كميات مقبولة من كل كتاب جديد أو بما اصطلح على تسميته بـ«دعم الورق»، حيث تقوم الوزارة بتغطية جزء من ثمن الورق الذي تستخدمه دور النشر من أجل تسهيل مهمتها في نشر الكتاب والتقليل من كلفته ليكون سعره مقبولا وفي حدود إمكانات القراء.. ونجد أن السنوات الأخيرة أيضا التي أعقبت التغيير قد عرفت ظهور عدد كبير من دور النشر الجديدة ليس في العاصمة فقط، بل وفي المدن الأخرى مثل سوسة وصفاقس وسليانة وغيرها.

وبهذا توفرت الفرص لمعظم الكتّاب لأن يروا أعمالهم منشورة في كتب وبوفرة وغزارة لم تعرفهما الحركة الأدبية التونسية من قبل، ومن هنا يحار الدارس أو المتابع في قراءة كل ما يصدر إذ المساحة الزمنية المتاحة له

محدودة وسط مشاغل كثيرة وتراكم الإصدارات، أما هذه المختارات التي بين يدي القارئ العربي فهي فكرة عاشت معي منذ مجيئي الثاني للإقامة بتونس بشكل مستمر عام **1989**.. ولكنها فكرة احتاجت إلى زمن طويل وقراءات كثيرة حتى تمكنت من تحقيقها.. وكنت أؤشر بعض النصوص وأتركها بعد أن أرشحها بشكل أولي حتى تجمعت لدي نصوص كثيرة قمت في فرزها فيما بعد وقد ساعدني على الاطلاع أيضا وجودي في هيئة تحرير أكبر مجلة أدبية تونسية تصدرها وزارة الثقافة وهي «الحياة الثقافية»، وقد اكتشفت وتعرفت من خلالها على أسماء مهمة توقعت لها أن تتصدر المشهد القصصي.

وأخيرا توقفت عند **37** قصة قصيرة اخترت أن أدرجها تحت عنوان «ظلال تونسية» وللكتاب الأحياء فقط.. وكنت أراجع ما اخترت بين فترة وأخرى، وأتساءل إن كنت قد أغفلت مرحلة أو جيلا، أو لعلي نسيت هذا الاسم أو ذلك؟

فتوصلت إلى جواب هو أن هذه المختارات هي ثمرة اجتهاد شخصي أتحمل مسئوليته الأدبية وحدي.. وأنها جاءت في المحصلة النهائية ممثلة لكل الأجيال، وإذا كانت بعض الأسماء قد جرى تثبيتها لقيمتها الريادية ولأنها مثلت مرحلة هي أشبه باستكمال مرحلة التأسيس المبكرة، فإن هناك أسماء هي أبرز رموز جيل الستينات، وأخرى من العقود التي تلت، وصولا إلى أسماء لم تنل حظها من الانتشار، لكنني أراهن عليها، يحركني ما يشبه اليقين أنها ستشكل الذخيرة الشابة لقصة القرن القادم في

تونس.. قد يسألني أحدهم لماذا لا تضع فلانا ولديه مؤلفات منشورة، أو لماذا غيبت علانا ولديه عدد من المجاميع؟

وكلها أسئلة، ولست مطالبا بجواب، فمعنى هذا أن هذه القصص السبع والثلاثين ستكون مائة أو أكثر.. فهناك مئات المجاميع المنشورة، وهـذا لا يعني أن آخذ قصة لكل من نشر كتابا أو أكثر.. إن ذائقتي كانت وحدها الحكم وكانت المقياس، وقد يختلف معي آخر عندما يعد أنطولوجيا أخرى فيأخذ أسماء لم أوردها، ولكنني واثق من أمر واحد هو أن هذه القصص تمثل القصة التونسية بدءا من الشيخ محمد العروسي المطوي، وانتهاء بالأسماء التي انضافت في السنوات الأخيرة مرورا بقصاصي جيل الستينات فقصاصي عقود السبعينات والثمانينات والتسعينات.. وقد اهتممت بشكل خاص بالكاتبات اللواتي يشكل حضورهن بنسبة تفوق ما هنّ عليه في بلدان عربية أخرى، لأن وجودهن دليل على قوة حضور المرأة التونسية في كل مجالات الإبداع.

آمل أن أكون قد وفقت في اجتهادي الذي هو وليد معايشة ورؤية حيادية لا تجعلني أقع في شرك «الشائع» بل «المخبأ» الثمين، أنفض عنه كل غبار ليتلألأ نقيا صافيا.. ولابد في الختام من كلمة شكر إلى الصديق القاص العربي المصري خالد محمد غازي، المحب لتونس وأهلها الذي ما إن عرف بمشروعي هذا حتى صار يلحّ على ويذكرني دائما بأن لا يفتر حماسي، وأن أسرع لتقديمه له ليبادر في طبعه ضمن سلسلة «نوافذ» التي

يصدرها عن وكالة الصحافة العربية التي تألقت خلال ســنوات قليلــة نتيجة لهمته العالية وروجه المشرفة المحبة في إدارتها.

ولتونس كل حبي الكبير، وما هذا الكتاب إلا صفحة من ملحمته الثريــة التي تسكن القلب والوجدان.

تونس– باردو

في 1999/9/15

خطرة العم عصمان

محمد العروسي المطوي

عندما طار عنه النوم حدق في عقارب الساعة.. رآها تشير إلى الساعة الواحدة صباحا.. هاله الأمر.. كانت الشمس على وشك البزوغ في الأفق البعيد.. أشعتها سبقتها أضواؤها تمسح الظلام عن الأرجاء وتتناغم مع زقزقة العصافير وتغريد الحمام.. هل توقفت ساعته؟

وهي التي لم تعرف التوقف منذ أن اقتناها من عاصمة شرقية.. فرك عينيه مليا واتجه إلى النافذة وإذا من ورائها البحر أغبر داكنا.. عندها فقط عاد إلى واقعه، وعرف أنه يبعد عن توقيت ساعته بفارق أربع ساعات.. إنه هنا بالشاطئ الشمالي من البحر الأسود في بلاد الخازيا أو بلاد القوقاز كما تسمى قديما وفي العالم.. وحتى يعيش مع واقعه الزمني زحزح عقارب ساعته، وأخذ يتهيأ للنزول من الطابق الثامن.

كان يقيم بدار إبداع الكتاب بشاطئ بيتسوندا على ساحل هذا البحر الذي يعرف الكثير من تاريخه لكنه لم يحظ برؤيته إلا أمس فقط.. ووقف بالشرفة المطلة على البحر فبهره منظر جميل جذاب، منظر البحر في هدوئه الصباحي الأملس رغم أتلام السباحين المبكرين.

المسافة بين الشاطئ ودار الإبداع غابة خضراء يانعة، أغلـــب شـــجرها صنوبر متضوع الأريج، ومزهرات مختلفة الألـــوان والأشـــكل تعلوهـــا أسراب الطير في فنون من التحليق والتلاقي ابتـــهاجا بالضـــياء، وتحيـــة لإطلالة الصباح الجديد، ولمطلع الشمس يصارع الضـــباب الكثيـــف.. وحانت منه التفاتة إلى الجناح الأيمن من الشـــرفة وإذا جبـــال القوقـــاز الشاهقة المكسوة بالأشجار تزيد من روعة المشهد فتأخـــذ بالاحســـاس وتسبي المشاعر.. انقدحت بذهنه عبارات انطوان.. تشيخون عنـــدما زار هذه المنطقة الجميلة «الطبيعة ذات جمال فاتن مسعور.. لو أني أقمـــت في أبخازيا شهرا فقط لكتبت خمسين قصة جميلـــة.. إن آلاف الموضـــوعات تتوالد عن تلاعب الظلال والأنوار فوق الجبال والسماء والبحر..».

رن جرس الهاتف فأسرع يتلقف صوتا مخمليا يدعوه إلى تنـــاول الفطور قبل الذهاب إلى سوق الفلاحين.. لم تكن الحافلة كـــبيرة فوجـــد نفسه محشورا بين أمشاج من بشر، ولا يجد موطنا لقدميـــه. وانـــدفعت الحافلة الصغيرة مهملجة مجنونة.. وتدافعت الأجساد تتقارب، تتباعـــد، وبين الرؤوس والأيدي المشدودة إلى السيور والسقف والأجساد المتلاحمة يظل شجر السرول يعدو بسرعة معاكسة، بينما قامات الصنوبر العملاق تتسامى في شموخ وإصرار. وداسه كعب عال اعتذرت صاحبته بابتسامة خجولة.. سبيل التفاهم الوحيد بينهما. وابتسم على مضض. وكاد يصيبه دوار لو لم تقف الحافلة بغتة، وعلا صوت مكبر الصوت الأبح أفهم عنه فيما بعد أن على الركاب أن يكونوا في موعد العودة بعد خمس وأربعـــين دقيقة.

وأفرغت الحافلة ما فيها فاندفع راكبوها يهرولون إلى سوق الفلاحين، حيث كان هؤلاء منهمكين في البيع مع الزبائن.. الجيئة والذهاب.. التقاطع والالتحام.. أكداس وأكوام من الخضر والفواكه والغلال.. بهره المشهد وتذكر مسقط رأسه وغلاله.. وألقى ببصره على كدس من أقراص بيضاء كبيرة.. استهواه المنظر فاقترب فأحس بقشعريرة تعرو كامل بدنه .. إنها أشبه بالمعصورة التي تعرض على العربات في ردهات سوق العطارين وبصورة أكثر في دكاكين سوق البلاط.. ولمحت البياعة العجوز انجذابه وانبهاره فأخذت السكين وحزت شريحة من خبزة المعصورة وقدمتها له مشيرة إليه أن يتذوق منها قليلا، ولم يشعر بالحرج فأخذ قطعة الجبن وتحلت لها لهاته قبل قضمها.. هم!! وإذا الطعم نفس الطعم، وإذا الصمولة نفس الصمولة، واحتار كيف يخاطب العجوز فظل شبه الهائم الحالم لو لم يخرجه مما هو فيه صوت أجش غليظ: «.. هه!! أعجبتك المعصورة؟ أليس كذلك؟ أيهما أشد لذاذة هذه المعصورة أو معصورة سوق البلاط!!».

«..سوق البلاط!؟ وأين نحن من سوق البلاط!؟ من أين يعرف سوق البلاط.. هل هنالك من يعرفه غيري في هذه الديار النائية» والتفت إلى حيث انبعث الصوت.. وإذا شيخ طويل أسمر في صفرة باهتة.. وجه مدور لكنه عريض.. شوارب يركس فوقها الطير.. حواجب، طال هديها حتى تقوس.

– ماذا تقول في هذه المعصورة؟! أليست أحلى طعما مما عندكم في سوق البلاط وفندق الغلة.

«عجباه! وفندق الغلة أيضا!!! لكن لهجته لهجة غريب عن البلد.. إن له لكنة كتلك التي يعرفها عند «بابا مسعود» طبال قريته في الجنوب..».

– يا سيدي من أنت حتى تتكلم عن سوق البلاط؟

– والبركة والسكاجين وسيدي محرز سلطان المدينة.. ألا يكفيك هذا؟!

«وما تطلب منه فلعلك تخسر الصفقة إذا بارزته.. ولكن ما يمنع الإلحاح بالسؤال».

– أرجوك– سيدي.. أريد أن أعرف من أنت وكيف وصلت إلى هنا.

– بل قل: كيف خرجت من هنا.. لكن واحسرتاه!! الزمان غير الزمان.. والناس غير الناس.. أنتم في العجلة العاجلة، والكثرة القاتلة، والسعادة الزائلة.. ألا تعرف من أنا.. أنا الدائم في ضمير شعبك. ألم تسمع بالعم عصمان وعائشة القادرة؟!

تعال.. تعال نبتعد قليلا عن الضجيج حتى أقص عليك شيئا من أمري.

«.. ماذا أسمع ؟! اسم أعرفه في أعماق التاريخ ترويه أجيال العجائز وتحكيه الجدات.. هل الرجل يهزم بما لا يعرف؟!».

- أنا هو العم عصمان.. أخذوني صبيا من هذه الربوع.. طافوا البحار والقفاز، العواصم والأمصار حتى أرسيت عندكم في تونس الخضراء. كنت صبيا قابلا للتكوين والتهذيب.. ترعرعت في البيوتات والقصور حتى أصبحت مربيا ماهرا. وانتهى بي المطاف عند عائلة ثرية لا يزيد عددها على ثلاثة أفراد: الزوج مراد، والزوجة تراكي، وابنتهما عائشة.. كنا في رغد العيش وهناء الحياة. ولكن لا أمان مع الزمان.. ماتت الأم وتبعها الأب، وأصيبت عائشة بمرض أودى بها للهلاك، وظلت- طيلة مرضها- تهذي محمومة وتردد دائما : لئن شفيت من مرضي هذا لأرتكبن سبع جرائم لا أريد بها جزاء ولا شكورا. وشفيت عائشة من مرضها لكنها لم تشف من لوثة الإجرام. واحترت ماذا أصنع مع عائشة وقد أصبحت المسئول الوحيد عنها.. كانت محبتي الشديدة لها لا تتركني أعصي لها أمرا أو أرد لها طلبا. وماذا أقول لك، يا ولدي؟ هل أعدد لك ما فعلته تنفيذا لما نذرته على نفسها. لكن يكفي أن تسمع واحدة.. اسمع.. اسمع.

«.. ذات مرة جاء رجل إلى حيّنا وطرق باب إحدى الجارات فخاطبته امرأة من وراء الباب فسمعته يقول لها: إن ولدكم قادم من الحج بعد عشرة أيام. وقد أوصاني أن أعلمكم بذلك حتى تستعدوا لاستقباله يوم وصوله".

وما إن سمعت هذا الكلام حتى طلبت من بابا عصمان أن يذهب معي إلى السوق لنشتري كميات من الجاوي، وعود القمار، واللبان، والخواتم،

والحلي إلى غير ذلك من الأشياء التي يجلبها الحجاج عادة ليهــدوها إلى الزوار والمهنئين. واشتريت كذلك ثيابا مما تلبسه المكيات والحجازيات.

ثم أمرت بابا عصمان أن يضع المشتريات في قفة كبيرة، ولبست أنا مــن تلك الثياب الحجازية ما يناسبني، ثم أمرت بابا عصمان أن يحمل القفــة ويصحبني إلى تلك الدار التي ينتظر أصحابها قدوم ولدهم مــن الحــج، وأوصيت بابا عصمان أن يقول لجارتنا: إن ولدها سبق له أن بعث لهــم رسولا يخبرهم بموعد قدومه، وأنه أرسل الآن هــذه المــرأة الحجازيــة، ويطلب منهم أن يحافظوا عليها في منزله إلى عودته من الحج، وزلا يراهــا ذكر عمره فوق السبعة أعوام حسب السنة المتبعة في بلادهم. وأنه اختار هذه المرأة زوجة له. ولهذا يطلب من أهله أن يستعدوا لزفافه بهــا ليلــة قدومه. وحسب تعليماتي المضبوطة أوصلني بابا عصمان إلى جارتنا وقال لها كل ما أوصيته به دون أن أتكلم أنا بكلمة أو أكشف عن وجهــي.. واستقبلتني جارتنا بالفرحة والترحاب، كما ابتهج بقدومي سكان الــدار وشرعوا يستعدون لاستقبال ولدهم الحاج ولتهيئة كل ما يلزم الزفــاف على أحسن وجه وأبهى حلة مما جعلهم يتداينون، لأن ما عنــدهم مــن مخزون لا يكفي لإقامة حفلات الزفاف حسب المطلوب.

وكنت أثناء كل ذلك محجبة عن الرجال حتى جاء اليوم الموعود وأقبــل ولد الجارة من الحج، لكنه صعق بالخبر ونفي أن يكون بعث بأية امرأة من الحج. لكن أمام إلحاح أبويه ومدحهم لجمالي وحسن خصالي قبل الزواج

مني على مضض بعد أن أقاموا كل ما تنبغي إقامته في حفلات الزفـــاف. وبعد أن دخل على الزوج الحاج رحبت به وبمقدمه وقلت له:

– عليك أن تدخل الحمام وتغسل بدنك بسطلين من الماء البارد.

– لكنني ما أتيت إلا مستحما.

– أرجوك يا حبيبي.. اسمع كلامي.. هذا سبرنا نحن لابد مـــن اتباعـــه. واقتنع آخر الأمر وتوجه إلى الحمام فقلت له:

– عندما تنتهي من الاغتسال اطلبني بالصوت العالي حتى أتيك بالبشكير. ولا تنسى أن اسمي: زغردن.

وانطلت عليه الحيلة. فما إن دخل بيت الحمام حتى غلقت البـــاب وراءه وأسرعت بجمع لباسي ولباسه والهدايا الثمينة التي أتى بها مـــن الحـــج. وصررت كل ذلك ورميته من النافذة. ثم ربطت في النافذة حبلا كنـــت أعددته من قبل ونزلت إلى الشارع. وبسرعة أدركت دارنـــا فطرقـــت الباب وكان بابا عصمان في انتظاري...».

«ويلي! ماذا أسمع ؟! هل هي خالتي فونة تقص علينا نحن الأطفال خرافة عائشة القادرة..».

– لعلك أدركت ما وقع للحاج العريس أم أتمم لك القصة؟

– لا يا عم عصمان. أنا أعرف القصة كلها إلا قصتك أنت.

– لقد تبدل كل شيء يا ولدي. كيف تعيشون في هذا العالم السحري العجيب.. لولا جبال قفقازيا الثابتة وصنوبرها الخالد والبحر الكبير لما قلت: إنني في الدنيا.. لقد أصبحتم في عداد النمل، وسرعة البرق.. وسماع الجن.. حتى سلطان البرين وخاقان البحرين قضيتم عليه.. إني أكاد أحن إلى الكرباج وأسواق النخاسة.. و..

«كنت أدير في كفي حجرا صغيرا في شكل بيضة الحمام استهواني من ملايين الحجارة التي حكتها الأمواج على مر السنين وفعلت فيها فعل النحات الماهر..».

– آه يا ولدي!. ما في يدك؟. إنها هي والله.. أعطنيها لو سمحت.. ويلاه!! ماذا أرى؟. الأرضية خضراء، الخطوط بيضاء.. خط.. اثنان ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية.. لكن الحجر الذي التقطته يومها كان في حجم بيضة النعام.. هداك الله.. ماذا فعلت أنا معك حتى تفعل أنت معي.. فتجرني إلى الغربة الغاربة، والبعث الخديج.. لن أبقى معك لحظة أخرى..».

واصفر لون العم عصمان وأرخت يده قبل أن يمسك الحجر مرة ثانية. وبدا كأنه يتهاوى، فأسرع يتلقفه قبل أن يسقط لكنه أحس بدوار وغياب الرؤية فكاد يقع أرضا لو لم يمسك به أحد رفقاء الحافلة المجنونة. وبعد طش الماء وكأس العصير عاد وعيه وحملق أمامه وحوله.. لا أثر للعم عصمان.. فازدادت حيرته.

وهذا الحساب الغامض العويص ما بين بيضة النعام وبيضة الحمام.. كم سنة؟. كم قرنا؟. كم قضى موج البحر في الحك والنحت؟.. كم بقي من سنة أو قرن حتى تصبح بيضة الحمام ذرة تسفيها الرياح؟.

تاه به التعداد وهو متكئ على إحدى روافع سوق الفلاحين حتى جاء الصوت المخملي يعلمه بوقت الانطلاق. وناولته صاحبة الصوت المخملي قرصة شهد من عسل طري، وقالت مداعبة:

– حذار أن تلسعك نحلة فوقازية.

– هل في الشهدة عسل أو نحل.

– ومن يدري؟. إذا كانت إبرتها أطول من ممصها.

– ماذا تعنين؟. لم أفهم.

– يقولون إن نحلة القوقاز لها ممص يبلغ **7.23** مم، هو أطول ممص نحلي في العالم.

فعلق مبتسما.

– ذلك علامة خير.. فلا خوف.

وانقض على الشهدة التهاما ومصا، بينما كانا يسيران صوب الحافلة المجنونة.

لم يشعر بالارتجاج في العودة رغم الازدحام وكثـــرة الانعـــراج.. كـــان مأخوذا كله بهذا العم عصمان. وتناول غداءه على عجل. وذهـــب إلى الشاطئ فاضطجع على الحصى/ الحجر يقارن ويوازن ويفكر ويقدر بحثا عن حصة الزمن الفاصلة بين «بيضة الحمام» و«بيضة النعام» وغفا وغام. وانطلقت به عروس البحر عسي أن يدرك العم عصمان في سوق البلاط ليقتسم معه الشهدة والمعصورة.

القنطرة هي الحياة

مصطفى الفارسي

وقف الشيخ مفتاح، وتمكث في مكانه واعتدل. كان العرق يقطر من جبينه فيغشي الطريق أمام عينه. العراق، وهـذه الطريق الممتدة، والجهد، وتلك الحمالة التي تقوض قفص صدره كحبل من مسد، والشمس، وهـي تصكه على صلعته فتصليه، كل هذا يهون.. قلب مفتاح من طينة طيبة.

وهو اليوم وذلك القوم الذي يتبعه.. في مسيرة تاريخية.. إنهم يقصدون إلى الشاطئ.. وإن لهم مع البحر موعدا وأكثر من موعد.

رفع الشيخ حمالته.. حمالة فتلها بيديه من نسيج القنب يوم مـزل من «الجبل الأحمر» إلى «باب الخضراء» ووقف بجانب العتالين يرتاد رزقا شريفا.. رزق اليـدين والكاهـل والـرجلين.. رزق العمـال.. رزق الكادحين.. وخلص الشيخ رأسه من تلك الحمالة. وكانت تحوط جسده من العاتق الأيسر إلى تحت الأبط اليمنى. ومسح العرق الذي غمر وجهه بكم «كدرونه» الخشن في شيء من الآلية واللاشعور... في حركة يعرفها «الكدرون» وهو رفيق الشيخ في غدوه ورواحه، شـريكه في الحمالـة،

وقرينه في جر تلك العربة الصغيرة ذات العجلتين التي أبى الشيخ إلا أن يحملها اليوم ما لا طاقة لها به.

«الكدرون» أيضا، رغم غلظته وفضاضته من طينة طيبة، أكمد اللون، وقد ألقى الزمان عليه جشمه فكابد وصمد، مجمد كالرمل من أثر الرياح، أدرن مغبر، لكن!.. كل هذا يهون.. الماء سيدعكه ويطهره عند الوصول.

وتنفس الشيخ طويلا، وهو ينظر إلى ذلك الهودج الغريب الذي جثم على عربته المسكينة بكلكله منذ مطلع الفجر.. فما كلت العربة وما قطعت الطريق، وقد سار القوم إلى البحر جيادا.

الشيخ مفتاح هذا رجل في السبعين، والعلم عند الله وللذاكرة حدود، ولذاكرة أمه العجوز أكثر من حدود.

تدعي «أم عيشة» أنها تزوجت وهي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، وإنها في مواليد الخطرة. أو بعد الخطرة بسنة. والخطرة عندها: احتلال البلاد وقهر العباد، وقبعة الرومي، وسيارة الجندي، وعصا الشرطي، وطغيان الكافر في كل مكان، أم عيشة موسوعة القوم، وأول لبنة في جدار العشيرة. وإن لها عن الفرنسيس أخبارا تملأ الأسمار. وتأخذ بألباب الصغار والكبار. امرأة مجربة حنكها الدهر إلى جانب ما وهبها الله من حدة الذكاء وثبات العزيمة وسداد الرأي، فهي الناطقة الراتقة، تربعت على رقاب أهل بيتها وأخذت تصارع البؤس من علياء

سلطانها، فما صرعها البؤس، وما قوض أركان ذلك العرش الذي نسجه خيالها الفياض كما نسجت أصابع بكرها مفتاح حمالة عتالته من خيـــوط القنب، لو صدقت أم عيشة لكان لها في التاريخ شأن.

وقد استطاعت أن توهم الأطفال.. أحفادهـــا.. بســـابق مجـــد الأجداد، وأن تزرع في نفوس الناشئة حب الحياة على شظف الحياة، فلم يخنعوا ولم يستسلموا لليأس.

هم موقنون أن لكل زمان دولة ورجالا، وأن الشمس ستطلع لا محالة يوما على ذلك الكوخ الحقير الذي لفظته المخادير خلف الأسوار.. وهم يعرفون أن الهادي ابن حفصية، وصالحة بنت إبراهيم، والطويـــل- الحبيب الطويل.. آخر مواليد العشيرة سمته أم عيشة كناية لشهر مـــارس وتخليدا ليوم من أيام ذلك الشهر أصبح عيدا من أعياد المـــيلاد- هـــم يعرفون أن الهادي وصالحة والطويل سيبدلون ما بالقوم، ويقلبون ظهـــر المجن.. «البق والبرغوث والوشواشة.. التر والفر وسارق مغزل أمـــو».. أم عيشة لا تشك في مستقبل الأحفاد.

«العاقبة خير إن شاء الله، يا وليدي مفتاح.. أما أنا وأنت..؟!»

وهي تعلل موقفها ذاك ببساطة مذهلة.. تزعم أن الله رسم على كل من كفيها هذين الرقمين.

وأن مجموعة الأربعة أرقام التي تقرأ على كفيها إذا شبكت يديها تثبت سنة الاحتلال في جلية قاهرة. وهي تؤمن بذلك كل الإيمـــان منـــذ

اليوم الذي قارنت فيه رسوم الأرقام على كراس حفيدتها صالحة بنفس الرسوم التي كتبت على كفيها في خطوط أخاذة بارزة سنة **1881** الخطرة!

وعبثا حاول الطويل أن يفسر لها سر تلك الخطوط المرسومة على كل كف عند كل الناس منذ أن كان البشر، فهي مصرة على رأيها ما دامت سيدة مدركة.

أم عيشة تهوي الرموز وهي عنيدة، فهي كالطين العلك الذي لا يخالطه رمل، لم تتترب عضلاتها ولم يقهرها الزمان.. عجراء كالعصا قائمة واعية.. أقسمت أنها لن تموت قبل نهاية الصيف مادام «الولد مفتاح» قد وعدها بقضاء شهرين على رشم الماء.. وزعمت أنها ستكفي القوم مؤنة غسلها يوم يناديها منادي الموت. أم عيشة تأبى أن تكون عالة على قومها حية وميتة.

وفكر الشيخ مفتاح في أمه، وهو ينظر إلى هودجه.. فكر في مسيرة الغد عندما يرجع إلى الجبل ليحمل أم عيشة على عربته ويقطع المسافة جوادا.. فابتسم، وهو يبصق في يديه، ويفرك أصابعه، ويتأهب لمتابعة السير. وقال للقوم يستحثهم:

– هيا، يا أولادي.. ساعدوني يبارك الله فيكم.. النزهة لعين البلد.. وأنتم اليوم أعيان.

وسار الركب بعتاد مسغبته، يخترق المدينة على مهل في موكب حذر يرتعش وكثيرا ما نرى أعوان المرور.. هذا يستحثهم، وذاك يأمرهم بالتوقف عند الضوء الأحمر وآخر يسألهم عن المقصد أو يعيبهم لشطط الحمل وسقط المتاع.

وكان الشيخ مفتاح يجيب أعوان المرور بابتسامته المعهودة فيعتذر ويلاطف ويقول في نفسه: «الكلام الزين يدفع الدين.. كل هذا يهون فما بعد العسر إلا يسرا»، ويتابع سيره والعشيرة مقتفية أثره في جلال وسكون.. كل هذا يهون.. إن لهم مع البحر موعدا.. وأكثر من موعد.

الشيخ مفتاح من طينة طيبة.. عجوز طويل القامة ضامر مستقيم.. ينتمي إلى تلك الفئة من الفلاحين الشداد الذين لم تثن الأيام ظهورهم، ولم يفت العمل في سواعدهم فلم يفتر الشيخ مفتاح بعد حدة، ولم يستكن بعد شدة.. فهو هو منذ أن ترك إلى حومة العتالين، والسنوات تترى، فهو هو كالصنوبرة المسنة، متشبث بالأرض، صعب الإبادة كنبات النجيل، حاد البصر، واسع الحدقتين، تبرز عيناه من تحت حاجبيه الكثيفين كزهرتين متفتحتين بين كتل الأوراق والأفنان والأشواك. الشيخ مفتاح من «فخار» أصيل لا نقيصة فيه ولا خسف يهدد بنيانه. لم تتراخ عضلاته رغم تقدم سنه، ولم يتطرق الشخم إلى جسده، فهو هيكل من لحم وعظم، بارز نواشر العضدين وربلات الساقين قوي الحقو، غليظ الرقبة قصير الأصابع.. لم يخط الشيب إلا بعض شعرات رأسه ولحيته وحاجبيه.. الشيخ مفتاح لم ينقد إلى الشيخوخة، ولم يولها كل أموره، فلو

كانت الركب تشتري في السوق لاقتني من الدواغص قطعا للغيار ولقهر تلك الرثية التي تنخر مفاصله طول الشتاء.. وهو يسمى ألم المفاصل ذاك «الماناتيزمو» أو «برد الصابونة» وقد تراه، وهو يخترق الأزقة والأنهج والشوارع- وإذا كعادته ربحا للوقت وترويضا للجسد كما يدعي هو- يغني أو يصفر أو يتمتم من تأليفه وتلحينه. نعم من تأليفه وتلحينه! تماما كما يقول المذيع عندما يقدم على الرياحي أو محمد الجموسي. ولم لا، وقد أصبحت أغنيته ملكا مشاعا وتناقلتها أفواه العتالين في كل مكان؟

القسم على الله م البرويطة

وصابونة ركبة مفتاح

يشتروا له إن شاء الله كريطة

وجرد بغيلة باش يرتاح

طفق الشيخ يجر عربته من «الجبل الأحمر» وهو في حدرة «باب العسل» كانت الشمس في صباح عنفوانها عينا براقا واسعة تشخص فيه من علياء سمائها وتصبه جام حرارتها. وما إن وصل إلى عقبة من الطريق حتى بلغت روحه التراقي، فساعدته زوجته «أم الزين» ودفعت البرويطة حتى أشرف القوم على منحدر «باب الخضراء» فانسابت عجلتا العربة تطوي الطريق طيا يتقدمها كلب أبيض في نشوة، وقد تدلى لسانه ولمعت عيناه فطنة وإخلاصا.

كلب الشيخ مفتاح ذو قلب كبير «زائلة بكماء» كما يقولون. ودابة أمينة عاشرت القوم منذ عهد بعيد.. الكلب اليوم سعيد بهذه النقلة التي لا يدري مرساها.. لكن هذا لا يهم بالنسبة إليه فهو «زائلة بكماء» وهمه الحركة ودأبه عدم الاستقرار شأن كل ذي روح وذي قلب كبير.

وبلغت العشيرة بهم الحلفاء فكادت سيارة «طـــرولي» كانـــت حافلة بالركاب، تدوس كلب مفتاح فاستشاط غضـــب الشـــيخ علـــى السائق، وتهارج الرجلان، فتداخل المارة لحسم التزاع، وتعطلت حركـــة المرور ردحا من الزمن، وانتبه أعوان المرور إلى احتشاد الخلائق فطفـــق أحدهم يؤنب الشيخ ويهدئ السائق تارة، ويهدئ الشيخ سلامة الكلب، ويعنف السائق ويلومه على المغالاة في السرعة تارة أخرى، وطال الجدال بين أعوان املرور أنفسهم بين من حسب العربة عجلة ومـــن حســـبها راجلة: هذا يريد أن يطبق عليها فصول قانون المـــرور، وذاك يتمســـك بضرورة المحرك لاتخاذ الإجراءات الخاصة بالمخالفات.

واحتدم النقاش.. واختل النظام.

ومرت سيارة إسعاف لا تبالي بشيء فلمست «برويطة» العـــم مفتاح . وصاح الناس وتعالي الهرج إذ وقع جانب من أمتعـــة العشـــيرة: جلود ونطوع، وأكوب من القصدير وحقة من دقيق الفلفـــل الأحمـــر، وكيس من السميد، وعدد عديد من بيض دجاجة «أم عيشة».. وقع كل ذلك على الأرض وانتشر بين السيارات وتحت أقدام المـــارة والمـــتطلعين والمنطقلين.. وطفق الصبية ينتشلون أمتعتهم انتشالا من التلف واليباب.

وتوعد الشيخ وكاد يسب الدين والوالدين لكنه أمسك بزمام نفسه، ولعن الشيطان وأمر باستئناف المسيرة. كل هذا يهون على الشيخ مفتاح، فهو يعرف أن الله مع الصابرين، وأنه ليتواضع مع المتكبر، وأنه صبور حليم.

ووصل القوم إلى قنطرة قرطاج بعد لأي شديد، فتنفس الشيخ مفتاح الصعداء، وجلس القرفصاء على حافة الطريق يستجم قلبه بشيء من السكون.. من راحة العقل وراحة الجسد.. ووقع بصره على قبور «الجلاز» على مدينة الأموات مدينة السكون.. راحة العقل وراحة الجسد... وقال في نفسه:«هؤلاء ماتوا وارتاحوا.. فإلى أين نقصد نحن ولم نتكالب؟»

وجلب انتباه الشيخ مفتاح قطعة من قنطرة حديثه البناء كانت معلقة بين الأرض والسماء كالمظلة المنشورة على تلك القبور. قطعة من طريق لا بداية لها ولا نهاية.. هبت من العدم وتقصد إلى عدم. فكر الشيخ طويلا، وأعياه التفكير في أمر تلك القنطرة حتى اهتدى إلى تفسير:
– معلقة.. لا هي متزوجة ولا هي مطلقة.. هذي عبرة للأموات.. القنطرة.. هي الحياة.. ياويح الغافل يا ويحه.. ويح من مات لا فقيدا ولا مفقودا.. كاد الشيخ ينسي نفسه على حافة الطريق، فقد ذهبت به الخواطر بعيدا عن واقع يومه، فطفق يسبح في بحراها معلقا بين الأرض والسماء، وكانت تستبد به الأخيلة والخواطر لولا أن قرعت أذنيه مشاجرة نشبت بين الهادي بين حفصية والطويل بن عكري أفضت بهما

إلى الشتم والسب.. إلى الكفـر والتجـديف.. فنـهض لتـوه وأدّب المتخاصمين في قسوة، لكنه لم يلبث أن أسف على ما بدا منه.

فكر في أمر هؤلاء الذين ألقت بهم الأقدار في خضم المشاكل منذ الصغر إن بين الكوخ والمدرسة أشواطا من الطريق قلما يقرأ لها الأوليـاء حسابا. الطريق في نظر شيخنا أصل البلاء ومصـدر الشـقاء.. فهـي النجاسة بين طهرين.. فما ذنب هؤلاء الأطفال وإن تجدفوا؟

الشمس.. الذنب ذنب الشمس. إنها تنضـجهم كمـا تنضـج الثمار.. كما تنضج النار كراع الشياه.. هم يطيبون قبـل أن يطـبخهم الدهر قبل الأوان.. قبل الحياة.. هو يعرفون كل شيء وإن هم لم يحفظوا أي شيء.

وامتدت الطريق أمام الشيخ مفتاح فاندفع يجر عربته في صمت، وشتى الخواطر تتزاحم في رأسه كان لا يتوقف إلا لماما، فيتنفس طـويلا، ويمسح العرق بكم «كدرونه» ثم يواصل مسيرته الكبرى إن ماشـيا وإن جاريا في الصعداء وفي المنحدر. وكان بين قطعتي الخشب الطويلتين اللتين توسطهما كالدابة لجر عربته يبدو كالظل وقد فقد إنسـانيته.. شـبحا غامضا يتراقص على الطريق في حركات الدمى في بهلوانية غريبة، ووصل الركب إلى الشاطئ، وما إن وقع بصر الأطفال على البحر حتى انـدفعوا في صخب لا يلوون على شيء. كان من بينهم من كان يسمع بالبحر ولا يراه.. وأوقف الشيخ عربته على حافة الطريق، خوفا مـن أن تغـوص عجلتاه في الرمل فيقع في ورطه. ورفع الحمالة فخلص رأسه واعتـدل ثم

استنشق الهواء طويلا، فنفذ إلى أعماقه بردا وسلاما واشـــرأبت عنقـــه، بالرغم منه وتطلع إلى البحر يتقصى أفراد عائلته واحدا واحدا.

ولاحت على وجهه المكدود ابتسامة طليقـــة ذهبـــت بـــبعض غضونه. وشعر الشيخ مفتاح بالسعادة تملأ صدره وتهز أركانه.. ســـعادة حاول أن يكتبها من خشية وطيرة. حاول أن يكبح جماحها فلم يفلـــح.. واندفعت رجلاه بالرغم منه، وقادتاه إلى الشاطئ فاختلط بطمة الأبنـــاء والأحفاد، واستحم بكدرونه ولطم الموج بكلتا يديه.. برأسه.. بكامـــل جسده. لقد اعتراه مس من السعادة حيره وكاد ينغص أنســـه.. وتلـــك الحيرة التي شعر بها منذ حين، إنه الآن في خيفة من أمر ما يجهله بعد، لكنه ينتظر وقوعه. ولاحت له «البراكة» من موضعه ذاك.. كوخا من خشب .. منتصبا على الشاطئ كالمراقبة في الصحراء، كالمئذنـــة بـــلا مصـــلٍ، كالمنارة المشرفة على البحر، كانت «البراكة» وحيدة فريـــدة لا تحفهـــا الأكواخ كما اعتاد أن يرى على الشواطئ.. إنه ليذكر الآن وهو يهرع إليها في حيرة، أنها لم تكن وحدها على الشاطئ يوم زارا لأول مرة. كان ذلك منذ عشرة أيام، إذا لم تخنه الذاكرة،.. نعم!.. لم تكن وحدها علـــى الشاطئ كالمنارة، كالمئذنة.

ووصل الشيخ إلى «البراكة» وأدار المفتاح في قفلها ودفع الباب ودخل.. لم تكن الغرفة رحبة الأرجاء، لكن كانت بها نافـــذتان. وكـــان الهواء ينفذ إليها فينعش الروح ويروض الأعصاب.. وفكـــر الشـــيخ في النوم.. نوم طويل ثقيل سينسيه كد يومه وإعياءه وإجهاده.. فكر الشيخ

في النوم فكاد يضطجع لحينه. لكنه أبعد عن رأسه ذلك الخاطر عدما لاحت له من النافذة عربته المحملة الرابضة على حافة الطريق. كان يعتقد أن الكلب الذي ربطه بإحدى لوحتيها سيحرسها ويدافع عنها عند الاقتضاء، لكنه يفهم الآن، وهو ينظر إلى عربته من النافذة فيرى الأطفال من حولها في هرج وازدحام. إنه يفهم ذلك جيدا. فما ذنب «زائلة بكماء» دأبها عدم الاستقرار، وهمها الحركة شأن كل ذي روح، وكل ذي قلب كبير؟

فكر الشيخ في كل هذا. وكادت تطول وقفته أمام النافذة لكنه انتبه إلى الخطر المحدق بمتاعه، وقد بدأ الأطفال يتقاذفون بأوانيه وحققه ويتجاذبون أطراف نطوعه وجلوده، فطفر طفرة آلمت ركبتيه والتحق بالأطفال ففرق شملهم وخلص بعض الأثاث من قبضتهم. وشرع– بعد استراحة قصيرة– يجمع أدباشه أكداسا ليحملها على ظهره أقساطا إلى «البراكة» وصفر طويلا فالتحق به الكلب وهو يبصبص بذنبه، وقد تدلى لسانه.. وطفق الشيخ يؤنبه على ما بدا منه.. لكنه لم يؤذه ولم يمسه بسوء لما رأى منه من ملاطفات ومعاذر.. وامتدت عنق الكلب إلى الزمام.. وتحنى ظهر الرجل تحت الحمل، وفهم كل من الرجل والكلب صاحبه دون كلام. ووصل الشيخ إلى البراكة بعد لأي شديد فوضع حمله داخلها وخرج لتوه يعتزم كركرة أثاثه متوكلا على الله، وعلي ذلك الظهر الذي لم تثنه الأيام بعد. وطفق يترنم بأغنيته في نشوة وحبور. وإنه لكذلك إذ صاح صائح يدعوه في صرامة لاحظها الشسيخ في صوته فتسمر في مكانه، وذعر. ودار بين الرجلين حوار طويل، حوار مؤلم لا طائل فيه.

كان الصائح موظف البلدية، أتى ينبه الشيخ مفتاح إلى ضرورة الرحيل على الفور .. إنه يأمره بالرجوع من حيث أتى ويهدم الكوخ أو نقله أو رفته أو رفعه إلى السماء إذا شاء.. فالأرض في حوزة شركة سياحية تعتزم إقامة نزل على الشاطئ وحوض للسباحة، ومرقص، وملعب، ومقهى ومسرح.. حي سياحي بكامل المرافق سيشيد قريبا في ذلك المكان، وسيشرع في بنائه بعد شهر أو بضع شهر.

وعبثا حاول الشيخ مفتاح أن يقنع الموظف بحقه في الترول بكوخ اشتراه منذ أيام من رجل لعله لم يرد به شرا.. لعله لم يقصد إلى مغالطته إذ باعه وتسلم منه مال العرق.. مال الجبين.. عبثا حاول مفتاح أن يفسر مؤقفه كمالك وموقفه كمصطاف فقد تصلب العون وكأن بأذنه وقرا.. القانون هو القانون ولا فائدة في إطالة الحديث.. نعم.. هو يأسف لا محالة – لما جرى.. هو يقدر الخسارة.. لكنه يعرف أن أصحاب السوء كثير «وأن الحوت يأكل الحوت وأن قليل الجهد يموت».. وقال العون. كأنه يستخلص العبرة من كل هذا:

– نعم، يا سي مفتاح.. هذه مظلمة لكن ما شأني أنا.. ليس لي في الأمر قول فصل.. العريان يسلب الميت.. هذه سنة الكون يا أخي.. المهم.. أنه يتعين عليك أن ترفع «البراكة» رقم **18** من هذا المكان حالا وإلا رفعناها نحن بوسائلنا الخاصة.. لقد انتظرناك أكثر من شهر وألصقنا بكوخك هذا.. الورقة التي ترى.. أنظر.. إنها تأمرك بالرحيل اليوم.. هيا يا سيدي، اليوم آخر أجل. ولا فائدة في الإلحاح.

الشيخ مفتاح من طينة طيبة.. هو يعرف أن أقبح الخلق عند الله الملحون.. وإذ هو لم يقدر على إقناع العون بالحجة والبرهان، فما عليه إلا أن يستسلم. لقد قال العون: «القانون في نظرة كالفريضة كالقضاء والقدر.. فلا مرد للقانون ولا اجتهاد في شأنه.. عليه أن يطبق القانون فيدعو القوم إلى الرجوع أدراجهم إلى الجبل الأحمر قبل أن يستفحل الأمر ويقع في ما لا تحمد عقباه.. ولعن الشيطان الرجيم، وأطرق طويلا ثم رفع رأسه وشخص ببصره في العون المنتصب أمامه وعلت شفتيه ابتسامة.. لم يفهم العون ما جال بخاطر الرجل وهو يبتسم هكذا بعد ما دار بينهما من حديث.

العون لا يفهم سر تلك الابتسامة، لكن الشيخ مفتاح، إذ فكر في أم عيشة وفي العددين اللذين ألصقا بكوخه، لم يجد من بد سوى أن يخنع لمشيئة الأقدار.. أن يستسلم ويبتسم.. للعددين- الواحد والثمانية- تبعة تقرأ لها أم عيشة ألف حساب.. صدق أم عيشة. وإن كذب المنجمون.

ووعد الشيخ مفتاح بأن يرفع «البراكة» قبل غروب ذلك اليوم وانهمك لتوه في قلع المسامير التي كانت تشد الأخشاب فهاله عددها وخشي أن لا يأتي عليها قبل الموعد المضروب والتحق به القوم فأطلعهم على جلية الأمر في شيء من الحرج والخجل وعاد إلى شغله في حزم وعناية وكان الأطفال يحملون الأخشاب الواحدة تلو الأخرى، ويضعونها على العربة في تؤدة ولطف، فهي مال العرق، ومال الجبين، وكسب

الفقير.. ومالت الشمس على القوم وهم في طريقهم إلى الجبل من جديد في مسيرة مضنية متئدة، فقد ثقلت الأخشاب عربة الشيخ فعسر عليه جرها ولم يكن ليقطع بها الطريق لولا مساعدة الأطفال تحثهم أم الزين من حين إلى حين فينشطوا ويدفعوا العربة بكل سواعدهم، فيخففوا عن الشيخ بعض الثقل.

ووصل القوم إلى نهاية المطاف، وأوقف الشيخ مفتاح عربته أمام الكوخ وقد انتصبت على عتبته أم عيشة في وقفة شامخة متعالية، وقفة مؤدب القرية يوم الامتحان، وقص الأطفال على الجدة ما حدث في صخب وحماس. لكنها ظلت واقفة واجمة وقد شخص بصرها في وجه مفتاح كأنها تقرأ على صفحته ألما دفينا كان الشيخ يحاول عبثا أن يخفيه ويكبته كبتا، وكادت تطول الوقفة لو لم يبادر الشيخ أمهه وهو يداعبها:

تابعة يا أم عيشة، والله تابعة.. كل المصائب من الرقمين يا أميمة بغينا نديك تتخلع في البحر..

تعوم ياخي البحر طلب يجيك

آش ندنوبيه اليوم؟

وضحك الجماعة ولكن العجوز لم تحرك ساكنا، ولاحظ الشيخ أنها تفكر في أمر ما، وأن القرار في شأنه كان في طريقه إلى فمها، وتكلمت الأم بعد سكوت طويل:

– البحر، يا وليدي مفتاح، في عيون الهادي وإبراهيم والطويل، البحر في قلب المؤمنين.

لا تيأس.. لا تكن ضعيفا..

شيء ما خسرنا يا مفتاح؟

اللي ما يصلح للصيف

ينفع في البرد الجراح

خوذ الفاس وكون خفيف

كسرها يا الله وارتاح

يا الله يا وليدي مفتاح.. كسر الأخشاب وشمر عن سواعد الجد، واترك الهلس والترهة والأعيان.. فكر في الليالي السود.. فكر في البرد.. في المطر.. في الضباب. [1]

[1] – من مجموعة «القنطرة هي الحياة».

حديث الرقم

عز الدين المدني

حدث معن وقال:

غاب معن داهرا طويلا، واختفى، فبحثت عنه، فما وجدت له مقاما أو سكنا أو عائلة فذهبت جهودي هباء، حتى أيقنت باليأس وببعض العجز، لكنني لم أستسلم للقنوط، وعاودت البحث مثنى وثلاث ورباع.. وتسقطت أخباره عند من يعرفه، واقتفيت بثبات وجلد،

وتتبعت شبحه أينما حل، وأينما ارتحل، ورجوت آخر الأمر أن أجد سبيلا لأصيبه فيها فلم أنجح، ولم أفلح، وتخيلت بعد ملل المدة كأنما كان يتحاشاني، وكأنما كنت ألاحقه، وكأنما كان يراوغني، وكأنما كنت أطارده فيزول عني ظله وشبحه، ولم أظفر بطائل، واحتملت فقداته على مضض.

قال:

كان آخر عهدي به لما قدم على من مدينة نائية، لا أذكر أسمها: يابس الوجه حديدا، غائر العين ذابلة، متلعثم اللسان ألكن، ملتفا في ثبات مغبرة، خلقة، نتنة، فأنكرته حين طلع على بلحية كثة كلحيته انسابت بين باب المكتب، وبعين شاخصة كعينه، وببزة قذرة كبزته،

وبرائحة دير آنية تنفست منه لما أعتلى الأريكة وجلس واستوى، أجـــل! أنكرته وعبست، فلم يهتم بي، وحنقت، فلم يحفل بأمري، مددت إليـــه النظر برهة، فإذا بي ألاحظ شفتيه ترتعشان كأهما همان ببث ســـر ولا تفعلان، كأهما تريدان إطلاق بعض الحروف من عقال لسانه ولا تبتغيان، ولم يدم هذا المشهد ثانية وثانية- خلتها ساعات تبور- حتى رمى بطرفـــه على الأرض، وحتى نسيت الحوار!

قال:

وإني لفي ملاحظاتي هذه وتعجبي من هذا السلوك، إذ وقف فجأة واتجه نحو الباب في مشية معذبة، ورج الباب وراح، فقمت أعدو نحـــوه علني أمسك تلابيب ثيابه الممزقة، ورجعت وقد عرفته وتوهمت بعد ذلك أنه همهم بكلمات عند الباب تبينت منها.. لا حوار بعد اليوم، وتهالكت على الأريكة، وعدت لنفسي، فتصورت ما كان منه ومني، وأعـــدت في مخيلتي المشهد بأكمله وبجميع جزئياته، وأنبت نفسي وذكرت على حـــين غفلة أنه ما حيا وما نظر، وما نبس، وما أشار، وما رأى، وما شعر، ومـــا أحس، فكأنه لم يكن لي أليف قط!

***

حدث معن قال:

قدمت على لؤي في حاجة لي، فاحتجب، ورفض قبولي وامتنـــع، لأنه يعتقد أنه أرفع مني منزلة، ذلك ظني! فبقيت في قاعة الانتظار حـــتى

دقت ساعة الزوال، وما هي لحظة حتى ولجت عليه الباب فـأنكرني، ولم أكلمه، وخرجت من عنده سبط المشية مزهوا!

***

حدث معن قال:

كنت أقرأ على لؤي كل ما أكتب، فيستحسنه أمامي، ويستقبحه أمام حسادي وأعدائي، ويمدحني في حضرتي، ويذمني ويزدريني في غيبتي، وأنا لا أعلم حتى رفع إلى ذلك فعرفت ما عرفت!

***

حدث معن قال:

كان معن شاعرا فذا، قال الشعر في سن مبكرة، وانقطع عنه، ومجه لما آمن به، وأشياخنا تقول فيه: «إنه أول من فتح للناس باب المعني الغريب، وآخر من أوصده عليهم» عاش متقلبا ومات منفردا.

نطق لسانه شعرا لما بدأ يجلس إلى الوديان، وإلى الكهوف، وإلى الجبال، فيخالها معابد ذاتية فيخفف قلبه، فيجد لها معنى، وتصغي أذنه، فتجد لصمتها، ولصوتها معنى وتبصر عينه، فتكسر، وتشمل وينتصب حسه فيتهالك وكان يقول «عند ذلك: أجد لكل شيء معنى في أحلام العوانس، في شطحة الراهب، وفي احتراق اللفائف» فحسبه ناس مجنونا وحسبه ناس وثنا جبارا، كان هذا شأنه في أول عهده، ثم لم يلبث زمنا حتى انحنت شخصيته، وتقصفت، وانسحقت، واعتكرت نفسه وتكدر

قلبه، وإذا به يخرج من نزول الظلمة يسير في الشـوارع حـتى تضـيعه وتبلعه، ويبقى فكره يحول حواليه، لا يقع على أي معنى، وتبقـى عينـه شاخصة طوال الليل تتطلع إلى الكواكب حتى تفور منه زفرة، وحينمـا يدق نصف الليل ينشرح صدره، ويخفق قلبه، ويلهج لسانه، وتتسع آفاق نفسه اتساع الملكوت اللا متناهي، فتكون الطمأنينة، ويكون الروح!

قال:

وكان معن من أول أمره إلى أوج عزه يقول كل ما حضره على سجيته وطبعه، وذهبت أشعاره بذلك في الناس، وكان بـين الأسـبوع والأسبوع يصرح للصحف أن الشعر هدفه، وغاية وجـوده، ومطلقـة الوحيد. ثم علا وسما... وما هي ظروف متلاحقة حتى دارت على رأسـه الخطوب، فأصاب جنه جفاف، وقحط، وجذب. فتألم لـذلك وتلـبس، وشكا وقال: «بعد عني المعني ولن أدركه!» وعلى الرغم من ذلك، يبيت ليلته يستلهم وما يلهم، ويطارد وما يظفر، ويلاحق وما يصيب. وإذا فاز بشيء تافه، أخذ في تثقيف ما أعوج، وتيسير ما عسر، وحل ما أشـكل والتبس، حتى يكل ويضني. وعندما يكتمل البدر أو يكاد تـروح عليـه سماء المعاني هائجة، عاصفة، فينهمر وينهال عليه ماء الشعر مدرارا عـذبا زلالا، فتنحل عقده، وتتهلل أساريره، وتأخذ نفسه في الصفاء والجـبر. وتنثال نفسه بعد الوضع، ويخرج للناس من الغد طروبا، طلق المحيا، فكان يقول ويردد على مسامعي آنذاك: «أنا رقم، وشعري رقم، والبدر رقم، وإذا هوى هويت!».

قال:

وانقطع عني بعد ذلك زمنا ليس بالقصير، ومكث أو اعتــزل في داره. فباغته ذات ليلة في الشرفة أمام منظار كأنه يراقــب بــه مجــاري النجوم والأجرام، ويقدر منازلها، ويضبط سكونها وحركاتهــا، ويحــدد طلوعها وأفولها.

فبادرته مازحا:

إيه يا معن، كم عدد الكواكب والأجرام؟

فأجاب:

لا أعرف لها عددا.

قلت:

أراك كل ليلة تصعد الشرفة، وتبقى ساهر العين كأنك منجّم، أو كاهن، وعليك المسوح!

قال:

لست بمنجم، ولا بكاهن، ولا براهب!

قال:

فأمسك عني ساعة، ثم أخذني من يدي صامتا، واشرأب وأشار:

أو ما نظرت في السماء؟

فأجبت بعجب: بلى!

فسأل:

أو تجد لها معنى؟

فأجبت:

نعم!

فقال:

أما أنا، فلا!..

قال لؤي:

وهذه أول مرة أرى معنا يفقد فيها المعنى. فجزعت عليه. ولم يبد ذلك مني لأترك له السبل. وجثمت برهة صمت بيننا... ثم انطلق لسانه كأنه يخاطبني أو كأنه يخاطب نفسه: «لا معنى للكواكب والأجرام في ذاتها، فليست سعدا ولا نحسا، ولا عبثا ولا قدرة، ولا جبرا ولا اختيارا، ولا حرية ولا عبودية، إنما هي واقع! واقع لا يمل، ولا يتضمن أي معني في ذاته. إنني لا أستطيع أن ألصق بها أي نعت، أو أية صفقة، لأني سأغذيها بذاتي. وقد جرت العادة أن تراها بعين عقلك ومنطقك فتقول: هي أرقام هي معادلات تسير في مجار منظمة مهندسة. أما إذا أردت أن تصبغها بألوان قلبك، ووجدانك، وببعض فكرك، فسوف تشاهد فيها عبثا محضا وتصرخ: «هذا لا معقول» والتعليل فرار وخيانة.

***

حدث معن قال:

بين لؤي وبين نفسه أبعاد شاسعة لا تضم إلى بعضها، فهو يحب ويبغض في نفس الوقت، ويهم بالفعل ولا يفعل في نفس الحين، فمتى يـــدرك لـــؤي نفسه؟ ومتى يجبر؟

***

حدث لؤي قال:

إذا قلت لمعن: «ماذا يدور بخلدك إن قلت لـــك: الأبـــيض؟» فينـــدفع: «الأسود» وإذا قلت له: «الأسود» ينفلت ويقول:

«الأبيض».

***

حدث معن قال:

آمن لؤي بالشعر يوم آمن بالمعنى، وكفر به لما فقد المعنى، فلم يكن له بد من الإيمان. ثم لم يكن له مناص من التمرد عليه، كأنما القـــدر يدفعـــه إلى ذلك.

كان يجسده ويقول: «أنا الشعر» وكانت الناس تقول: «أنت الشاعر».

قال الشعر بدون تكلف، فغرف من البحر ولا طفا ولا رسب، ووزن فلا اضطرب الميزان، ولا وقع في إخلال، وصعد سلم فما زلت قدمه، وانقادت له المعاني ذليلة حقيرة صاغرة، ثم سما فكان أوجه.

قال:

آمنت بالشعر يوم آمنت بالمعنى، وكفرت به لما فقدت المعنى، ألم تر في كل شيء معنى؟ حتى الناس! تقيسها بعقلك، فتكون، وتكسوها من وجدانك، فتكون، ألم تر الأشياء والناس فتصرخ: «أنا الخالق!» فتصنعها، فتكيفها، فتبرزها، وإذا بها أشياء وناس أو تكاد؟

أو لم تنافس الطبيعة في جمالها وقبحها، وفي انسجامها ونشازها، وفي بدائعها وغرائبها، فصورتها، فأحسنت تصويرها، ثم رفضتها فأحسنت رفضها، ثم أفضت عليها ما ليس عندها، وقالت الناس: «هذه طبيعة لؤي».. أفلم تضع أذنك في يمناك تصيخ إلى همس جنك بعد أن ألمت بك الأزمة؟ أفلا ترى عينك ما رأت من قبل؟ أفلا ينتصب حسك كما انتصب من قبل؟ وكنت في ذلك متقدا، ملتهبا متأججا معنى، وتخرج للناس من الغد وتقول: «أنا رقم وشعري رقم، والبدر رقم، وإذا هوى هويت».

لماذا أنكرت معانيك؟ لماذا مقتها؟ لماذا جحدت؟

أفلا تذكر يوم قلت لي: إن الشعر هدفي، وغاية وجودي ومطلقي الوحيد؟

أفلا تذكر يوم خلوت بي، وقصصت على حادثة ذهبت نفسي هولها؟

لقد قلت ذاك اليوم:

ذهبت إلى الشاطئ، فارا من المدينة لاجئا إلى البحر، وقد أخذت متاعا وليمونة، فوجدت نفسي وحيدا على الشاطئ، ولم أتعجب من وحدتي، ولم أسأل نفسي قط لماذا عاد المصطافون إلى المدينة، وقضيت يومي أسير آونة. وأتمرغ لي الرمال آونة، وأدفن جسدي فيها آونة وبقيت على هذه الحال ساعات حتى أتت على الشمس، ولم تحرقني، وقد استولى على الإغماء في آخر الأمر، واستغرقت الغشية الظهر والعشية وأول الظلام.

وانتبهت من غفوتي مقرورا، بعدما هب على النسيم، وطلع على البدر زاهيا، والنجوم عوانس يغمزنني، فتجولت بينهن خاطبا، ورد لساني: «أنا رقم، وشعري رقم، والبدر رقم، وإذا هوى هويت، ووجدت الليمونة جافة، يابسة، فأخذتها، وأنسل بي الرتل ووضعني أمام البيت، ودخلت المكتب فرأيت أوراقا مبعثرة فجمعتها على عجل، ومزقتها على أربع، وأحرقتها وذريت رمادها في الرياح، وفررت من بيتي غير خائف، وقدمت عليك من الغد، فوجدتك يابس الوجه حديدا: غائر العين ذابلة، متلعثم اللسان ألكن، وقلت لك: «لا حوار بعد اليوم».

«أجل! إنني رفضت، إنني أنكرت مطلقي، لأن بصـــيرتي فقـــدت معـــنى النظر، ولأن يدي فقدت معني الحس، ولأن فكري لم يعد يقبل التأويـــل والأوصاف والنعوت، لنطو صفحة، ولنفتح صفحة. (1)[1]

[1]- من مجموعة «خرافات»

مقابلة في الطابق الخامس

محمد صالح الجابري

حين طلب صالح مقابلة السيد مدير الإدارة في حضرة جمع من الحجاب الجالسين بباب العمارة، لم يجرؤ أي واحد منهم على فتح فمه بالكلام، فقد نظروا إليه دفعة واحدة نظرة تحمل معني الزجر والتأنيب، وحين استظهر ببطاقة زيارة مهمورة بخط السيد المدير نفسه..

لم يتوان أي واحد منهم على التفصيل بإرشاده.. قيل له: إن السيد المدير يبدأ عمله بالطابق الأول، ولا يعرف أحد ما إذا كان ما يزال هناك.. تحامل صالح على نفسه، إن جرحا قديما أصاب ساقه في حادث شغل بفرنسا يشل رغبته في الاندفاع إلى أعلى، ومع ذلك فقد أحس بأن عليه أن يناضل في سبيل الوصول إلى الطابق الأول، فلابد من كسب الوقت، ولابد من مقابلة السيد المدير.

أو لم يلحّ عليه مذ كان طالبا بفرنسا بأن يزوره حال عودته، وأعطاه في آخر لقاء بينهما بباريس بطاقة زيارته، وأعلمه بأنه أصبح مديرا كبيرا لإدارة كبيرة، صدر صالح ينشرح لهذه الإدارة بطوابقها الخمسة، وهؤلاء الحجاب والموظفون والمكاتب.. وهذه المعابر وقاعات

الانتظار كلها تحت إمرة ذلك الشاب الذي كان ذات يوم بحاجة إلى أن يستدين منه نقودا.

بلغ صالح الطابق الأول، حيث اصطف أربعة من الحجاب صفا واحدا على كراسيهم أمام باب مكتب مغلق مبطن بالجلد، نهض أربعتهم صفا واحدا، كالسد يحولون بيته وبين الاقتراب من الباب الكبير، سألوه أمره، فقدم إليهم البطاقة القديمة.

لاحت أسنانهم بيضاء في شبه انفراج.

قال أحدهم: إن السيد المدير انصرف منذ حين إلى الطابق الثاني.. ومن الممكن أن يكون هناك بمكتبه.. أعجب صالح بهذا النظام البديع الذي تظهر عليه الإدارة، وبالحجاب الذين اتحدت كلمتهم، إنه حزم الشباب ولاشك.. وتذكر صوت السيد المدير في اجتماعاته بالعمال والطلبة وتحريضه إياهم على النضال، والرغبة في تغيير كل شيء عند العودة إلى أرض الوطن.

لم يحس صالح بنهاية درجات الطابق الثاني، إلا عندما هب الحجاب جميعا.. أربعة على وجه التحديد يعترضون سبيله، ويطلبون إليه الإفصاح على حاجته.

كانت بطاقة الزيارة التي قدمها إليهم تزداد تلوثا بين الأيدي التي تحاول أن ترضي تطفلها بقراءة ما خطه السيد المدير على قفاها.

نصحوه في صوت واحد بأن يسرع إلى الطابق الثالث، فالسيد المدير صعد منذ برهة مع سكرتيرته إلى هناك، لأن قضايا مستعجلة دعته إلى الصعود، وإذا قدر له أن يصل في الوقت المناسب، فلاشك أنه سيحظى بمثل هذه المقابلة.

بلغ الإعياء منه مبلغه، فالاطباء نصحوه بأن يخلد إلى الراحة عند عودته إلى بلاده، لأن درجة السقوط في ساقه اليمنى تبلغ تسعين بالمائة.. وحذروه من الصعود إلى الطوابق، لأن الصعود إلى الطوابق كالتزول منها لا يترك فرصة للجراح كي تندمل.

مكث صالح في مكانه مترنحا.. ورنا إلى الكراسي الأربعة المحشوة بأجساد الحجاب وود لو تبرع أحدهم عليه بدقائق من الراحة، لكنهم كانوا ينظرون إلى وقفته ومكوثه باستغراب وتعجب، بينما جعل أحدهم يستحثه على الإسراع بالصعود.

ما أن حط قدميه على الدرجات في طريقه إلى الطابق الرابع حتى شعر صالح بالآلام الحادة تخزه، وبالعرق يتصبب على جبينه، ويغمر كل جسده، اتكأ على الحاجز يستعين به في رحلة الصعود الشاقة، ومع ذلك فقد بدا له وكأن هناك كفين تطبقان على عنقه، تمني لو أن حبلا من السماء يتدلى إليه ويتخطفه إلى نهاية الدرجات، ولكن ما الحيلة وقد وضعت لافتة على المصعد كتب عليها «خاص بالسيد المدير» أو ليس يمتلك بطاقة زيارة حتى يمنع من اسعماله؟ لاشك أنه سوف يحرض السيد

المدير على اتخاذ إجراء حاسم يرفع هذا المنع.. بالنسبة إليه على الأقل إذا ما دعت الحاجة إلى أن يكرر الزيارة.

في الطابق الرابع أصبح يسحب ساقه سحبا، وبدا الحجاب الأربعة لناظريه في دوامة من العرق والضباب، فاستعاض عن التحدث إليهم بتقديم بطاقة الزيارة التي أخذ العرق والتلوث يمحوان اسطرها المكتوبة، فهموا أمره فما كان منهم إلا أن أشاروا بصمت وبأصابع سباباهم الأربعة مرة واحدة إلى الطابق الخامس.

وتبرع أحدهم فأنبأه بأن السيد المدير صعد توا مع سكرتيرته لأن مهمة عاجلة تنتظره في مكتبه الخاص.. استند صالح إلى الجدار يتنفس من شدة الإعياء والألم، وفي غمرة من الحزن العابر شعر بمثل الحلم.

إذن فليس هناك تقصير من السيد المدير بقدر ما هناك تعاسة حظ، ذلك الشاب الجميل الكثير الابتسام، الذي كان يظهر دائما بصحبة شقراء جديدة كل يوم.. هو الآن على بعد أمتار منه مع سكرتيرة، قد تكون شقراء هي الأخرى كل المشاق هون بسبب المقابلة التي انتظرها صالح أكثر من خمس سنوات مضت على لقائهما الأخير بباريس.. سحب ساقيه، وأخذ يجرهما جرا.. إحساسه بالظفر منحه القوة على مغالبة الآلام والمتاعب، فقد شعر أنه على وشك أن يحقق مراده، وبينه وبين الطابق الخامس لم تبق إلا هذه الدرجات القلائل.

تعمد على الدربوز، وجعل يتنفس الصعداء عند كل درجة حتى لا يظهر أمام السيد المدير بمظهر الإعياء الذي يعانيه، عليه أن يتـــرك في نفسه انطباعا بأنه قادر على العمل، وعلى الاستقرار بوطنه، لقد كان – عند اجتماعه في تلك الأيام– يقول لهم: إن الذاكرة لن تخنه البتة ولـــن ينسهم فردا فردا.

أطل على الطابق الخامس: أبهاؤه زرابي، ولوحات وزهريات تعبق برائحة عطرة.. إنه طابق يختلف عن بقية الطوابق الأخرى الأربعة، لكـــم يشعر المرء بالارتياح لهذه الزينة.

حدق في مكتب السيد المدير الكائن في آخر المعبر.. فإذا ثمانيـــة حجاب بزيادة أربعة عن بقية الطوابق، لحهم وقوفا صـــفين متقـــابلين في ملابس أنيقة نظيفة.. ولمح الباب ينفتح فجأة ويمرق مـــن بـــين دفتيـــه الشبيهتين بدفات أبواب قاعات السينما رجل أصلع، مستطيل النواجـــذ يتبعه رجل آخر يحمل محفظة مربعة من الجلد الأسود البراق.. سرعان ما تلقفهما المصعد، بينما لم يتخل الحجاب حتى بعد مروره عـــن وقفتـــهم الحازمة.

خطر لصالح أن مقابلة مهمة مع شخصية كبيرة صـــلعاء كهـــذه تفرض على السيد المدير أن يصـــطحب معـــه ســـكرتيرته إلى الطـــابق الخامس.. ومن حسن طالعه أن وصل في الوقت الذي فرغ فيه الســـيد المدير من مقابلته، حتى لا يضيف الانتظار عذابا إلى ما يعانيه من العذاب.

أظهر بطاقة الزيارة للحجاب، وقلبه يكاد يقفز من بين جنبيه، لقد حانت اللحظة التي سوف تحسم فيها أمور شتى.. اللحظة التي تختصر خمس سنوات من الانتظار والافتراق، وشعر بقلبه ينفتح، وبساقبه تختلجان في وقفتهما على الزرابي الفاخرة.

كيف له أن يفتح ذراعيه ويملأ حضنه من ذلك الصديق القديم.. إنه سيطبع على خديه قبلتين.. سوف يذكره بتلك المبادئ التي علمها إياهم.. وبتلك المخاطر التي صادفته عندما كان يكلف بتوزيع منشورات بين العمال.. سوف يذكره بالعدالة وأفاق من غفوته، فإذا الحجاب قد التفوا يتفرسون البطاقة وهم يقولون له في تهكم: لو كنت- كما تدعي صاحب هذه البطاقة- لعرفت السيد المدير.. وقد مر تحت بصرك الآن إلى المصعد.

ارتطمت العمارة بطوابقها الخمسة.

العرق يتصبب على جبينه، وجرحه ينزف دما.. وكفه على السلم.

فتح فمه ليصرخ، ولكنه شاهد طفلة صغيرة ترقص وسط نافورة من الماء.. وشعر بحلقه يجف.. فأخذ يعدو بكل قواه إلى الطابق الأرضي ولم ينتبه إلا وهو بالباب أمام صف من الحجاب: حجاب كل الطوابق على وجه التقدير، وقفوا يؤدون التحية لسيارة «د.س» كانت على وشك الانطلاق.. ما إن انتهى إليها حتى أخذت أضواؤها الحمراء تخفق،

والعجلات تتحرك.. ودون أن يصدق أن السيد المدير هو ذلك الأصلع الذي يركب الجهة اليمنى من المقعد الأخير، أخذ صالح يعدو بكل قـــواه يريد الإمساك به ليعرفه بنفسه ولكنه ما كان يقطع بضعة أمتـــار حـــتى انطرح على الأرض، وغام بصره، ولم يعد يرى أمامه شيئا، عدا ما كـــان يتناهى إلى سمعه من أصواب الحجاب. [1]

[1] – من مجموعة «الرخ - يجول في الرقعة».

الهمس المكتوم

محسن بن ضياف

رجل من أولئك الرجال الذين يعترضونك في الطريق فلا يلفتون نظرك أما إذا عرفته فيعسر أن تنساه.

كنّا إذاك مراهقين وكان إذاك شابا. كنا تلاميذا وكان أستاذا في عنفوان شبابه، ورد علينا القرية سنة، ثم تلاشى في الأفق كما تتلاشى الأبخرة أو دخان المصانع.

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

– هل لك أن تذكرني باسمك؟

قلت:

– محمد بو عبد الله.

قال والابتسامة مازالت تملأ وجهه:

– في أية رقعة من بلادنا تعارفنا؟

قلت:

– في سيدي عمر بو حجلة،

أبت الابتسامة إلا أن تزداد إشراقا على شفتيه.

قال وهو يطيل النظر إلى وجهي:

– لقد تغيرت كثيرا يا بو عبد الله.. يبدو أنه يستحيل على أن أسترجع صورتك القديمة والقرية الساكنة المحاطة بالبراري الشاسعة والمسجد الأبيض الصغير الرابض، وسط القرية تمد مئذنته عنقها كأنها مرصد تحرصه من أي طاروق.

ظل كما عرفته يوما. منذ أكثر من عشر سنوات، أنيقا في مظهره، ضحوكا لاذع النكتة..

كنت أجلس أمامه على المنضدة الملاصقة لمنضدته.

تجلس بجانبي زهرة، فتاة بها عرج خفيف، شعرها العسلي مشدود إلى قمة رأسها مغطى بمنديل قد تداخلت على صفحته أزهار قاتمة.

نظراته تلامس وجوهنا في حنان، نشعر بها كأنها أصابع ندية من مخمل، لا تفرق بين ذكر وأنثى.

– لماذا يا سيدي قتل عثمان وهو شيخ عاجز.. لماذا تسلق عليه الجماعة الجدار، سفكوا دمه فوق المصحف، قالت زهرة ذلك وصمتت تلتقط أنفاسها.

قتل:

– إن أصابع سارة التي قطعت وهي أصبع اتهام ضد الهمجية التي عليها أولئك القوم الذين تسوروا عليه الجدار.

تعلقت عيناه بالسحب المتراكمة خلف زجاج النافذة، سحب تملأ سماء القرية وتنذر بأمطار لن تأتي.

التفت وكأن وجهه قد كسي بقناع مسرحي.

– يجب أن نفهم التاريخ جيدا، نفهمه لا كما ترويه الكتب، بل بين سطور ما يرويه الرواة، كتب التاريخ في الماضي مثل الصحف اليوم، فقد يخفي ظاهرها باطنها.

أشهد أني لم أفهم شيئا ولا فهمت زهرة شيئا.. كنا نتأمل بأعيننا الغضة ما نقشناه بالجانب المسنون الحاد من البركار على المنضدة. فتى وفتاة.. الفارق الوحيد بين الصورتين، ثديان ضامران وشعر متهدل للفتاة وقامة أمتن وأطول للفتى.

– لم يقتل أحد عثمان ولم يقطع أحد أصابع سارة ولم يلطخ أحد المصحف بدمه.

قالت زهرة في تعجب:

– ألم تقل إنهم تسوروا عليه الجدار وقتلوه وهو يرتل القرآن وو...

– نعم هذا ما قاله المؤرخون ولكن الذي لم يقولوه هو أن عثمان قتل نفسه.

أحسسنا بأنفاسنا تتقطع، ألهب الجفاف حناجرنا إلى حد الورم.

– قتل نفسه؟

– كانت سارة تعلم ذلك ولكنها كانت تحب عثمان، لم يكن يخطر ببالها إن مدت إليه أصابعها الرقيقة تحميه أن يقطعها. فقد منحته شبابها وجمالها في شيخوخته وهرمه.

كانت قامات العمارات تحيط بنا، تحجب عنا السماء، تكاد تخنقنا أصوات منبهات السيارات تصم آذاننا، أمشي بجانبه بكل احترام وإجلال.

– شاب طيب بسيط نازح من الريف، عشب بري ترعرع في السهول وعلى أكتاف الربي المكللة الذري بالجليد، حللت بالمدينة منذ سنتين.. انتسبت للجامعة، أقمت في المبيتات الجامعية، أنتقل بينها والمكتبات، أهيم أحيانا في شوارع المدينة ثم أعود إلى كتبي، التقيته يومها صدفة، فتفجرت في أعماقي ينابيع الحنين إلى الماضي.

تساءلت زهرة في غيض والعبرات تخنقها:

– كيف يقتل نفسه، ويقطع أصابع زوجته الجميلة التي تصغره بسنوات.

قال في هدوء:

– هذا الذي حصل ولكنه لم يحيرني، لأن التاريخ لا يكذب وإن روى أشياء تشي بالكذب، ألم يكن هو الذي حمل السيف وأعطاه عن رضى إلى قبيلته بني أمية فجارت وذهبت بأموال الدولة ومنها خراج إفريقية والمغرب، ذلك السيف هو الذي قتله..

وجه زهرة الأبيض المستدير كعباد الشمس علته حمرة،

– الإسلام يحرم قتل النفس.

ابتسم مد أصبعه إلى السبورة ارتسمت على وجهه علامات لم نفهمها قال:

– السيف الذي منحه إلى ذويه السيف الذي استله بنو أمية على المؤمنين– ارتد وهوى على عثمان وهو منحن على المصحف يحتمي بكلام الله..

رأيت وأنا جالس قرب زهرة الجياد والجمال تحيط ببيت عثمان أحاط الرجال بالبيت إحاطة السوار، رجال لهم أعين من نار، أصواقم متحشرجة مثقلة بالضغينة، تلاحموا. تكاتفوا تسلقوا الجدار..

قال يخاطبنا:

- ماذا يمكن أن يفعل رجال التجؤوا إلى الخليفة يرتجـون منـه العدل والإنصاف من واليه على مصر وإذا بهم يكتشفون في رسـالته إلى الوالي الأمر بعقابهم..

ما إن ينتهي الدرس حتى نسير جماعات على الطريق الأسـفلتي المعد للسيارات ثم لا نلبث أن نعرّج. نسلك مسارب تشـق الأراضـي الزراعية قطيع من الآدمين الصغار، نتجه نحو قريتنا بين الحقول ننقسم إلى فريقين، فريق من الفتيات وفريق من الفتيان تتعمد زهـرة أن تلقـي إلى بنظرة قبل الوصول إلى القرية، الشمس تبتعد عنا شيئا فشيئا تتجه نحـو الغروب تاركة خلفها حمرة فاترة على صفحة السماء الزرقاء.

نظرت إلى وجهه وجه به صلابة كأنه منحوت مـن حجـر وإلى شاربه الكث، شعرات بيضاء أخذت تزحف هنا وهناك على الشعر البني.

قلت:

- إن أمر عثمان مازال يحيرني إلى يومي هذا يا أستاذ:

قال وهو ينظر في وجهي كأنه يبحث فيه عن صورة ما حـاول جاهدا إبرازها من أعماق الذاكرة، أخذت رخات المطـر تتطـاير رذاذا حولنا.

- من هو عثمان؟

قلت:

– الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

قال في تعجب:

– رجل هلك منذ أربعة عشر قرنا.. ماذا تريد أن نفعل له اليوم.

قلت:

– هل قتل نفسه؟

نظر إلي – صمت– ثم قال: ربما.

قلت:

– أم قتله الذين تسلقوا عليه الجدار.

قال:

– فعلا هكذا روت كتب التاريخ.

ثم ركّز على عينيه، وقال:

– ولماذا عثمان ومن قتل عمر وعلي وو...؟

ثم قال جوابا، كنت منشغلا بعثمان، اندفعت سائحة شقراء فارعة الطول مشدود ابنها إلى صدرها بأحزمة. نظرت إلى الطفل، ذكرني وجهه المستدير بوجه زهرة، تختلس ابتسامة قبل أن تختفي في أحد أزقة القرية.

ضرب براحته ذات الأصابع الغليظة الملطخة بالطباشير السبورة نظر إلينا:

– أنت وزهرة قتلتما عثمان انفجر الرفاق في ضحكة ما لبثوا أن كتموا صوتها عندما اصطدموا بنظرات الأستاذ، نظرات تنبعث من عيني طائر من الكواسر.

قلت:

– أما زلت تدرسّ يا سيدي

قال وهو يمسح قطرات المطر عن جبهته:

– لقد آن لي أن أستريح من أعباء التدريس.. فقد أحلت على التقاعد الأوجوبي.

– لقد بلغني أنك أصبحت متفقدا أو شيئا كهذا نظر إلى والابتسامة تملأ وجهه:

– لقد كذب عليك من أخبرك بذلك.

كان يمشي مديد القامة كالشراع مرفوع الرأس. قد تغضن وجهه تحت زخات المطر المتلاحقة، فجأة أدركنا شبان يعدون. يتوزعون على الأنهج الجانبية، التجأ البعض منهم إلى سلالم العمارات القريبة. ابتعدنا عن طريقهم، طلب مني أن ندخل إحدى المقاهي رأينا أسرابا من الشرطة تتعقب آثار الشبان. تقبض على البعض منهم، تجرهم إلى شاحنة

الشبان محتفظين بلافتات في أيديهم.. لا للغزو الأجنبي.. الثروة العربية للعرب.. الموت للعملاء.

كانت عيناه تتابعان الشبان يحملون ويدفعون قهراً إلى شاحنان. وقف النادل أمامنا، قال دون أن يلتفت إليه:

- قهوة من فضلك.

قلت:

- قهوة لي أيضا.

الحمرة مازالت تطفو على وجه زهرة، الغيض يهزها بكل عنف.

لامست بأصابعها النقوش على المنضدة، ملأ نفسي شعور غريب وأنا أنظر إليها، كان أول شعور من نوعه عرفته في حياتي تلامس أصابعنا فوق النفوس على المنضدة ارتفع صوت الأستاذ في استفزاز:

- من قتل عثمان؟

تقلصت أصابعنا في رعب. انكشفت النقوش. قالت زهرة في اضطراب وقد شحب وجهها:

- أنا ورفيقي بو عبد الله

فتح أزرار معطفه، برز جسمه الهزيل في بدلة تقادم عليها العهد. جلسنا وعيوننا تلاحق ما يدور من شغب في الشارع، اندفع المطر بقـــوة يغسل الواجهة البلورية. أصبحت الرؤية ضبابية.

التفت إليّ. ابتسم ابتسامة حيرى حزينة، وقال:

– من قتل عثمان؟

اشرب بإصبعي من خلف الزجاج وقتل:

– قتل نفسه بأيدي هؤلاء.

قال: سيان عندما أشرع سيفي أو أواجهه فوهة مسدسي أكـــون إما قاتلا أو مقتولا. رفعت كأس القهوة احتسيتها. لسعت حرارتها شفتي، أطرقت إلى الأرض، شعرت كأن موقدا يلتهب في صـــدري، أفرغـــت الكأس.

وضعته على المنضدة قلت لزهرة:

– لقد قتل عثمان نفسه.

هزت رأسها. نظرت إلى بعينيها العســليتين جــدائل شــعرها العسلية تطل من المنديل فوق رأسها. انبعث من عينيها بريق كأنه طعنـــة خنجر.

القرويون أخذوا بدورهم يعودون من مزارعهم- دوابهم المتعبة تتقدمهم- لما بلغنا مشارف القرية التقت أعيننا في صمت كأننا نفتـــرق لأول مرة إلى الأبد.

أخذ الأستاذ ينفث دخان سيجارته، يترشف قهوته، تقوقع حول نفسه في صمت.

قلت في نفسي لم تأخذ منه السنون بقدر ما أخذ منـــها. لـــولا الشعرات البيضاء لقلت إنه لم يتجاوز الأربعين.

وقف أمامنا شرطيان. طلبا بطاقة تعريف كل منا. نظـــرا فيهـــا، طلب أحدهما من الأستاذ أن يتبعه. جزعت. أنعقد لساني لم أعرف كيف أتصرف. وقف. ارتدى معطفه. وضع فوق المنضدة قطعة نقدية. مـــدّ إلى يده. وقفت شددت على يده بحرارة وشعر بخجل. نظرت إليه وهو يمشي بهدوء فوق الرصيف الذي غسلته مياه المطر، قلت في نفسي:

- سنلتقي حتما حول بيت عثمان.

وكأنه استمع إلى كلماتي. التفت إليّ. حياني بابتسامة وواصـــل خطاه.. قلت وعيناي تتابعانه:

أليس غريبا أن نلتقي بعد سنوات لنفترق على هـــذه الصـــورة خطت زهرة على ورقة صغيرة كلمات دفعتها بأصابع حذرة، قرأت فيها حذار أن تتبعني إلى زقاقنا مرة أخرى أو تكلمني في القرية. إن أخي توعد بتحطيم رأسك لو رآك تحادثني.

تركت المقهي، خرجت أعدو خلف الأستاذ لما أدركت آخـــر الشـــارع رأيت شاحنتين وهو واقف وسط أحديهما بين الشباب، خلفه قرب كتفه رأيت وجها أنثويا أبيض مستديرا يبتسم إليّ، وقفت جامـــدا في مكـــاني، أحسست فجأة بيد ثقيلة تمسك بي من ياقة جمازتي، تدفعني بقوة إلى داخل الشاحنة.. وجدت نفسي بجانب شابة متينة الجســـم. مجـــزوزة الشـــعر كالشبان.. تحتضن لافتة بكل شجاعة. خيل إلى أن كلا منا يعرف الآخر، تحركت الشاحنة، أخذت أجسامنا تتمايـــل كأنها تـــتلاحم وتتكـــاتف وتتمازج أمسكت بذراع الأستاذ، اخترقت الشاحنة شـــوارع المدينـــة وعيون المارة تتابعنا تلاحقنا كأنها تناجينا في همس مكتوم.[1]

---

[1] – من مجموعة «أنا والرجل الآخر».

المليار

عمر بن سالم

– مليار! مليار!

أصبحتُ هذه الأشهر الأخيرة، وبمجرد شعوري بالّرغبة في الحصول على شيء، ألهج بهذا العدد بدون وعي.

لم يشغلني ذلك كثيرا أوّل الأمر لأن الصيحة ظلت لا تنفلت مني إلا عندما أكون على انفراد، خاصة عندما أكون منبسطا على السرير في غرفة نومي، ثم تطورت الأمور بسرعة هذه الأيام بعد أن تكاثرت على الطلبات، وازداد إحساسي بالعجز وفراغ اليد، فصرت أهتف باللفظة في الأماكن العمومية وعندما أقطع الشارع أو أركب القطار.. ومع ذلك لم أكترث بالأمر لأن الضجيج ظل يغطي الصيحة، ويصد آذان الناس عن سماعها..

أما البارحة فقد بلغت بي هذه الصيحة الملعونة حد الخطر، وما أخالني في النهاية إلا مضطرا إلى عرض نفسي على طبيب مختص.

كنت مع خطيبتي رأسا لرأس في مطعم قليل الرواد، وانطلقت مني الصيحة بدون سابق إنذار كلفظة فحش في مجمع من المصلين.

تحرجت كثيرا، وصبغني الخجل، إذ لم أجد ما أرد به على رفـــيقتي الـــتي ظلت تحاصرني بنظراتها، وفي عينها تساؤل ملحاح.

فكرت لتوي في مخرج متمطط ذي تلافيف ومنعرجـــات حـــتى أخفف من وطأة الصيحة عليها، وأسهل على نفسي ازدرادها والاعتذار لها عنها.

أختلقت لها قصة صديق موهوم، قلت لها عنه: إنني عرفته علـــى مقاعد المدرسة الابتدائية في القرية، ثم نزحنا معا لمواصلة التعليم الثـــانوي في المدينة.

ذكرت لها اسمه الأصلي: عبد القادر، ثم قلت لها إننا كنا نكنيه في المعهد بأبي الخمسة والعشرين، وستعلمين لماذا بعد قليل.

كان هذا الصديق لا يهتم طوال العام إلا بدروس الحساب، أمـــا بقية المواد فهي لا تدخل عنده في الاعتبـــار إلا مـــن بـــاب الضـــوارب والمعدلات، ولكن ذلك لم يمنعه من التدرج في الأقسام والنجاح معنـــا في الامتحانات.

ومن أهم صفات عبد القادر هذا إنه كان دائم اللهاث، يلـــهث وهو يمشي، ويلهث وهو يتكلم، ويلهث وهو يأكل خاصة، وكـــان إذا ارتاح وخف لهاثه، تنفس الصعداء، ودعا لنفسه بخمسة وعشرين مليونا.

لم نسأله نحن رفقاء الصف عما تكون هذه الملايين، ومن أين تأتي، بل كنا كلما هتف بها أمامنا، نرد عليه في كل مرة:

– خمسة وعشرون مليون جلدة تريحك من لهاثك وطمعك!

ويضحك عبد القادر كالملتذ بامتلاك هذا العدد الهائل من الملايين آنذاك، ولو كان جلدا بالسّوط أو بالعصا، وينبسط للدعاء عليه، ثم يبدأ في اجترار أحلامه بيننا، حتى يشبع منها، ويشبعنا معه..

ثم داخله بعد ذلك ما يشبه التكبر علينا بثروته الوهمية وركبه نوع من الغرور، فأصبح يعتبرنا من الفقراء المساكين، لا يجلس معنا في المقاهي الشعبية، ولا يأكل مما نأكل، ولا يشتري مثلنا ما كنا نشتريه من الباعة المتجولين من مرطبات وغلال.

وكان غالبا ما يعنيه، إذا خرج معنا من المبيت إلى المدينة، يفارقنا أثناء الطريق بدعاوى يختلقها لساعته، ومواعيد يرتبها لنفسه كرجل أعمال ماهر.

فإذا ما عاد إلى المعهد في المساء، فتح لنا من أبواب الربح والشراء، ما كنا نعجز دائما عن تصوره وتصديقه، كنا ننصت إليه كالمأخوذين، ولكن ذلك لا يمنعنا من التنذر به، والسخرية منه في كل مرة، وكان هو لا يهتم بتعاليقنا كثيرا.. مادام قد ضمن لنفسه حسن الاستماع.

كنا نعتبر من أولئك الذين لا يستسيغون الواقع المر إلا إذا مزجوه بمعسول الخيال، وذروا عليه ورود الأماني.

كان حساب رأسه بالملايين وحساب جيبه بالملاليم، وظل حلمه بالغني متغلغلا في ذاته طيلة السنوات التي قضاها معنا في الدراسة، كما ظل هتافه بالخمسة والعشرين ماسكا بلهاته، ولم يفارقه إلا في اليوم الذي فارقنا فيه، وانقطع عن التعليم بسبب موت والده في حادث سيارة، كانت هي مصدر رزقه.

سكت قليلا وأشعل سيجارة، وأترشف جرعة من الكأس التي كانت أمامي، فقالت لي خطيبتي كالمحتجة:

– لكن القصة لم تنته، يا حمدي، لله حتى إذا اعتبرتها منتهية، فإنها لا تبرز الصيحة التي سمعتها منك منذ حين.

قلت في نفسي: إنها لم تنسها الشقية! لابد من الدخول بها في المنعطفات..

تنحنحت، ثم قلت لها مستعينا بالإشارة من يدي:

– على مهلك، يا زكية، لا تتعجلي، من حقي أن أتنفس.

– خفت أن تقطع بي حبل الحكاية.

– لا تخافي، يا بنت أيوب ذكريني فقط إلى أين وصلت.

– قلت لي: انقطع عبد القادر عن الدراسة بسبب موت والده المفاجئ.

– آه! لما عاد أبو الخمسة والعشرين إلى القرية، انقطعت عـــني أخباره بقية العام، ولما ذهبت في العطلة الصيفية لزيارة الأهل، وســـألت عنه، قيل لي إنه قد استغنى، وارتحل بثروته في العاصمة.

ولما أردت معرفة سبب غناه ومصدر ثروته، قال لي مخاطبا:

– دميّة الوالد، الله يرحمه وينعّمه!

ثم ضحك مستخفا بالموقف وسألني كالمختبر لذاكراتي:

– أتدري كم قبض أخوك عبد القادر مـــن شـــركة التـــأمين، كتعويضات؟

قتل له مازحا:

– خمسة وعشرين مليونا!

رفع محدثي يده في الهواء، وضرب بها كفي التي امتـــدت إليـــه وأقسم لي بأن ما قبضه صديقي لا يزيد ولا ينقص على هذا المقدار.

تنبهت من تأكيدات صاحبي، ثم قلت مستعبرا:

– سبحان الله! كان يملك كل هذه الملايين، وهي ماتزال في عالم الغيب..

سكتّ عن الكلام كالمستلذ بمكارم الأقدار.. فتشبثت عينا زكية بعيني، وقالت لي متخابثة:

– لعلّ مليارك هذا الذي صرت تلهج به، هو أيضـــا في طريقـــه إليك من عالم الغيب.. من يدري؟

أحسست بأن إلحاح رفيقتي على معرفة سري مازال يلاحقـــني، وإنها لن تفلتني أو أعترف لها بخبالي، فاستقمت في جلستي، وقلت لهـــا في حزم:

– لم تنته القصة بعد.. صبرك عليّ!

وردت زكية بنفس اللهجة تقريبا:

– هات البقية إذن، وبدون تسويف.

قلت لها، وقد لمع في عيني المخرج:

– تصوري الصدف. يا طويلة العمر. اليوم! لا قبل اليوم ولا بعد اليوم! اعترضني أبو الخمسة والعشرين، وهو صاعد إلى ساحة القصـــبة، بينما كنت نازلا إلى العطارين لم أعرفه من بعيد فقد كبر هـــلال جبينـــه، وتمت استدارة وجهة، وبدأ بطنه يعرف التكوير. وقفت برهة أدقق فيـــه النظر، وعندما اقترب منّي، وسمعت هميجه، صحت فيه:

– عبد القادر!

– حمدي! يا أهلا وسهلا.. طالت المدّة؟

– طالت واستطالت، يا أخي كيف الحال؟

– حال التّين في الغرارة: معصور من فوق معصور من تحت!

– لا يظهر عليك ذلك، فأنت على مــا يبـــدو شـــبعان ريـــان وصحتك جيدة.

– لا تتصور يا حمدي، ما أعاني كل يوم من مشاكل.

– وأي مشاكل، يا رجل، وقد حصلت على ما كنت تحلم به من ملايين؟

– أي ملايين، يا هذا؟ ما عادت الملايين تقضي..

تعجبت من رده، وبقيت أنتظر منه التوضيح، ولكنه انشغل عني بمسح عرق جبينه والاستراحة من لهاثه.

قلت له مستدرجا إياه للحديث:

– أترك الملايين والمليارات، وتعال أسقيك قهـــوة مـــن عشـــر الموظفين تزكية لفقر أخيك المتأبد!

قهقه سي عبد القادر، وانزاح عنه بعض همه، وقال لي مشددا:

– القهوة والغداء على اليوم.

– هيا نشرب العاجل، ونبقي الآجل إلى فرصة أخرى، فـــورائي أنا شغل في المكتبة، ووراءك أنت، على ما يظهر، مشاغل!

– فعلا أنا مضطر إلى الذهاب إلى وزارة الاقتصاد والمالية من أجل رخصة لفتح معمل لصنع أدوات البلاستيك المقوى، طلبتها منذ ما يزيد على الستة أشهر، وهم في الإدارة لا حياة لمن تنادي.

– لابد أن يكون مطلبك قد ضاع.

– مطلبي! هو مطلب وسكتّ! هو ملف يزن عشرة أرطال من الوثائق والدراسات وقد استغرق إعداده أكثر من عامين وكلفني ما كلفني من مصاريف.

– أصبحت إذن من رجال الأعمال، وصاحب رأس مال أنساك الخمسة والعشرين مليونا التي كنت تلهج بها في الماضي.

– ذلك وقت وهذا وقت، تصور، يا حمدي، أنني نسيت العد باللسان صرت لا أحسب إلا بالآلة، وأصبحت أوقع على الصكوك التي تقدمها لي السكرتيرة كل يوم، ولا أتثبت إلا في عدد الأصفار.

ثم أردف بلا مبالاة.

– أوراق تلتهم أوراقا. آخر صفقة عقدتها مع الخارج في معمل النسيج تتجاوز المليار.

استرسل سي عبد القادر في سرد أرقامه، وأنا أستمع إليه مبهوتا، كما كنت أستمع إليه عندما كان في المعهد، ثم ضحك فجأة، وترشف حسوة من القهوة المرة التي طلبها، وهو يلهث، ثم قال لي:

– انقطعت البركة مع الفقر، وانقطعت معه الأحلام..

قلت لرفيقتي ملخصا لها بقية الحكاية:

– فتح لي عبد القادر بعد ذلك الملفات الضخمة التي كانت في محفظته، فتضخم معها دماغي، وبدأت المليارات تتطاير، وتطن فيه كالزنابير، وبقيت كامل اليوم أحاول محاصرتها وإسكاتها دون جدوى، فقد يعن لأحدها من حين لآخر أن ينفلت من رقابتي، ويتسرب عبر التلافيف إلى أعصابي، ثم إلى لهاتي ليخرج منه كالصيحة التي سمعتها مني منذ قليل..

نظرت إلى زكية باستخفاف، ثم قالت، وقد بدأ دماغها هي أيضا يمتلئ ويتضخم:

– ولماذا تكتفي بمليار واحد، يا حمدي؟ لماذا لا تطلب مائة مليار؟ لقد أصبح المليار غير كاف لبناء دار من دور أهل اليسار عندنا، ثم تنهدت، وقالت مستطردة:

– تصور، يا حمدي، إنني تعرفت على زميلة كانت مع في الكلية، أبوها من نوع سي عبد القادر صاحبك، وقد تزوجت هذه الأيام، وصرف عليها والدها أكثر من مليار دون حساب تكاليف الحفلات ونفقات شهر العسل في الخارج..

– أرجوك، يا زكية، اتركي زنابير رأسي ترتاح.

ولا تمرري لي هذا العشاء بحكاية أخرى مليئة بالطين والأشواك كانت مني فلتة لسان، فلا تدخليني بها إلى مستشفى الرازي، أنا كما تعلمين من البضاعة البشرية الكاسدة التي لا يزيد ثمنها على المرتب الشهري الجاف.

– أنا لم أطلب منك شيئا، يا حمدي، أرجوك! لماذا انفعلت؟

– هذا كرم منك، يا عزيزتي، وتكونين أكرم لو أنسيتني هذا الطين الذي أحس به قد عشش في جمجمتي، وقبلت الزواج مني هذه الصائفة، بدون إقامة حفلات أو إرسال دعوات.. نعقد قراننا في البلدية، وآخذك من هناك في سيارة أجرة إلى شقتي التي أجرتها هذه الأيام، بلا جوقة، ولا ضجيج أبواق.

– آه، يا حمدي! ما كان هذا فيك ظني! ماذا تقول أمي للأقارب والجيران، تزوجت زكية الغالية بدون استشارتي أو مرضاتي!

– لتقل لهم ما تريد.. ألم تبلغي سن الرشد؟ ألست الآن قيمة على نفسك؟ ألست مسئولة على تربية الناشئة في المعهد؟

– كل شيء، يا حمدي، إلا إغضاب أمي.

ثم أردفت بعد ابتلاع غصتها مع الريق:

– أقترح عليك حلا وسطا: أعطني أنت مليونين، أضيف أنا لهما المليون الذي وفرته من المرتب، ونقيم حفلة بسيطة، ونرضي الجميع، أهلك وأهلي وبقية الأقارب والأحباب..

– حفلة بسيطة بثلاثة ملايين؟

– أصبحت التكاليف غالية، يا حمدي.

– غالية أو رخيصة! ومن أين أحصل لك على المليونين؟ كل مدخراتي قد دفعتها في كراء الشقة.

– دبر أمرك.. أقترض.. كلم صديقك سي عبد القادر مثلا.

– عبد القادر! أي عبد القادر؟

– انفلت التساؤل مني عن هذا الشخص المزعوم، كما انفلتت مني صيحة المليار من قبل..

أحسست بأن الخبال مازال يحاصرني، وبشدة ضربت جبيني، بكفي في عملية إنقاذ. حاولت استعادة وعيي بالورطة التي وقعت فيها. ولما أدركت خطورة الوضع قلت بسرعة لخطيبتي التي ظلت تراقبني، وتنتظر مني الجواب.

– آه سي عبدالقادر! إيه، ذكرتني فيه إنه ولا شك قادر على حل مشكلتي، إنه وحده المالك.[1]

[1] – من مجموعة « المليار».

البرنس الذي نسجته لي جدتي بعد موتها

سمير العيادي

جدتي ماتت، شيعها في ضحى اليوم واحد وعشرون شخصا- لم يبالوا بريح الخريف الباردة حسب زعم إمام المسجد- إلى قبرها في الربوة الموحشة التي ستختفي وراءها الشمس بعد قليل.

وصلت إلى القرية في سيارتي بعد صلاة الظهر، كان إمام المسجد في خلوته يراجع بعض السور، لم يسألني عن سبب تأخري ولم أطل المكوث عنده رغم أني أدرك أنه يستاهل شكري على عنايته بالجنازة، توجهت إلى دار جدتي كما لو كنت أريد اللحاق برائحتها.

كانت أشغال بمعمل النسيج بالعاصمة حالت دون أن يصلني تلغراف قابض البريد في الصباح، لعلها كانت تحول دون سفري كذلك رغم وعدي لجدتي بأن أدفنها بنفسي يوم تموت، معمل النسيج الذي أسسته منذ ثلاث سنوات لم تكتمل تجهيزاته بسبب إجراءات التوريد التي لم أقرأ لها حسابا، إمام المسجد والجيران وبعض الشيوخ الذين كانوا يترصدون في المقهى كل مناسبة لتحدي خمولهم والمشي خارج القرية لمشاكسة الموت بجدهم وهزلهم قاموا باللازم، ربما قصدهم غدا لشكرهم

وتقبل تعازيهم، غدا أعطي قابض البريد دينارا ومـــائتي ملـــيم مقابـــل التلغراف، ثم أبيع الدار أو أوكل بيعها لأحد المتطوعين.

جدتي كانت تعيش وحيدة، وكنت وحيدها، ولا أ عرف مـــتى ستنهمر دموعي.

في بيتها المظلم هذا لم أجد مصباحها، اشتريت شمعـــة أشـــعلتها وأشعلت سيجارة، ثم جلست على بساط من وبر الإبل كانت تنام عليه جدتي، مرت ثلاث أشهر دون أن أجلس في هذا المكان، منذ ثلاثة أشهر كان نيرا رغم شحوب المصباح، كانت جدتي لا تكلمني كـــثيرا، لكـــن سعادتها عندما آتي لزيارتها كانت تشع في عينيها وفي شـــفتين كمشـــهما العمر، قالت لي منذ ثلاثة أشهر هل صرت تبيـــع منســـوجاتك دون أن ترينيها؟ قلت لها منذ ثلاثة أشهر: إنها نفس المنسوجات التي قلت عنـــها إنها لا تضاهي ما تنسجين. وضحكنا. وها هي ضحكتها الخافتة لاتـــزال بين عيني.

عيناي لا تأنسان إلى ضوء الشمعة ولوالب الدخان المتصاعدة من سيجارة مرة، غير أنهما يلحان في التدقيق استكشافا لما خلفته جدتي، إنهما يرهبان هذه الورثة التي ستشغلني، ربما صعب عليّ أن أجد غـــدا مـــن يشتريها أو يقبلها وديعة، عفش مبعثر، بعضه علق بالســـقف في خيـــوط الرتيلاء، وبعضه شد إلى أوتاد نخرة مندسة بين حجارة الجدران المهترئـــة، والبعض الآخر مرمي على الأرض الطينية في سكوت النسيان.

لقد بدأ النسيان يدب في بيت جدتي، وأعتقد أن عنزها كذلك قد نسيت طريق الرجوع، أو لعل إحدى الجارات آوتها عندها مع عنزاتها أنا نفسي نسيت أسماء الأواني وما عبق فيها من زيوت ومؤن وتوابل ومصبرات التمر والزيتون والهروس والقديد، وكذلك الحشائش البرية التي كانت دواء جدتي الوحيد.

نسيت.. نسيت فعلا أن أتلفت إلى زوجتي– قبل أن يغلق مركز البريد– لأعلمها ببقائي في بيت جدتي إلى يوم الغد، أو إلى يومين أو ثلاثة أيام، لكن زوجتي تعلم أني هنا، لا شك أن عامل الهاتف بالمعمل قد بلغها ما أمليته عليه قبل انطلاقي من العاصمة، فلعلها تدرك أني أريد أن أقضي ليلة أخيرة في رحاب البيت الذي به ولدت وتربيت وتعلمت دون أن أشعر باليتم مرة واحدة بعد فقدان أبي الذي قتل في الجبهة السورية تحت لواء الحلفاء، وموت أمي التي لدغتها حية عندما كانت ذات ليلة في حدود الواحة تلتقط الجراد الذي صرت أكله مقليا أو مشويا منذئذ، زوجتي لم تر جدتي أبدا. إنها لا تحب زيارة مثل هذه القرى المهجورة بين رمال الصحراء، لعلها لا تحب جدتي لكنها لا تصارحني بمثل هذا الأمر حتى لا تثيرني، قالت لي ذات مرة: ألا تعتقد أنك تطيل البقاء عند جدتك إلى حد إهمال شئون المعمل أياما وأياما؟ ثم ابتسمت وأضافت: أنا لا أغار من جدتك طبعا، لكنني أعتقد أن ما ترسله إليها من مال وهدايا يغنيك عن السفر إليها في كل فصل. قلت لها: أخاف أن تموت جدتي دون أن أكون بقربها أو دون أن أعلم، قالت: لم لا تأتي بها حتى تكون قريبة منك دائما وتموت في بيتنا إذا قدر لها أن تموت. قلت: هي التي ترفض، كلا!

زوجتي لا تكره جدتي، لكنها تخاف من أن أنفذ مشروعي لتأسيس فرع لمعمل النسيج بالقرية والبقاء به لأكون قريبا من جدتي. عندئذ قد أرغمها على التحول معي إلى الصحراء التي لا تعرف عنها غير أساطير يتناقلها أهل المدن عن الرمال الزاحفة والعقارب القاتلة والمياه المخربة للأسنان والأمعاء دون إغفال الشمس ولهيبها الذي يصلي البشرة.

لقد نسيت السيجارة في يدي حتى لسعت نارها أصبعي الوسطي، فقمت مذعورا لا أعرف أين أرمي بها، خرجت من البيت، قذفت السيجارة أو عقبها في غدير قرب البئر تجمعت به مياه أهملها الدلو، ونظرت إلى سيارتي الرابضة قرب نخلة وحيدة في هذا الحوش الواسع الذي كان فيما مضى مرتع لهوي مع الكتاكيت والجديان والجراء، لو عدت الآن إلى العاصمة؟ لقد انتهى كل شيء، ولم يبق ما يشدني إلى هذا الدار سوى ذكريات أحملها أينما سرت. لو ركبت السيارة ورحلت تواً عن ماض لم يعد يهمني بقدر ما تهمني الدفعة الثانية من المغازل والمناسج الآلية التي وصلت منذ أسبوع إلى ميناء العاصمة؟ إني أرهب الطريق في ظلام الليل، خمسمائة كيلو متر. سيارة سريعة في الطريق السريعة لكن!.

هل تراني أقدر على السياقة قبل أن ينزل دمعي؟..

هممت بالعودة إلى مجلس في البيت فلمحت مجلس جدتي في السقفية، كان خاليا جذوع نخل ممدة غطتها حصيرات من السعف المجفف، اتكأت على جدار البيت، وعلى جذع نخلة مربوط إلى جذع

نخلة واقف قرب جرة مهشمة، لعلها الجرة التي شربت منها منذ ثلاثة أشهر.

اتجهت إلى السقفية مدفوعا برغبة خفية في أن أجد جدتي جالسة كعادتها وراء منسجها. كان الصمت ثقيلا، وكانت أخشاب المنسج مرمية في الركن إلى جانب الجدار لا تتحرك. ولم أر الحصير التي كانت تجلس عليها جدتي منذ ثلاثة أشهر. لو قدر لي أن أحقق مشروع تأسيس فرع للمعمل فسأبنيه هنا، على أنقاض دار جدتي، وسيكون برج مراقبة المغازل والمناسج هنا، حيث أقف الآن، في سقفية جدتي، قلت ذلك لجدتي منذ أشهر، فلم تجب ولم تعلق شغلها خيط سدى تقطع فجأة، ربطته وقالت: هل تريد أن أنسج لك أو لزوجتك شيئا؟ فضحكت، لم أجب ولم أعلق.

عثرت في كيس من الصوف الأسود وفي كبتي سدى، فجمعتها ووضعتها إلى جوار أخشاب المنسج وقد بدأت أشعر بالبرد، رأيت مغزل الصوف مرمي قرب الجرة فرفعته من الأرض وتشممته، ثم ألقيت به في الركن كأني لم أكن أرغب في حمله معي تذكارا. أخذتني قشعريرة وارتجفت، فطنت إلى برودة الهواء وأكد لي صوت آذان المغرب أن الشمس غابت. قصدت السيارة وأخذت منها معطفي وحقيبتي وغطاء صوفيا اشترته لي زوجتي في إحدى رحلاتها إلى أوروبا من مغازة تبيع جميع ما يحتاجه سواق السيارات في سفراتهم الطويلة، ثم عدت إلى البيت،

وعلي البساط الذي لا تزال رائحة جدتي عالقة بوبره عزمت، على أن أنام قبل أن يفيض حزني.

لم تتزل دموعي عندما أطفأت الشمعة، لكن جفوني سرعان ما التحمت، حسبت أن النوم أسعفني، إلا أن ما حدث فجأة خارج البيت أيقظني ليدفع بي إلى تخوم الجنون حشرجة خافتة، ربما كانت صادرة عن دبيب الحشرات في ثقوب الجدران لكن الأصوات التي تصاحبها! أخرجت من حقيبتي فانوسا صغيرا وضغطت على زره راجيا أن تكون بطاريته لم يخلص منها ما بقي فيها من كهرباء، قويت الحشرجة عندما شع النور في أرجاء البيت، ربما ذعرت الحشرات، أي نوع من الحشرات؟ كم من نوع من الحشرات؟ هذه الأدباش في مكانها، معلقة أو جاثمة في أركان البيت، وأواني الزيوت والمؤن مغطاة، ولا حراك غير تمطط ظلال الأشياء المبهورة بنور الفانوس في السقف وعلى الجدران وفوق الأرض، إلا أن الحشرجة ما فتئت تقوى، بل إن قرقعة متقطعة صارت تصاحبها، هل تكون عنز جدتي قد عادت وبقيت أمام الباب الموصد تنقره وتحكه بحوافرها تارة وبقرنيها تارة؟ لكن الأصوات قريبة مني. وباب الحوش بعيد، في الطرف المقابل للبيت لا يسمع طارقه إلا إذا نادى بصوت عال، عطست ثلاث مرات على التوالي، وكاد الفانوس يسقط من يدي، ارتعش جسمي، وسرت بين كتفي وفي شحمتي أذني حرارة، وتكور الألم في ركبتي اليمني إنذارا بأزمة قريبة أعاني فيها ويلات روماتيزم مفصلي حاد لا يزال عالقا بي، يشاكسني كلما تغيرت الفصول وتغافلت عن صحتي في مكان ذي رطوبة ما، رحم الله جدتي، في صغري، عندما انتابتني

الأزمة الأولى، جرعتني مياها ملونة غلت بها حشائشها، وكـــاد القلـــب يتورم وينسد لو لم أعرض حالي ذات مرة على طبيب المدرسة الثانويـــة. بعد قليل لن أكون قادرا على الوقوف، فلأنهض الآن ولأخرج، ولأنظـــر خارج البيت لعل أحدهم حدثته نفسه، وجاء ليسطو علـــى دار امـــرأ ة دفنت في صباح اليوم، ولم يعرف لها عائل منذ أمد، لا شك أن أخـــلاق القرية تمنع ذلك، ولكن..

كم الساعة الآن؟ أني أسمع صوت آذان العشاء، أين مصـــطفى؟ لابد أن أندس بكامل جسمي في مختلف ثناياه حتى لا تنهشني أفواه البرد الفولاذية التي تراود ليالي الخريف في الصحراء، هذه النجوم الساطعة في بحر من الحبر المعلق، ما بالها تظل بلا حرارة؟ ما بالها بعضها ذابل وبعضها آفل؟ كل شيء ساكن. حتى جريدات النخلـــة الوحيـــدة المنتصـــبة في الحوش.

والصمت سميك، يثقبه شعاع فانوسي الذي يجيل النظر داخـــل السيارة فيطمئن بالي.

لقد خيم الهدوء من جديد، اشتدت الحمى، وتفصـــد العـــرق، نديت كفاي، ثقلت كرة الألم بركبتي، لم أفهم لماذا توقفـــت الحشـــرجة فجأة، وكذلك القرقعة ووقع خطي خفيفة، ونور مصباح شاحب يرتعش هناك في سقفية جدتي الجالسة وراء منسجها.

ماذا؟..

أرمي شعاع الفانوس في ركن السقفية، وفي دائرته لا أري شيئا، أخشاب المنسج لا تزال ممددة، وكيس الصوف وكبتا السدي والمغــزل حتى الجرة المهشمة، ولا أثر لمصباح جدتي، لا شاهد على أنها منذ لحظــة فقط كانت جالسة هناك تصنع نسيجا أسود. فلأدخل قبــل أن تطــيح الحمى بعقلي، فلأدخل ولأطفئ الفانوس قبل أن يترعج الجــيران. هــل تعاتبني جدتي لأني لم أبك على فقدانها؟ فلأدخل ولأنتظر. لعــل الحمــى تساعد دمعي.

يا بيت جدتي دثرني.. وهل يدثرني هذا البيت في غياب جــدتي؟ سيقتلني البرد ستقتلني الرطوبة. وهذه الوحشة التي تملأ الظلام وتضغطني ستقتلني هذه الحشرجة وهذه النقرات وهذه الموسيقي المتصاعدة في رتابة من جوف الليل وخازة. أجل، ها قد عاد سمعــي يتقبلــها، يتحملــها، يتأملها. كلا، لن تتوقف ولا أعرف كيف أوقعها، فلأضع أذنــا علــى البساط وفوق الأذن الثانية محفظتي ولأغمض عيني. لن أنهض ثانية ولــو كان فريق من السراق يعانون خلاء الدار، ولو هجموا هجمــة واحــدة على البيت، لن أنهض ثانية إني أرتعد، إنه البرد، إني أتألم، إنه الروماتيزم، لو أنام ساعة واحدة! تكفيني كي أستعيد قوتي ثم أركب السيارة، وأنطلق إلى العاصمة هناك تنتظرني أعمال لا مناص من إتمامها قبــل أن أعــرض جسمي على الطبيب، أعرف ما سيقول: الإسبرين، في محفظــتي علبــة اسبرين تلازمني في حلي وترحالي. فلآخذ قرصا، بل قرصــين. عنــدما أتسلم المغازل والمناسج الجديدة وأضعها في الجناح الجديد وأراها تعمل، عندئذ.. كلا لن أرتاح أبدا، لا أستطيع أن أهمل المعمل ما دمت مــدينا

للبنوك. لن أفرط في إنجاز حققته بعد أن حرمت نفسي من ملذات الدنيا ورهنتها، رهنت نفسي والدار ومصوغ زوجتي الذي ورثته عن أمها والذي اشتريته لها، ودار جدتي؟ ألم أرهنها هي الأخرى؟ كيف أفكر إذن في بيعها؟ لاشك أنها لا تساوي شيئا، لكن البنوك، أصحاب البنوك يقدرون كل شيء، ويحسبون ألف حساب، ليست الدار التي يعتبرون بل الأرض، قطعة من الأرض فسيحة، قريبة من الطريق المعبدة، في وسط القرية التي لا تبعد عن المركب الصناعي المتسامي إلا كيلو مترات معدودات، لكن أين الماء؟ كيف أبلع قرص الإسبرين بدون ماء؟ على أن أخرج وأن أذهب إلى حد البئر.

ما حيلتي هذا شعاع الفانوس يتجول في أرجاء البيت ولا يعثر على بوقال أو مشرب أو طاسة. فلأخرج إذن ولأبق قرصي الإسبرين بين أسناني كي لا يبلهما الريق فيتفتتا، إني أخاف طعم الإسبرين.

قويت الحشرجة، عندما وقفت في عتبة البيت. توقفت النقرات لحظة ثم عادت في رتابة قاسية. ارتفعت الموسيقي الوخازة التي تأتي بلا ريب من باطن الأرض، حيث يعزفها أساطين الفن عند الحشرات تمجيدا لليل الساكن أو إثارة الليل الصامت، أحس فجأة بأن شخصا ينظرني، أطفئ الفانوس لعلي أتلمحه في الظلام دون أن يفطن وأجيل النظر، النخلة والسيارة والبئر.. ها هي قد عادت، إنها نفس الصورة، صورة جدتي وهي جالسة في السقفية وراء منسجها تعزف عليه بيدين بارعتين، ترفع القصبة، ترمي المكوك بين خيوط السدي، تخز خيط اللحمة بمرودها

تارة وبالخلالة تارة. تنزل القصبة، أشعل الفانوس وأصب شعاعه عليهـــا، لا شيء أمحت الصورة وسكتت الموسيقي، أطفئ الفانوس، جـــدتي تمـــرر إبهامها ووسطاها بين خيطي سدى وبسبابتها تدعوني إليها رجلاي ثقيلتان وفي ركبتي نار حارقة، أتحرك، وفي كل خطوة أشعر بالموسيقى الوحشـــية تعاند نبضي، ماذا تريد مني جدتي؟ تضع سبابتها الثانية على فمها، فمهـــا يبتسم، لكن ماذا تريد؟ تعال واسكت، لم أسمعها تتكلم لكني أدركت، أو ربما هي ذاكرتي. نعم جدتي.

ها أنا آت. طفلك محموم جدتي قد جافاه النوم، دثريني يا جدتي. أو فاتركيني أركب سيارتي وأرحل، أرحل الآن، لقد ضـــقت بموســـيقى عظامي. كلا، لن أشرب ما تشربين. هذا الذي تطبخين على كانونك ذي العيون المزمهرة لا ينفعني، أنا الآن أمضغ الأســـبرين، الأســـبرين مـــر. الأسبرين تفتت بين أسناني، ريقي حثرب في فمي، أعطـــني جـــدتي ممـــا تشربين، أجل. آخذ الكأس من يدها وأرمي بالسائل الساخن الأسود في فمي وأبلعه. بلعت ريقي والأسبرين، وخزرت إلى جدتي، إنها تضحك بلا صوت، طبعا مر. مر زقوم. ماذا تريدين مني الآن؟ أشارت على بالجلوس امتنعت، صوبت نظرها إلى النوال وجهت سبابتها إلى نسيجها الأسود ثم إليّ، وابتسمت، ثم عادت تعزف على منسجها موسيقى اللامبـــالاة. وفي عيني زمهرت نار الحمي، قالت جدتي. متي قالت جـــدتي؟ هـــذا آخـــر نسيجي لك. كلا! لم أسمع هذا القول. منذ ثلاثة أشهر كانت جـــدتي في هذا المكان وكانت تقول: هذه آخر زياراتك يا ولدي قبـــل أن يصـــلك نعيي، فهل تتذكرني؟ أشعل الفانوس، تمحي الصورة وتسكت الموســـيقي،

أطفئ الفانوس. تقول جدتي: أذهب الآن ونم في بيتي قليلا قبل أن تركب سيارتك وتأخذ الطريق، أشعل الفانوس هناك في الركن يتمدد المنسج وليس على النول سوى غشاوة من الرمل.

فجأة يهزني صوت آذان الفجر فيفلت الفانوس من يدي دون أن ينطفئ، بعد قليل يطلع الصباح، أجري نحو البيت، أدخله وأتحسس الظلام لألتقط محفظتي ثم أخرج مسرعا إلى السيارة، لقد كبت المياه وكظمت وجعي ولم تتزل دموعي..

أفتح الباب أولا. هناك في الطريق بعض الخيالات تتجه إلى المسجد، لا تبالي بي ولا أبالي بها. أعود إلى السيارة، أرمي بها المحفظة وأرتمي بها. أدير المفتاح فيزأر المحرك وتتجه أضواء الفانوسين الأماميين إلى السقفية، لم تعد هناك جدتي، أعفس المعجل فتنطلق السيارة رويدا وأدير المقود فيقابلني الباب مفتوحا على يوم جديد.

وفي الباب وقفت جدتي، ماذا تريد؟ إنها تتجه نحوي مسرعة وفي يدها اليمنى بيضتان، صباح الخير يا ولدي، هاتان بيضتان غليتهما لك فاشر بهما قبل أن تتوكل على الله، كلا! إنها ليست جدتي: إنها تخرج من تحت بخنقها قطعة من النسيج الأسود وتقول: هذه لك نسجتها لك المرحومة وتركتها عندي حتى أعطيك أياها. إنها جارة جدتي. كيف لم أعرفها؟ قالت: كانت تخاف ألا تجدها بنفسك في البيت عندما تأتي وتنشغل بالمأتم، فكلفتني بأن أترصد ساعة رحيلك وأضعها بنفسي في سيارتك حتى لا تنساها، كيف أنسى جدتي؟ تذكرت الجارة شيئا فقالت:

جدتك كانت دائما تتمنى أن تراك ملتفا في برنس أسود من الوبر الجيد الذي لم يعد من ينسجه سواها.

لا أعرف كيف أجيب، أعفس المعجل من جديد فتنطلق بي السيارة تاركة في عيني الجارة أكثر من علامة استفهام وفي عيون الخارجين من المسجد أكثر من علامة عتاب. هل أعود لزيارتهم مرة أخرى؟ كيف أنسى جدتي؟ هذا برنسها. إنه لن يعوض لزوجتي الغطاء الصوفي الذي اشترته لي في إحدى رحلاتها إلى أوروبا والذي خلفته في بيت جدتي مثلما خلفت الفانوس، لكنه سيذكرني بجدتي أبدا أبدا وسيدثرني، دائما.

الآن خرجت من القرية، وصلت الطريق السريعة، لم يعد يفصلني عن مشاغل المعمل إلا بعض ساعات، طلعت الشمس لتذيب الظلام. لكن البرد لا يزال شديدا، ولا تزال موسيقى رتيبة تتصاعد مع الحمى فتغطي صوت المحرك، ساعة واحدة تكفيني لأستعيد قوتي. ساعة من النوم، أوقف السيارة في جانب الطريق. أسكت المحرك أو ربما كان ساكتا، لم أعد أعي سوى صوت الحمى. آخذ نسيج جدتي أتدثر به وأتمدد على المقعدين الأمامين. بل أتكمش.

آه ازمهل حزني وسالت دموعي. دموعي تسيل.

المتفقد

محمود بلعيد

كان المتفقد سي عبد الجبار القسنطيني في سيارة أجرة يبتسم ويقول محدثا نفسه: «تسلقت الجبل يا ثعلب واختبأت فيه منذ سنتين، وتعتقد أنك هنئت وارتحت وابتعدت عني ولا أتجرأ يوما وأصعد إليك..؟»

وابتسم ثانية..

وسي عبد الجبار يعرف المعلم سي المختار العلويني حق المعرفة منذ زمن بعيد، منذ ما يزيد على عشرين سنة، يعرف أنه معلم قادر ذكي، نادر الذكاء، والتلامذه يحبونه، ويهابونه في آن واحد، ويعرف أنه خبيث ماكر كالثعلب تماما وكسول إلى حد بعيد من الكسل.. وسبق أن تفقده في الكاف ثم أبه قسور وحوش صفاية ثم الدهماني.. ويعبس سي عبد الجبار ويحس بوخزة عندما يتذكر الدهماني.

ظهر الجبل على بعد عظيما في لون الورد في ذلك الصباح الباكر عندما طلعت الشمس وانقشع الضباب.. وكانت السيارة تسرع في طريق مستقيم تحف به أشجار الكلاتوس يمينا وشمالا.. وأشرق الصباح وعم النور وتألق، وتعرف بعض المسافرين ببعضهم، وجعلوا يتحدثون

بابتهاج، وابتسام وانشراح.. وراق السفر والسيارة تطوي الطريق طيا والجبل يقترب شيئا فشيئا. لكن تابع سي عبد الجبار الحديث مع نفسه متهكما مبتسما وهو جالس خلف السائق، منكب بجسمه الهائل البدين على ركبتيه، مقرفص في مقعده مسرح نظره عبر هناشير القمح والشعير المترامية، المنشور هضابا وشبه هضاب، منخفضة مرتفعة، ممتدة حتى الأفق، قائلا: «هكذا أردت أن تصعد الجبل وتبتعد بعيدا وهنأ بخبز الطابونة والعسل والجبن وحليب البقر وابتعاد المتفقد، وكيف له أن يصعد إلى هذا المكان المرتفع الوعر.. البعيد عن كل أهل وعمران.. وهذا المتفقد عبد الجبار القسنطيني يعمد ويصعد إليك يا «دعبوكة» هكذا على حين غفلة، ويتسلق جبلك عن عرة.. وسوف تمضي أطول يوم في حياتك ويكون يوم الحساب.. وأمخضك كما تمخض الشكوة في فصل الربيع..» وينظر إلى الجبل المنتصب في آخر الطريق ويتابع «سوف أباغتك في هذا الصباح الباكر وأكون أول من يقبل عليك ويصعد إلى حجرتك ويضبطك بعملة من عمائلك التي لا يحصي عددها..».

دخل نسيم الصباح الباكر باردا نديا عندما فتح السائق بلور نافذته فاقشعر له الركاب.. ودخلت رائحة أشجار الجبل وفاحت.. لم يشعر سي عبد الجبار القسنطيني رغم ركوبه خلف السائق، بقشعريرة ولا ببرد، بل أرتاح للنسيم وانشرح له صدره. فمع بدانته كان يرتدي معطفه البني السميك الذي لم يفارقه منذ أكثر من عشرين سنة.. وعاد يفكر في المعلم سي المختار العلويني، ويبتسم من جديد..

تغير الطريق فخفف السائق من سرعة سيارته وتشبث بعجلة السـياقة، وازداد انتباهه، وابتدأت المنعرجات.. جعلت العجلات تئـز وتعـوي.. وشرعت السيارة تصعد الجبل بطيئة حذره لاهثة.. تميل يسرة وتقتـرب من جنب الجبل حتى تكاد تحتك به، وتميل يمنة وتندفع إلى الشفير حـتى تكاد تسقط في الوادي.. عم السكوت داخل السـيارة.. والسـائق في أكمل انتباهه وأشده، يتحايل مع الجبل يدير عجلة السياقة بمهارة متوخيا أحيانا أسهل الطريق لقطع المنعرجات واجتيازها..

في حقيقة الأمر خير سي العلويني هكذا في يوم من الأيام أن يصعد إلى هذا الجبل المرتفع الوعر ويعلم أبناءه.. بعيدا عن المدن، عن القـرى وحتى الدشر، بعيدا عن الطرقات المعبدة، يعيش هانئا سعيدا بـين كتبـه وأوراقه وتلامذته، بجانب المدرسة وأقرب حوش يبعد عنه كيلو مترين أو ثلاثة.

مضت ساعة والسيارة تئز وتعوي، تميل يمنة وتميل يسرة، تصـعد وتنزل وتبطئ وأخيرا استوى الطريق ثم جعل ينحدر فاندفعت السـيارة مهرولة في أول الأمر ثم استوتـ وأسرعت أكثر وعاد إليها نشاطها كله وسرعتها كلها.. وجعلت أشجارا مجهولة مختلفة الأنـواع والأشـكال والحجم تحف بطريق ضيق لكنه مستقيم.

وأخيرا ظهرت القرية على بعد جميلة بيضـاء كحمامـة، خفـف السائق في السرعة.. ثم عاد يسير ببطء عند شبه منعرجات.. ثم دخلـت السيارة القرية.. والمحرك يهدر قويا معتدا.. ووقفت في شبه ساحة فخف

إليها بعض سكان الجبل، كانوا هناك يترقبون.. وجعلــوا يتفرســـون في وجوه الركاب من خلال النوافذ.

نزل سي عبد الجبار القسنطيني من السيارة بصعوبة، ماسكا محفظته العتيقة الضخم السوداء التي لم يفارقها ولم تفارقه منذ عشرين سنة أيضا.. بدأ السير بعسر، في أول الأمر، وقد أعياه السفر وخدر رجليه.. ثم شرع يصعد الجبل متوخيا مسالك خفية تحت الأشجار وكات الأوراق اليابسة تخشخش عند كل خطوة بحذائه السميك الضخم الأحمر فيشـــعر بلـــذة وراحة لم يشعر بهما من قبل.. ثم نشط وأسرع في سيره ليصل في أقـــرب وقت إلى المدرسة.

***

كانت ساعته تشير إلى السابعة وخمس وعشرين دقيقة عندما وصل إلى المدرسة.. شاهد على بعد بعض أطفال يلعبون أمام قسم يعد المدرسة كلها.. بقي ينظر من بعيد، من وراء أشجار فرت منها عصـــافير حـــال وصوله إليها،، وتنقلت إلى أشجار أخرى بعيدة ثم عادت من جديـــد إلى غنائها وندائها ومناجاتها.. مضت دقائق شاهد خلالها أطفالا مقبلين أسرابا من كل جهات الجبل.. وأتت الشامنة والمعلـــم لم يـــأت إلى المدرســـة. والأطفال يركضون في الساحة وتحـــت الأشـــجار، يـــدخلون القســـم ويخرجون منه عدوا صائحين هائجين. وأتت الثامنة والربـــع والمعلـــم لم يظهر.. ابتسم سي عبد الجبار القسنطيني منتصرا قائلا: «هيـــه، يفـــوت الدخول يا دعبوكة – وأنت لا في علمك وفي درايتك.. لا تعرف مـــاذا

ينتظرك اليوم، ولا من يرقبك.. إني أترقبك بفارغ الصبر وعلي أحر من الجمر..» وأتت الثامنة والنصف وسي المختار لم يظهر والأولاد يلعبون، يجرون، يقفزون، يتشاجرون.

وأتت التاسعة وسي المختار العلويني لم يطل.

فقال في نفسه نصف غاضب، نصف متهكم «يا نهار أسود يا ثعلب ويا خبر أسود كما يقول المصريون وأهبط عليك كالعقاب وأنت لا تدري وأنقض عليك أمام جحرك وأنزل بك الجبل وأنت تعوي وترغي..».

وارتفعت الشمس

وبغتة سمع نداء حاد

«يا جرماني، يا جرماني»

فأسرع سي عبد الجبار بجرمة وجمجمته واختبأ وراء شجرة ثم التفت إلى جهة النداء بحذر فشاهد على بعد، تحت أشجار في الناحية اليسرى عن البطحاء المعلم سي المختار العلويني بعينه، واقفا أمام دار غيره لم يتفطن إليها من قبل، مشعث الشعر قصير القامة كما عهده، لم يزدد طولا ولم يزدد قصرا نحيف الجسم كالمعتاد، مشمرا عن ساعديه هذه المرة وفي يده اليمني شاقور.. وعاد يصيح بأعلى صوته من جديد: «يا جرماني! يا جرماني»..

فقال سي عبد الجبار متسائلا:

«إنه ينادي الجرماني الآن..»

وأجاب المعلم طفل من بين الأطفال في الساحة، صائحا بدون أن يفارق أصدقاءه،

– لم يأت يا سيدي!

فقال له المعلم صائحا آمرا:

أنت يا طاهر والفريزيط ومعكما معيزة.

فقا المتفقد من وراء الشجرة متعجبا «ينادي الطاهر والفريزيط ومعهما معيزة ؟!»

أقبل الأطفال الثلاثة على المعلم ركضا، ووقفوا أمامه كجنود أمام قائدهم فخاطبهم بكلام لم يسمعه سي عبد الجبار، ثم دار على أعقابه ودخل الحوش.. وإذا هم يتفرقون بسرعة ويتجهون ناحية الأشجار، يجمعون الحطب ويعودون به جريا ويمنعونه قرب «طابونة» انتبه المتفقد إلى وجودها في ذلك الحين.. يخرج كلب من باب الحوش عدوا ويطلع المعلم وراءه يهرول صائحا شاتما:

«يلعن بوك وجد أصلك المنجوس».

وينحني يلتقط حجرا ويقذفه به، يفر الكلب ناحية الأشجار عاريا خائفا ثم يبقى ينظر من بعيد إلى المعلم محركا ذيله يهر متذمرا من حين لآخر.. يقف المعلم أمام الباب ويخاطب الكلب صائحا شاتما ملوحا بيديه متوعدا.. ثم يدخل، ويبقى الكلب ينبح ثائرا محتجا ثم متحسرا ذيلا.. متوسلا يخرج طفل من بين الأطفال الذين يجمعون الحطب حمارا من وراء الحوش ويشده إلى الشجرة.. وأخيرا يخرج المعلم متجها إلى القسم حاملا قفة كبيرة، وقد مشط شعره ولبس فيسته سوداء، ويتابع سيره، ولا يلتفت إلى الكلب ولا يعيره انتباها فهو يعوي محركا ذيله.. قال المتفقد سي عبد الجبار من وراء شجرته:

«هيه، الآن تأتي بعد الحمار وبعد جمع الحطب وبعد ضرب الكلب، وتسير بخطى بطيئة هانئا مطمئنا..».

ونظر المتفقد إلى ساعته فإذا بها تشير إلى التاسعة وخمسة وعشرين دقيقة.. والمعلم في الساحة والأطفال يلعبون لا يعبؤون بقدومه، واقترب من القسم وبطرف عينه شاهد ناحية الأشجار شجرة ليست كعادتها، شجرة ترتدي معطف المتفقد وحمل محفظته.. قال في نفسه برباطة جأش وبدون أن يبدي أي حركة:

«آه كركر أتيت؟! رأيتك، رأيتك! وراء الشجرة واختبأت ومعطفك يفضحك ومحفظتك تشير إلى.. وأنا متأخر، واليوم يومي، آه آه يا كركدن، أتيت مبكرا يا وحيد القرن، وتخبأت وعملت حيلك كلها

وأنا قادم بأناة وراحة بال إلى المدرسة، بعد أكثر من ساعة من وقت الدخول».

وضع قفته بكل هدوء وصفق للأطفال فتعجبوا، وصففهم أمام باب القسم الأول مرة في حياتهم فازدادوا تعجبا، وأدخلهم بنظام ما بعده نظام وما قبله، ودخل هو آخرهم وأغلق الباب من خلفه ثم صاح فيهم بشدة فسكتوا جميعا وجلسوا في أماكنهم متحيرين متسائلين، وأمرهم بفتح كتبهم ثم نظر إلى ساعته وعالجها بسرعة، وفتح كتابه بدوره وبدأ الدرس في سكون تام.. وإذا بالباب يفتح، وإذا بمعطف سي عبد الجبار الغليظ البني يسد الباب كله لحظة ثم يدخل وفوقه رأس سي عبد الجبار وفي يده محفظته، ويقبل عليه بجهمه المعهود وثقل الكركدن وبطئه ويقول له بصوته الخشن وثقته التي لا تنتهي:

– أنا المتفقد عبد الجبار القسنطيني.

خف إليه سي المختار العلويني كثعلب بسرعة ونشاط، محتفيا مبتسما مادا يده قائلا بصوته النحيف:

– آه سلامتك، مرحبا مرحبا، وأهلا وسهلا.

–......

وتابع هاشا باشا بدون أن يعير أي اهتمام لسكوت المتفقد وعدم جرابه:

– الحمد لله، الحمد لله مرحبا بك مرحبا، اشتقنا إليك في الجبل، وقال في نفسه أنت غضبان يا كركدن غضبان ومنتفخ الأوداج تكاد تنفجر من الغضب، عيب عليك، روح عن نفسك في الجبل واسترح..

وضع سي عبد الجبار محفظته السوداء البالية التي يعرفها سي المختار حق المعرفة على الطاولة، ثم التفت إلى سي المختار نصف التفاتة قائلا بصوته الأجش المخيف:

– درس اليوم والدفتر.

فأجابه بسرعة ودون اكتراث.

– كل شيء جاهز وعلى أحسن ما يكون، تفضل تفضل، ومد له دفتر إعداد الدروس، عندنا اليوم قراءة وإملاء ومحفوظات ونحو.

«إنك تقتفي أثري، تلاحقني بدون هجعة الدرس اليوم والدفتر بدأنا باسم الله كالعادة».. الكاف ثم البقسور وحوش صفاية ثم الدهماني، آه الدهماني.. وذلك المصدر اللعين الذي استعصى عليك ولم تستطع إعرابه ووقف حمارك في العقبة ووقعت في الفخ.. وابتسم كنت تصول وتجول وتسردك على أمام التلامذة وتؤذن، وأتى ذلك المصدر فصرت تقوق فزعا كدجاجة فقدت فراخها في غاب، سامح الله ذلك المصدر..» وبقيت تلك الابتسامة متعلقة بشفتيه وعينيه ثم ما لبث أن عاد وجعل يترقب المتفقد وهو يقلب صفحات الدفتر باهتمام بالغ.

وثقل الصمت فقال له سي المختار وهو يريـــد أن يســـتدرجه إلى الكلام:

- الدروس على أحسن ما يرام يا سي عبد الجبار.

فأجابه بدون أن ينظر إليه:

- صحيح.

- نعم ولا يوجد تأخير في برامج السنة.

فأجابه وهو يتابع تصفح الدفتر بتمعن:

- طيب، جميل

- وهذه السنة مباركة، لا توجد خلالها غيابـــات ولا أمـــراض في الجبل، والصحة طيبة والهواء نقي والحمد لله.

فأجابه وهو مازال يقلب الدفتر وينظر في صفحاته صفحة صفحة.

- طيب، طيب.

وتابع سي المختار قائلا:

- سأقدم خمسة تلاميذ لمناظرة الدخول إلى السنة الأولى، وســـوف ينجحون كلهم بحول الله وقدرته.

فقال له المتفقد مفكرا وقد وصل إلى آخر الصفحات المكتوبة في الدفتر:

– إن شاء الله.

وقال سي المختار في نفسه مبتسما: «تتأهب الآن للوثوب يا كركر، تريد مخاتلتي.. ثم مفاجأتي، آن الأوان، أعرفك جيدا، أعرف كل الأفكار التي تجول في رأسك، وكيف تجول ومتى تبرز..»

ابتسم سي عبد الجبار القسنطيني في داخله وتحفز فعلا للوثوب قائلا في نفسه منهمكا: «أجبت عن الأسئلة كلها، عن الأسئلة التي سألتك عنها وعن الأسئلة التي لم أسألك عنها، وحدثتني عن الأمراض والصحة والأوبئة وعن الطقس الجميل والهواء النقي في الجبل، والآن فبماذا ستجيب يا «دعبوكة» والتفت إلى المعلم ونظر إليه سائلا بصوته الجهم».

– يا سي المختار أتعرف الساعة الآن؟

فأجابه بصوته النحيف بدون اكتراث، بسهولة وراحة بال وهدوء تام: – هيه نعم، نعم، الآن عندي يا سيدي، الآن عندي، ورفع يده اليسرى ونظر إلى ساعته، الآن عندي الثامنة وسبع دقائق.

وعد الأخرس والعلاقات المتوترة

محمد الهادي بن صالح

تعودنا أن نراه – نحن الصغار– معلما من معالم القرية الثابتة. مثل ذلك الكدس من الغبار أو تلك السنديانة الشامخة الدائحة النائحة مع صفير النسمات العابرة بين أغصانها، يوم ألاحظته واقفا هزني العجب لأني لم أكن أتصور أن أصادفه واقفا،

فقد تعودنا أن نراه تمثالا نصفيا لرجل عريض الصدر والمنكبين، في وجهه الجد والصرامة والقسوة، ونظرات عكرة في عينين غائبتين، تحت جبين مجعد، تحت رأس مفرطح كبير غليظ العنق والرقبة، كان يجلس ساكنا كأنه الجماد، كأنه صائد سمك وحذوه حفنة من الحصي، يرمي الواحدة في بقعة محددة بدقة غريبة إذ لا تزال الحصاة إلا في ذلك المكان الذي أراده لها فتولد دائرة صغيرة، تدرج الدائرة الصغيرة نحو الاتساع تكبر الدائرة وتتضح أكثر على سطح ماء البحيرة، تملأ الدائرة مساحة ما على سطح ماء البحيرة. تتسع الدائرة كثيرا، ربما نطت وسطها سمكة، وربما انقض طائر على حشرة تبرز فيها أو سمكة، وربما أرست أو أقلعت بعوضة، تتكامل الدائرة، ويكون الرجل قد رمى بحصاة جديدة فتولد دائرة جديدة. تكبر الدائرة القديمة، ويكون حجمها قد فقد توازنه

المرضي.. تكون الدائرة الصغيرة قد ملأت ذاك الفراغ الـذي تركتـه الدائرة القديمة على تلك المبسوطة على ماء البحيرة، تكبر الدائرة وتنمو مع نمو الزمن، تفقد الدائرة القديمة معناها على الماء، يكون الهـرم قـد مسها، تتهالك الدائرة القديمة من أطرافها بينما تتكامل الدائرة الجديدة، تتكاثر الدوائر بتكاثر الحصى. تتسع الدوائر الكـبيرة... يلاحظهـا في صمت، تجحظ عيناه تارة وتغور أخرى. تتجدد الدوائر ما دام الحصى في يديه ومادامت يده تدفعها بدقة إلى ذلك المكان الذي أرده لها ومـا دام المركز أو المراكز تدفعها، لن تتهالك الدوائر إلا من أطرافها. ولما تعـدم الرؤية وتستحيل يقوم واقفا- وقل من رآه واقفا- ينفض أثوابه من غبار اليوم، يلم حصاة بعناية كمن يلم أدوات عمله، ثم يكر عائدا إلى حيـث يختفي طول الليل ليعود إلى ذلك المكان مع الأطيار ويجلس في نفس البقعة ويصنع دوائر تتجدد برمي الحصي وتتهالك مع مرور الزمن.

واختفى الأخرس فجأة من حياة القرية. تفطن لاختفائه أول عـابر على ضفة البحيرة.. استبد الهلع بسكان القرية، لقد فقدت أحد معالمهـا الأثرية فانعقدت الندوات والجلسات والاجتماعات الطارئـة والعاديـة والمفتوحة والمغلقة والعلنية والسرية، وكانت النتائج أن قررنا البحث عنه ففي القرية، لا أحد يذكر متى رأى الأخرس أخر مرة، لذلك لم يتحـدد وقت اختفائه، في القرية لا أحد يذكر زمن قدومه، الجميع يذكرون أنـه غريب قدم من بعيد في يوم ما، وقد يكون نزل بذاك المكان النائي علـى ضفة البحيرة واستقر به، حدثني رجل قد يكون صادقا أن ذلـك اليـوم كان يوم صيف شديد الحرارة فطلب الاستحمام في البحيرة الراكدة فرآه

عاريا، كل ما أمكننا جنيه من القرية من معلومات تمس السيرة الذاتية لذلك الأخرس، ولما لم نتوصل إلى معلومات مقنعة خرجنا إلى القرى الأخرى علنا نرضي فضولنا، ولما يئسنا التجأنا إلى المدن الكبيرة، وفي شوارعها الكبيرة كان التيه، كان علينا أن نسترزق، تاجر كل منا بما لديه من بضاعة، نشاء ورجالا، حتى كان ذلك اليوم الذي اعترضنا فيه رجل له معرفة بالأخرس، لما سألناه أجابنا سريعا:

«أتعنون ذلك الرجل المفرطح الرأس المستدير الوجه الذي يمتد فيه شارب غزير الشعر الأسود، ذلك الذي وعد قبل أن يخرس بأن يحدثنا عن المدينة الفاضلة، وعن واحات النخيل الوارقة الظل في أيام الهجيرة، وعن واحات البرتقال الزكية الروائح، وعن أشجار اللوز المزهرة، وعن غابة الزيتون الحديثة، وعن الاصطبلات المرصوصة بالبقر الحلوب والعجول المسمنة، وعن البيوت السعيدة، وعن النساء الطاهرات، وعن الذرية الصالحة، وعن الحاكم العادل، وعن النبي الذي عاش فقيرا ومات فقيرا، وعن الأعام وقطعان الغنم، فقلنا له: هلا حدثتنا عن مدينة النحاس، وعن الواحات التي جفت ينابيعها، وعن البرتقال الذي نشم رائحته ولا نذوق طعمه، وعن عيدان اللوز والأراضي القاحلة، وعن بقرة الأيتام التي عقروها قهرا، وعن البيوت الحقيرة، وعن القصور الفخمة، وعن على بن السلطان وقد أطلق عليه الرصاص وهو يقامر، وعن ابن الوزير الضال، وعن الأموال المهربة، وعن المومسات تكتسح الشوارع، وعن العبد يركع لسيده ومولاه، وعن المعز العجاف.. أشاح عنا بوجهه فتصور البعض أن في ذلك تحديا.. وتصور البعض الآخر أنه

يحاول إثارتنا، لذلك تبعناه حتى نعرف حقيقة إشارته، التفت إلينا ثانية وقال قوله الندم.. كان في قوله تحد، ولذلك وجب قطع لسانه، ذاك اللسان الطويل الذي قال عنه بعضهم: إنه صالح- بعد قطعه طبعا- لكي يكون شريطا لنشر الثياب المغسولة. اختلف معهم الآخرون ورأوا أ الأصلح لو استعمل حبلا لجرار بئر عتيقة صالحة للري، عارضهم آخرون وأكدوا أ الأصلح لو استعمل شريطا للأنباء، المهم أن الجميع قد اتفقوا على صلوحية هذا اللسان.. وإن اختلفوا في كيفية استعماله حتى بعد بتره، حتى بعد أن قال قولة الندم.

نعم لقد نظر إليهم بهدوء، نظر إلى تلك الأشياء بهدوئه المعهود فيه وقال بهدوء قوله واحدة، كلمة واحدة، ثم اعتراه الصمت وهو يرى الحمار قادما نحوهم، وقف الحمار قرب الشجرة، نظر الحمار إلى الشجرة. شجرة عاقر، تحك وتلمظ. كان يتبعه كلب. بل كانت تتبعه كلاب تنتظر موته العاجل، وقف شارف الأحمرة فجأة. غرس منخرية في الأرض. استطال عنقه. نظر أحد الكلاب إلى فخذيه الهزيلتين. اقتلع الحمار منخرية من الأرض ورفع رأسه إلى أعلى.. استوى رأسه مع عنقه. كشف عن أسنانه البيضاء. نظر أحد الكلاب إلى عنقه. العنق هزيل أيضا، اطلق الحمار صوته بنهيق حاد. فزعت الكلاب، تأخر الحمار قليلا تقهقرت الكلاب. تقدم الحمار قليلا. تسمرت الكلاب بلا حركة، نظرت الكلاب إلى بطنه الكبير فحج الحمار ساقيه الخلفيتين. رفع ذيله. نظرت إليه الكلاب في مسكنه وفزع وعدم ارتياح، أخرج الحمار من جوفه رجيعا، رفع أحد الكلاب رجله على جذع الشجرة ثم بال، تبعته

بقية الكلاب وبالت على جذع الشجرة. ذكرنا حينئذ حكاية القردة وبائع الطرابيش. وكان صامتا متحجرا يتابع الأحداث، اختلف الناس في صمته، حول صمته ذكر بعضهم أن لسانه قد قطع حقا، وبذلك فقد القدرة على الكلام الذي أنعم الله به على البشر دون سائر المخلوقات الأخرى، وزعم البعض الآخر أن مسا من الجنون قد أصابه وبذلك أنعدم صوته، والجنون في مثل هذه الحالات نعمة، وأكد البعض الآخر أن العقل سليم. ولكن الرجل قد بلع لسانه، فكثيرا ما اعترته حالات غثيان، وما غثيانه إلا محاولات لاستخراج لسانه من جوفه. المهم أن النسيان لفه بعد ذلك فتكومت عليه الأغبرة ومسته الرطوبة فصدئت أجزاؤه واندثرت وتفككت قطعة ثم تساقطت وقد نخرها السوس. قال أحد المصلحين:

– حالة كل الأجهزة العاطلة.

قال بحسرة:

– لقد وعد أن يحدثنا ولم يتعود أن يخلف وعده، تراه ينطق يوما؟

– ربما لو عاد وصادفناه يوما.

لم نعد إلى القرية. وقد ألفنا حياة المدينة وبلغ إلى علمنا أن الطيور الجوارح تهالكت على رأس السنديانة على غير عادتها. حدث لم تألفه القرية، تجمع الناس تحتها، نظر أهل القرية إلى فوق. تحجرت نظراتهم رعبا وهلعا.[1]

[1] – من مجموعة «وعد الأخرس والعلاقات المتوترة».

فوانيس المدينة

عبد القادر بن الحاج نصر

ارتدت معطفا جلديا أسود، وحذاء أسود، وجوارب سوداء، ووضعت حول رقبتها شالا أبيض، وفتحت مطريتها، ثم غادرت شقتها في الطابق الأول.. وقفت على الرصيف تتحسس بنظرها الأسفلت المبلل وقطرات المطر تتزل بهدوء من الغيوم، ومن أوراق الأشجار، ومن المزاريب.. استأنفت السير ببسط،

مرت أمام دكان «فلة».. نظرت إلى الستائر تحجب مقاعد الحلاقة عن أعين الفضوليين.. تصورت أن «سلطانة» تمارس مهنتها كالعادة، وكالعادة تحدث آخر زبونة لها عن أقصر السبل للحصول على الثروة، وعن البضائع المستوردة، وعن السفر مجانا إلى إحدي الجزر الجميلة، وسلطانة من أشهر الحلاقات، تصيب بعض حريفاتها بالغثيان، وتسيل لعاب أخريات، وسلطانة تفعل كل شيء لتحتضن في دكانها وفي مترلها صفوة النساء.

توقفت قليلا أمام الدكان. همت بالدخول.. ترددت اتجهت نحو مغازة اللباس الجاهز.. مررت يدها على جبينها تمسح قطرات المطر التي

تجمعت، وتسللت هنا وهناك حتى سقطت على الحاجب وتسللت إلى حافة العين. لاحظت بعض الوحل يغطي أماكن في الحذاء.. ابتسمت ساخرة.. وراء واجهة المغازة بعض الأضواء تشتعل وتنطفئ في تواتر منظم.. تذكرت مقهي «آلصبر» استدارت في مكانها. كان الوقت عصرا والعصر عندها هو الوقت المفضل لتناول الشاي، والشاي عندها لا ينتظر، عصير من النعناع، خليط من الماء والسكر، رشفة بعد أخرى تستجمع الذكريات، تستحضر الصور العالقة بالمكان.

الشاي لا تتناوله في المقهى إلا معه.

كانت وهي تضع قدميها بتؤدة على الأسفلت تشعر بحركة الماء ينضغط ويضرب في كل الاتجاهات. فتات من الماء وفتات من الوحل، وفتات من الحزن، وأشياء أخرى تعتمل في الصدر، وهي تقاوم رغبة الوقوف، ورغبة الذهاب إلى موعد الشاي، ورغبة العودة إلى الشقة. هناك أيام في مفترق العمر لا لون لها ولا طعم.. القرار يأخذ خلالها أشكالا متعددة في اليوم الواحد، ويسكن كل شيء، إلا نبضات القلب وحدها تظل تغدو وتروح، وتحب وتكره، تتنزو وتفارق، تعد ولا تعد إلى درجة الانهيار وفقدان الصواب.

عندما تظهر الشمس للحظات من بين أكداس الغيوم البيضاء تشغل نفسها بمراقبة ظلها يسبقا، يلاحقها، يسير إلى جنبها، ثم يبهت، ثم يختفي، وتلوح الشجرة المورقة القائمة في مدخل المقهى.. تتقدم على مهل.

تركز نظرها على أماكن معينة.. تلاحظ من خلال بلور الواجهة أن المقاعد لم تتغير، وأن بعض الذين تعرفهم من بعيد قد يتخذون مجالسهم أمام قهوة سوداء أو كأس شاي بالنعناع أو شراب بارد، حين وجدت نفسها داخل المقهى، اتجهت نحو الزاوية التي تعودت أن تجلس فيها معه. لا أحد يشغل هذا المكان، لكأن الزاوية في انتظارها. نزعت معطفها، ووضعت حقيبتها على ظهر المقعد المقابل وجلست، تساءلت أين هو.. لماذا لم يأت حتى الآن.. هل اتخذ قرارات أخرى، ومتى كان يتخذ قرارات؟ كانت تود أن تعرف الكثير عنه، لكنه كان منغلقا إلى درجة الغموض. لم يتحدث عن الحب. ولا عن الزواج، ولا عن المستقبل، إنه يأتي يجلس بعض الوقت، وينصرف، وهي تأتي لأنها تدرك أنه آت.. ولأن أوقات اللقاء نظمت بينهما بدافع غريزي، دون أن يحدد موعدا.

وضع النادل كأس الشاي أمامها، تصاعدت رائحة النعناع فشعرت ببعض الدفء وبعض الاطمئنان، لكن منظر المقعد الفارغ، والإحساس بأن شيئا قد حدث، وأنه قد يكون استهدف إلى أمر لا تعلمه، أو آوى لبيت امرأة، ظل يزعجها. أحيانا تفكر فيه حتى الكره، وأحيانا تجتهد في انتظار كلمة منه توضح معالم الطريق، ولكنه يظل متمسكا بالصمت حتى الثورة. كان في نظرها أضعف من أن يقول كلمة حب واحدة، وكات لا تدري أصغير هو عن العشق أم كبير عنه، وكانت تريد ألا يكون ككل الآخرين.

ترتشف الشاي رشفات صغيرة متباعدة وهي تتابع من خلال البلور حركة المارة على ناصية الطريق.

ترتشف الشاي رشفات صغيرة، اشتعلت فوانيس المدينة وأصبح للأشجار والسيارات وواجهات الغازات أشكال مميزة تجمع بين الضوء والظلام، نهضت.. ارتدت معطفها، وضعت حقيبتها على كتفها، غادرت المكان بهدوء.. اجتازت الباب الرئيسي، فتحت مطريتها، خطت بعض الخطوات، رأته قادما على بعد بحث الخطى، اقترب منها.. كان وجهه مبللا بماء المطر والعرق. التقت نظراتهما، توقفت عن المسير، نظرت في عينيه تبحث عن سبب تأخره.. كانت ثائرة في هدوء، لم تتوجه إليه بكلمة.. واصلت السير بنفس الخطوات الهادئة المتربصة مستمعة إلى واقع قطرات المطر على المظلة.[1]

[1] – من مجموعته القصصية «عجائب الزمن».

حافلة الليل الممطر

محمد الحبيب السالمي

بدأت تشعر بالطمأنينة عندما رأيت الأضواء وظهرت لك المحطة من بين البناءات المهترئة التي تمتد حيثما نظرت في أطراف المدينة النائمة.. كانت الشوارع والأزقة خالية إلا من بعض عمال البلدية المنتشرين كالأشباح على الرصيف يجمعون الأوساخ في سرعة، خوفا من أن يفاجئهم المطر القادم.. وبعض المتسكعين في ظلمة الليل.

دبت فيك حركة هائلة أحسست أثناءها بحرارة ونشاط بعد أن تجمدت مفاصلك وأنهكك الخور والإعياء اللذان أصاباك من فرط السير.. كان الظلا شديدا وكنت تكره أن تسير في ظلام... كان كل شيء حولك ينبئ بقدوم مطر غزير.

كنت تتبين الطريق في جهد على ضوء فوانيس كهربائية قليلة تفصل بينها مساحات كبيرة.. كنت ترفع رجليك الثقيلتين من الأرض الموحلة وتضعها في حذر، خوفا من أن تقعا في بركة ماء فتتسخ أدباشك.. كانت الريح قد هدأت وسكنت أشجار الشارع وبدا ضباب يلف المدنية.. نظرت إلى ساعتك في حركة عصبية ثم أعدت يدك في تعثر

إلى جيبك، وأخذت تتسلى بترديد لحن أغنية فرنسية دون وعي وفجـأة انتشرت أنوار قوية في المدينة واختفت في لحظة ثم همي المطر.. أسـرعت نحو جدار لتحتمي، ولما اشتد هرولت ووقفت تحت شـجرة ثم مضـيت تحدق في خيوط المطر وهي تتكسر فيعنف على الأرصـفة وتتحـول إلى سواق صغيرة تتدافع في سرعة نحو منحدر من الأرض على يمين الشارع. أحسست بانقباض.. تمنيت لو لم تغادر مكانك في تلك الساعة المتـأخرة من الليل.. حتى الحافلة لم تأت.. وتملكتك هواجس شتى وتجمعت صـور مخيفة في رأسك كنبضة عنيفة ربما لا تأتي.. ولماذا ستأتي؟ المدينة خاليـة.. كل الناس يغطون في النوم وتذكرت ليلى وتخيلتها وهي نائمة وشـخيرها يتعالى في الغرفة فتحركت شفتاك المطبقتان عن شبه ابتسامة ثم انـدفعت يدك إلى جبينك تبحث عن علبة السجائر، ولما عثرت عليهـا أخـذت واحدة منها ثم أشعلتها وشرعت تدخن.. شعرت بشيء مـن الحـرارة والدفء يسري بين أصابعك.. خطوات بعض خطوات تحت الشـجرة.. نظرت إلى سروالك في إمعان.. تذكرت ليلى مرة أخرى.. مرت بخاطرك أفكار سخيفة.. تبولت.. عدت إلى لحن الأغنية الفرنسية تردده بصـوت مرتفع هذه المرة لكنك مازلت تحس بكآبة وقلق.. حركـت رأسـك.. انفعلت ثم أرسلت نظرك في المدينة.

كان يشق خيوط المطر في جرأة.. ظهر لك في بادئ الأمر أنه يبتعد عنك ولكنك سرعان ما تبينته على ضوء الشارع عندما اخترق الظلمـة إنه رجل فاجأة المطر بلا شك فأتى هو أيضا إلى هذا المكـان ليحتمـي.. وقف إلى جانبك وهو يلهث.. أزل عن رأسه قبعة مبللة.. أمر يده اليمنى

في قوة على وجهه ثم حياك بصوت مرتفع كأنه يخشى ألا تسمعه وبعدما رددت مضى يتكلم وهو يتحسس صفحة وجهه..

– المطر غزير.. ألا ترى ذلك؟

– بلى

– أتنتظر الحافلة أنت؟

– نعم.. وأنت؟

– أنا أيضا أترقبها..

وفرق بينكما صمت طويل قاطعه قائلا:

– كم الساعة الآن؟

– العاشرة ليلا.

– آه لقد قرب منتصف الليل.

وعاد الصمت ففرق بينكما.. كان ينظر كثيرا إلى المدينة وكان لا يستقر له نظر.. كان يبتسم من حين لآخر.. وكنت أنت تتابع حركاته في صمت.. ولما طال صمتكما نظرت إليه ونظر هو إليك.. كان يلبس بذلة عمالية زرقاء.. وكان شعره منفوشا وكان وجهه صامتا قال وقد بـــدت لك عيناه حمراوين جاحظتين على بصيص من نور الشارع:

– ما أغزر هذا المطر!

ابتسمت وبقيت تنظر إليه وسكت هو كأنما يبحث عن أشياء أفلتت منه ثم عاد يتكلم بلهجة استعطافية:

– هل لديك سجائر؟ أحس أني تعب مكدود.. نسيت أن أشتري ما يلزمني.. تعثرت يدك وأنت تبحث له عن سيجارة وبعدما سلمته إياها أشعلها ثم راح يدخن..

– غريبة هذه المدينة، أنظر.. على أي شكل ترى هي؟

وبقيت يده معلقة لحظة طويلة وعيناه مشدودتين إليك ولما رآك صامتا أردف:

– ما أجمل هذا الصمت.. ما أجمل هذا السكون.. إني أحس براحة كبيرة.. راحة لم أعهدها من قبل.. ما أجمل أن تقفر المدينة ويأتي الليل وتخلو هذه الأزقة.. أحسن أن المدينة طاهرة نقية كالهواء وأني أحتضنها دون أن تمانع وصوب نظره نحوك فشعرت أن عينيه الجاحظتين تلتهمانك من فرط الحدة.

– ألا تحس أنت بغربة وسط هذه البناءات وهذه المنازل، وهذه السطوح وهذه الوجوه الحمراء وهذه الأنوار وهذه السيارات؟

كان وجهه العريض يعكس حزنا كبيرا.. وكان صامتا.. سكت ثم نظر إلى المدينة من جديد وعاد إلى حديثه.

– هل تسكن هنا؟

– أسكن قرية في جنوب القيروان

– آه.. القيروان.. إنها مدينة جميلة.. خصوصا في الأعياد النـــاس يأتونها من كل الأنحاء..

أريد أن أستوضحك في أمر.. لقد قالوا إنه يوجد هناك عمـــودان من المرمر ولا يستطيع أيمر بينهما المرء إلا إذا كان قد فعل خيرا.. كـــم تمنيت أن أزورهما! أنا أعرف أني أدخل بينهما دون عناء وأمر كمـــا لـــو كنت أمشي بين غصنين طريين.. إني أصلي منذ أن كنت طفلا لم أشـــرب الخمر قط وأحب الفقراء.. وأتصدق أحيانا كثيرة وأنصت إلى ما يقولـــه الإمام في خطبته كل يوم جمعة.

كان يحرك يديه كثيرا ورأسه كثيرا .. وكانت عيناه تبرقان علـــى ضوء الفوانيس الكهربائية الشاحب.. اجتاحته نوبة من الســـعال فـــاحمر وجهه المخنط الطويل وبرزت عروق عنقه كأغصان شجرة وبعدما استراح قال وهو يلف ياقة معطفه حول عنقه:

– إنه مطر شديد.. انظر إلى المياه كيف تجمعت في الطريق.. إنـــه الطوفان إنه الطوفان.. خطا إلى الوراء والتصق بجذع الشجرة ثم ركـــز عينيه في المدينة كالخروف ومضيت أنت تجتر أوهاما ماضية لكنه أخرجك من عالمك.

– وماذا تفعل هنا؟

– أدرس.. ألا ترى محفظتي؟

آه.. لم أكن ذكيا.. صحيح.. صحيح.. إنها محفظة.. لي ابن يدرس مثلك.. عيناه سوداوان وهو قصير القامة.. عجبا.. إنه مثلك تماما وهو صامت دائما.. إني أحبه كثيرا .. ما أجمل الأبناء.. إنهم خير ما في الدنيا.. اسمه عمر وهو ذكي.. قال لي المعلم إنه سيكون رجلا عظيما ولم تدر كيف تكلمت:

- أبقاك الله له.

وابتسم هو:

- وفي أى مدرسة تدرس؟

- في الجامعة.. أتعرفها؟

- تلك البناية الضخمة.. أعرفها.. أعرفها جيدا.. إنها بجانب السجن؟

شعرت أن كلامه جميل.. أحببته في تلك اللحظة.

- إذن أنت طالب؟

- نعم

إنهم يتحدثون عنكم كثيرا في الإذاعة.

ابتسمت وتحسس هو وجهه.

– لقد تأخرت الحافلة.. لابد أنه طرأ عليها عطب في الطريق أو منعتها المياه من السير!! كل شيء حولي يؤكد لي ذلك.. خسارة.. ما أقسى أن ينتظر الإنسان شيئا ولا يظفر به!!

خطا إلى الوراء. سكت وقتا طويلا ثم قال وهو يدخل يديه في جيبيه:

– ألم تبتل ملابسك أنت؟.. ألم يلحقك الوحل؟.. أحس أني أموت بردا!!

– انتظر قليلا.. ستأتي الحافلة.. سنركبها.. سنريح أجسادنا على مقاعدها.. سنجد فيها أناسا آخرين انتظروا هم أيضا الحافلة وقتا طويلا.. سنتحدث.. سنضحك.. سنمرح.. سنشعر بالطمأنينة والدفء والفرح.

داهمكما خوف كبير عندما أرعدت السماء.. تسمر كل منكما في مكانه.. تبادلتما النظر في صمت.. أخذ المطر يكف عن النزول.. شعرتما بالدفء، لكنه سرعان ما اشتد وعادت الخيوط تتكسر في عنف على الرصيف.[1]

[1] – من مجموعة «مدن الرجل المهاجر».

خرافة النخلة العرجاء والشيخ الصدئ

رضوان الكوني

عظم الصمت، وانقطع التسبيح والتهليل، وخفتت الأصوات المرتفعة المتداخلة منذ حين وهي تتلو ما سطر على الألواح بحروف غليظة، وانفتحت العيون تنظر كلّها نفس الاتجاه، وتراقب الصبيين المخالفين.

تقدم الطفلان يرتجفان ويطلبان في عويل ونحيب العفو والصفح.

ألقي الأول على ظهره ورفعت رجلاه إلى الأعلى، وانهالت عصا الشيخ المؤدب عليه، والطفل يصرخ ويستغيث، والمؤدب يرغي ، والعصا الغليظة لا تتوقف عن النزول بعنف على رجلي الطفل الباكي العاوي.

ورأى الطفل الثاني مصيره وأيقن أنه لن يفلح في تهدئة المؤدب ولا في الحصول على عفوه، وأنه بعد لحظات فقط سيلقي به على الأرض وترفع رجلاه ويتلقي عنوة ما يتلقاه صاحبه آنذاك.

ليس أمامه إلا الهرب، وليست له وسيلة أخرى للإفلات من قبضة الشيخ إلا الفرار، فلم يتردد طرفة عين، وقفز عاليا متخطيا رقاب الصغار.. وتعاقبت خطواته سريعة حثيثة مثيرة خلفه غبارا يكبر ثم يكبر

ويتكثف حتى غاب الطفل وراءه وراح، حيث حملته عجاجته التي منعت المؤدب- وهو يلاحقه لاهثا من العثور عليه- فثار وحنق وازداد غيظا وأقسم ألا يهدأ حتى يكسب الطفل أو يؤتي به إليه وإلا، فإن له أمرا سيقضيه.

وانطلق الشيخ في طلب الطفل في كل مكان، وعاضده في ذلك كل الصبيان الذين تفرقوا وتوزعوا على الأماكن التي من المتحتمل أن يرتادها الطفل، والأماكن التي من الممكن أن يكون فيها الصبي بالقرية معروفة محصورة.

قصد المؤدب أبا الصبي الذي نفى أن يكون ابنه لديه، ثم راح في طلبه لدى عمته، فخاله، فما وجد له أثرا. ولم يكن بحث الصبية عن الطفل أكثر توفقا من بحث المؤدب عنه.

لقد غاب الطفل عن المكان، كأنه اندثر أو ابتلعته الأرض.

وثار المؤدب وهاج، واحمرت عيناه، وارتعشت شفتاه، ونز العرق من حاجبيه وجفنيه، وأخذ يضرب الأرض بعصاه، ويصرخ ويستصرخ، وينادي بأعلى صوته أهل القرية ويشهدهم بأن ما وقع بدر من الطفل لينذر بحدوث أمر جلل وخطب مهم وهول ملم، فكيف يعمد طفل إلى الفرار ويتعمد العصيان، كيف يهرب من مؤدبه وشيخه ومعلمه ومربيه ويضيع في التيه. وحذرهم من مغبة هذا الصنيع الشنيع الذي قد يلحق بالقرية وأهلها الكوارث والفواجع.

وبدأ النوح والعويل يصدر عن النساء النادبات خدودهن، الصائحات بأعلى أصواتهن الراميات حفنات التراب الأسود في الريح.

وأخذ الرجال يصعدون زفرات حرى أليمة، ويترلون دموعا امتلأت بها عيونهم على وجوههم.. وتحلقوا جميعا حول الشيخ يطلبونه النجدة والغفران وتلهج ألسنتهم بالذكر والدعاء والاستعطاف، ويعرضون على الشيخ كل ما بإمكانهم أن يقدموه، فليأمر وليأذن وليطلب إليهم ما يشاء.

والشيخ غاضب يصرخ ويهمهم ويتمتم كلاما لا يميزونه، وعيناه تحمران وتبرقان تحت حبات العرق العالقة بأهدابه.. ثم ضرب بعكازه الأرض وصاح:

– كفوا عن هذا، وامضوا إلى كنتم فيه، وأنا أكتفي فقط بطلب والد الطفل.

وتقدم والد الطفل صاغرا مرتعدا قائلا:

– أنا يا سيدي.. أنا– يا شيخي– والده، فأعرب عما تريد فإني فاعل وإني مفتدي ابني بما ترغب، وإني لك مطيع.

وضرب الشيخ عكازه في الرمل، وقال:

– علم ابنك الطاعة، علم ابنك الطاعة.. علمه الصبر، والصبر على المكاره.

قال والد الطفل: هو ذاك سيدي، هو ذاك.

قال الشيخ: علمه الصبر في الشدة والضيق.

قال والد الطفل: هو ذاك سيدي، هو ذاك.

قال الشيخ: إن فعلة ابنك اليوم سابقة تنذر بعواقب سيئة.

قال والد الطفل: أنا أدرأ عنك سوء العواقب، فسلني بما يمكن أن أقدم.

قال الشيخ: نخلة.

قال والد الطفل: نخلة؟! ماذا يا سيدي؟

قال الشيخ حانقا: تعطيني النخلة التي دأبت أن أدرس في ظلها الصبيان.

قال والد الطفل وقد تطلق: النخلة نخلتك يا سيدي، وأنت تدرس في ظلها منذ عهد ولم يخطر ببالي أن أنزعها منك، أو أبعدها عنك.. لو أردت غابة النخيل كلها لوجدت ذلك أمرا هينا.

قال الشيخ: كلا. أنا أريد فقط النخلة تلك، فقد تعودت على رملها وظلها الوارف.

قال والد الطفل: هي لك يا سيدي، وليعصمنا الله بهبتها لك من شر كريه.

قال الشيخ: اذهب عني الآن، فإني إلى نخلتي سائر، ولـــن يـــأتكم مكروه.

وعمت الفرحة القوم، وراحوا مستبشرين بزوال الشر. وقد هانت الفدية، بل لم تكن شيئا يحسب أو يعد، وهم الذين هيؤوا لإهدار أموالهم وأرزاقهم وأزهاق الأرواح احتسابا وقربانا.

وجاء الشيخ النخلة وطاف حولها مرارا، وتأمل جذعها وكرانيفها، وليفها المتماسك، وتفحص أصلها الثابت ورنا إلى جريدها المتفرع، صم احتضن جذعها وحاول تسلقها إلا أنه لم يستطع ذلـــك، وأخـــذ ينظـــر التمور المتأرجحة، فابتهج، وعاد ليجلس تحتها في ظلها الممتد، ثم توســـد أسفلها واسترخى هادئا مستريحا.

ومضى الشيخ في نفس مناهجه: يؤدب الصبيان، يعلمهم علمـــه، ويقرئهم دروسه ويجلدهم وينهاهم ويأمرهم وينهرهم، وهم طاعة وامتثال وصبر عظيم، حتى لم يعد للصبر لديهم معنى، فالواقع عليهم عادة لـــيس فيه ما يدفع على التذمر.

ورأى الشيخ يوما أن يدق بجذع النخلة مسمارا يعلق به عكازه أو جبته أو بعضا من حاجاته.. ولم يثر هذا المظهـــر ضـــحك الصـــبية ولا استهزاء الناس، فكل ما يصدر عن الشيخ خير، فهو من أهل البركـــات وأصحاب الكرامات.

وواظب الصبية على حلقات الشيخ حتى ابيضت لحيته وضعف بصره وطالت عصاه، ووهنت رجلاه فصار ميالا إلى القعود تحت النخلة يضرب بعصاه القريب والبعيد، وتلقف يداه التمر النازل عليه من عراجين نخلته نخلته، وهو يأكل البلح والبسر والرطب، أكل عراجين وعراجين وعراجين.

وجاء يوم، كان يخشى المؤدب أن يجيء، جاء هذا اليوم. باع والد الطفل غابته.. والنخلة جزء من الغابة.

واحتار المالك الجديد في أمر هذه النخلة، ثم أذعن مخافة شر يلحقه من الشيخ.

وبقي الشيخ مغروسا تحت النخلة كما اندق مسماره بها. واكتفى المالك ببقية الغابة.

ولكنها وضعية لم تبعث على الاطمئنان لدى الشيخ، ورغم أن المالك الجديد مقتنع بكون الشيخ والنخلة معلمين من معالم الغابة ليسا في حيازته، بل إنه يراهما مصدر البركة ومقدمة السعد، فإن الشيخ- ترسيخا له في ذلك المكان وتأكيدا لوجوده وتمييزا لنخلته عن بقية النخل- وضع بدل المسمار الأول مسمارا آخر غليظا من الحديد الصلب، ودقه بأحشاء النخلة حتى ثبت بأعماقها، ودقه أيضا حتى خرق جذعها وأطل من الجانب الآخر، وأبقاه مركوزا على تلك الهيئة كالوتد.

ثم استرخى متكئا على نخلته مادا رجليه في ظلها، حالما. والأطفال كالعادة يتوافدون على الشيخ يحضرون حلقاته في أوقاتها المعلومة، وهو يعلمهم ويلقنهم، وهم يحفظون ويطيعون، والحلقة تكبر كل يوم، وعدد الأطفال في تزايد، والعصا تزداد طولا حتى كبرت عليها الحلقة وابتعدت عنها الرقاب، والشيخ لم يعد باستطاعته القيام لملاحقة البعيدين عنه، عندها فكر فكرة.

قسم الحلقة على نصفين، نصف يبقى معه، ونصف آخر يستقر في ظل النخلقة المجاورة، وجعل أحد الأطفال نائبا عنه في ذلك النصف.

ولربط الاتصال أمر نائبه بدق مسمار بالنخلة المجاورة وشدّه بسلك يصل النخلتين، أحد أطرافه ينسدل مع جذع النخلة الأولى ويجلس عليه الشيخ، والطرف الثاني يمسكه الطفل بيده.. وعند الحاجة، أو حدوث فوضى، يجذب النائب الخيط فيتحرك الشيخ فوق هزات السلك الذي يجلس عليه ويصرخ ناهرا من مكانه ذاك فيهابه الأطفال لسماع صوته – خشية سوطه – ويعود الهدوء في الحين.

وعندما اعترض صاحب الغابة على الشيخ في لطف كبير واستوضحه عن انتشار الأطفال تحت النخلة المجاورة، أكد له الشيخ أن ذلك لا ينتج عنه إلا الخير.

والأطفال يتكاثرون والشيخ يقسمهم على حلقات، تحت كل نخلة حلقة يجعل فيها أحد الأطفال القدامى نائبا عنه، ويوصيه بدق مسمار

وشده إلى النخلة الأم بسلك حديدي، حتى لم يبق بالغابة ظل لم يستغل، والأسلاك كلها ترجع إلى الشيخ، وهو يقعد عليها.

والأطفال كالعادة يقبلون على الحلقات موزعين على النخلات المشدودة كلها إلى ذلك الوتد الغليظ.. وأهل القرية يعملون ويكدحون، والشيخ يبسط كفيه والعراجين تنزل عليه الرطب، ونوابه من الأطفال يجمعون التمور النازلة عليهم ويحملونها إلى الشيخ، وهو يأكل ويأكل، ونوابه كذلك من الأطفال يأكلون خلف ظهره، وصاحب الغابة وأهله يعرقون ويتعبون وينتظرون محاصيلهم من الغابة، وقد كان تمرهم في الموسم الماضي قليلا. وفي هذه السنة شيصا، والشيخ يعدهم بمجيء الخير وقرب قدومه، وهم يصبرون ويعيشون على الأمل، على الحلم، على الوعد.. ولم يمض زمن طويل حتى انحنت نخلة الشيخ، وقيل: إنها من علامات الساعة، وقيل: إنها تركع وقيل وقيل: إنها ستسجد، وقيل: إنها ستنتصب من جديد ويستقيم عودها كما كانت، ولكنها انحنت ولم ترفع رأسا، والناس ينتظرون شيئا آخر بعد ذلك الانحناء، الخير الذي يعم القرية.. وبعد مدة انحنت النخلة الثانية، وبعدها النخلة الثالثة، فالرابعة، والخامسة، فكل نخيل الغابة.

والشيخ باق، مستميت، يقنع الناس بالرفاه المنتظر، وهو يعيد تشكيل حلقته حسب الظل المنحني الذي تكونه النخلة العرجاء، ونوابه في النخلات المجاورة يعيدون شكل الحلقات حسب الظل المعوج.

والناس ينتظرون حدوث أمر يفرحون له بعد هذا الانحناء، فالغابة كانت واقفة ممتدة باسقة وأصبحت راكعة مائلة لا تثمر.

وطال الانتظار، حتى عاد ذلك الطفل الفار الهارب من عصا الشيخ، عاد رجلا كهلا ممتد العود قوي البناء.

وبسرعة فائقة نظر في الوجوه المطرقة، وسرح بصره في الغابة الراكعة، ثم تقدم إلى نخلة منها، وجسها ولمس المسمار المثبت بداخلها والسلك الذي يربطها بغيرها.

قال: ماذا تنتظرون؟

قالوا: الخير.

قال: أي خير؟!

قالوا: خير الغابة.

قال: جذوع النخل دب فيها الصديد ونخرها وعطل نموها ثمرها.

قالوا: كيف؟!.. أنت تهذي.

صرخ فيهم لاطما هذا وذاك واتجه حثيثا حيث يقعد الشيخ، وأزاحه بعنف عن مكانه وصاح:

- انظروا، انظروا الصديد يقطر منه.

وقام الشيخ وقد ظهرت بقعة كبيرة على مؤخرة جبتـــه ابتلـــت صديدا أحمر وقد علق بها الرمل.

ولم يستطع الشيخ فعل أي شيء، فبقي واقفا يتمايل يبحث عـــن عصاه ليستند إليها. ثم جذب الرجـــل العائـــد الســـلك وأزال الوتـــد والمسامير، ونصح القوم بعلاج النخل بسرعة وتنظيفه والعمل على إنقاذه قبل سقوطه وقبل أن تسقط أعجازه فيخور.

فأقبلوا يعملون على إزالة الصديد وعلاج النخل وجذوعه، يرشون مواطن العفن بأمصال مضادة للصديد وسوائل أخرى مبيـــدة للجـــراثيم والحشرات وكل الأدواء.

ثلاث قصص

حسن نصر

1ـ الصورة

عندنا في بيتنا صورة معلقة في غرفة الجلوس علـــى صـــدر الحائط لا يعلم أحد أول من علقها. وبيتنا كبير، ورثـــه أبي عن أجداده، والصورة عتيقة، وبيتنا به كثير مـــن الأثـــاث العتيق.. كراس عالية الظهر مزخرفة،

صندوق أخضر كبير مطعم بالأصداف البيضاء والحمراء تحتفظ به جدتي وتضع به دشباشها وخزانة نخرها السوس وتحطمت بعض ألواحها ولم يعد أحد من أفراد الأسرة يلتف إليها ولا إلى تلك الكراسي المسوسة، إلا أن الصورة بقيت دائما محتفظة بجدها تطل علينا من أعلى الحائط تســـترعي انتباهنا، وتقوى فينا المحبة لهذا البيت والتعلق به، وبحكم وجودها في غرفة الجلوس، فإن الأنظار كانت دائما تتطلع إليها، وزاد من أهميتها أنها كانت تتربع وحدها على عرش الحائط، وقد ظل إطارها العريض المذهب محتفظا ببريقه وصلابته دون أن يتسرب إليه الوس مثلما تسرب إلى قطع الأثاث الأخرى.

كان حائط الغرفة كبيرا فارغا، وكانت الصورة تملأ ذلك الفراغ، لا بكبرها ولكن بوجودها.. إن وجودها وحده يكفي لأن يملأ كل الدنيا.

لم تكن الصور ة تمثل شيئا، ولكنها تمثل كل شيء.. إنها تمثل وجه البحر، ولا شيء غير البحر.. يمتد كالحرية عريضا أزرق صافيا.. تطمئن لرؤيته نفسك وبداخلك الهدوء وتستريح أعصابك.

ولكل من أفراد الأسرة غرفته الخاصة به وبعياله.. لكننا نشترك جميعا- أخوه وأبناء عم- في غرفة الجلوس.. إنها الغرفة الوحيدة التي تجمع شملنا، نقبل عليها كلنا.. نتعلق بها وبالأثاث الذي تحتوي عليه. وأكثر من ذلك.. الصورة التي تملأ كل الدنيا في أعيننا.

في هذا المساء كنت وحدي في غرفة الجلوس أقطعها جيئة وذهابا وأصغي إلى صيحات زوجتي تأتيني من الغرفة الأخرى، وهي تعاني آلام الوضع، وأترقب على الجمر أول من سيأتيني بالخير.. طال بي الانتظار، وأنا لا أكاد استقر في مكان.. وانقضت لحظات لم أعد أسمع فيها الأنين.. لقد سكن الألم، وخيل إلي أني أسمع صرخة الطفل الجديد.. فتنفست ملء صدري، وتهالكت على أقرب كرسي لأستريح، وما كدت أسترد أنفاسي حتى سمعت شيئا كبيرا يسقط على الأرض، فانتفضت واقفا وقد راعني أن أرى الصورة القديمة تسقط على الأرض وتكسر كأس الماء أثناء قيامي، فأريق على أرض الغرفة واختلطت قطع البلور وزجاج الكأس، تناثرت في كل مكان.. وسال الماء على الألوان فكأنه البحر فاض من داخل الصورة.

نظرت إلى الحائط فبدا لي كالرأس الأصلع بلا جمال.. وأقبل أخي في هذه اللحظة ومن ورائه عمتي وابنة أختي، يحملون إلى الخبر.. زوجتي ولدت طفلا جميلا.. كانوا ينظرون إلى أما أنا فقد أشرت إلى الصورة، وأنا أقول: «هل سمعتم السقطة، انظروا لقد تحطمت الصورة» وإذا أخي يجذبني من يدي وهو يقول: «لا تتحسر عليها وهيا بنا سنعوضها بصورة الطفل الجديد».. ولما سمعت بكاء الطفل نسيت كل شيء.. لم أعد أذكر إذا كان ثمة صورة تحطمت بالفعل.

2ـ والعصر والنشر

تلقفته عيون – الطياب – وهو يدلف إلى الحمام، ذلك الصباح، فلم يكترث به، ومضى يخلع ثيابه ظل الطياب يلتهمه بنظراته التهاما، عيونه السوداء الكبيرة تجوس خلال جسمه، تتفحصه، تستقصي كل خافية، تطوف به كلسان عود الوقيد المشتعل.

واقترب منه يمد له يد المساعدة هرع إليه بالفوطة، ووضع القبقاب تحت قدميه، ثم أخذه من يده بكل تودد يقوده إلى داخل الحمام.

جاء به إلى حوض الماء الدافئ أغطسه في الحوض برفق، إلى أن اطمأن عليه، غاب عنه فترة من الوقت ثم عاد إليه، فأخرجه من الحوض بكل حرص.

أخذه إلى ركن من أركان الحمام، رفعه على الدكة، نشر تحته فوطة نظيفة، ومدده على قفاه.

ثم شرع في العمل:

بدأ يسرح له عظامه، يطوف بالمفاصل، مفاصل يديه ورجليه ويتزل مع عموده الفقري. ثم انحنى عليه يدلكه دلكا خفيفا، يمرر يديـــه علـــى كامل جسمه تمريرا محكما، فيسري الدبيب في جسم الرجل، من رأســـه حتى قدميه، فيتأوه في عذوبة.

استمر الطياب يعمل في جسم الرجل، يدلكه دلكا محكما وفي كل مرة يزيد في الضغط عليه.. بدأ الضغط خفيفا ثم تحول إلى ضغط خشن. كل ذلك والرجل مستسلم لا يسأل عن شيء ولا يعترض في أمر. وتحول الضغط إلى اعتصار حقيقي، ربما فقد الرجل معه كل قدرة على الكـــلام وعلى الحركة.

كان ذلك الركن من الحمام شديد الظلام، الحرارة مرتفعة والمـــاء يجري ساخنا في السواقي، استمر يعتصره وسائل لزج يخرج منه وجعـــل يطويه من وسطه ثم ينشره.. طواه على اثنين ثلاث ثم على أربع طيات إلى أن تحول الرجل بين يديه كمثل الورقة، أو كقطعة من العجين الطـــري، عند ذلك أخذه بكلتا يديه القويتين، واعتصره عصره نهائية محكمة، وألقاه على كتفه ثم صعد به فوق السطح فنشره في الريح ليجف، ورجـــع إلى مكان عمله، ينتظر زبونا آخر.

3ـ وطن العصافير

في حديقتنا شجرة خروب

شجرة الخروب يسكنها جمع من العصافير

العصافير تتخذ أعشاشها في الشجرة

لا أحد يعرف منذ متى سكنت العصافير الشجرة، فمنذ عرف الناس الشجرة عرفوا العصافير تسكنها يقولون: إن الشجرة نبتت والعصافير تسكنها ويقولون: إن العصافير سكنت من قبل أن تنبت الشجرة وربما نبتا معا في مكان واحد وفي زمن واحد: الشجرة والعصافير.

مهما كانت الآراء فالرأي السائد أن الشجرة هي العصافير والعصافير هي الشجرة.

عاشت العصافير على تلك الحال، وذات غروب قدم غراب أسود من الشمال جاء يدعي أن الشجرة ملك له.

ضحكت العصافير من قوله، لكن الغراب بعد حين جعل يهدد العصافير بتهديم أعشاشها إذا لم تترك له الشجرة.

كان خروج العصافير من الشجرة يعني موتها، فهي لا تعرف مكانا آخر غير الشجرة كما أن الشجرة لا تعرف أقواما سكنوها غير العصافير.

قالت العصافير للغراب.

– اطلب ما تشاء ودعنا نعيش في شجرتنا آمنين.

أجاب الغراب: يمكن أن أتخلى عنكم مقابل أن توفروا لي الطعـــام في كل يوم.

فرحت العصافير بدا لها أنه مطلب سهل، لكن ما إن بدأت تأتي له بالطعام حتى أصابها الذعر، واكتشفت أن الغراب لا يشبع مهما وفــرت له من الطعام دائما يطلب المزيد سخرت العصافير كل طاقاتهـــا لتـــوفير الطعام للغراب والغراب مع ذلك لا يشبع، أصابها التعب أصابها الجـــوع نفدت الحقول من القمح تعرت الأشجار من الثمار فرغت المطامير مـــن الحبوب واحتارت من أين تأتي له بالطعام وهو لا يشبع.

فكرت العصافير ورأت أنها في كل الأحوال ميتة، إذا استمرت في جلب الطعام للغراب فإنها ميتة، إذا خرجت من الشجرة فإنها ميتة فلماذا لا تقوم بهجوم على الغراب ما دامت في كل الأحوال ميتة؟!

قريتنا والزمن الذي يمضي

أحمد ممو

تتحدث عنه القرية عملاقا من خلال الحكايات التي تنسجها حوله. ولم نكن نحن الصغار قد رأيناه فعندما تمــر ســيارته هادرة من أمام الدكان الذي يجلس عنده الكبار، نكون نحن قد غصنا وراء أكوام الثياب وفي الأركان المظلمة، حيث لا يصلنا صوت محرك سيارته،

وحتى دجاجات القرية التي اعتادت أن تنبش الزبالة على جانب الطريق التي توصل مزرعته بالمدينة تفوق هاربة، لأنها أدركت أن ذلــك المحــرك الرعد الذي يثير عاصفة من الغبار لا يمكن أن يبالي بأي شيء في طريقه. أما الكبار فهم قد تعلموا الوقوف بمذلة أمام الدكان إلى أن تمر الســيارة مزمجرة ويبقون هناك مطأطئي الرؤوس معرضين هاماتهم لسحب الغبــار التي تثيرها العجلات إلى أن تترسب كلها عند منبت الشعر من رؤوسهم ويموت صوت المحرك في البعيد. عندها فقط يجرؤون علــى الحركــة. في القرية أضافت جداتنا إلى الحكايات التي ترعبنا حكاية الرجل الذي يكبر لذلك كنا نختبئ في الأركان عندما نسمع صوت محرك سيارته.

ذات يوم عندما كان الفضاء الذي يفصل القرية عن الشاطئ مجرد امتداد تسرح فيه عنيزات القرية القليلة، وكانت القرية تغفو في ظل نخيلاتها التي كانت تدافع عنها الرمال بمياه العين الوحيدة التي أصبحت لا تتجاوز المزارع الأولى.. جاء الرجل الشبر يحمل خريطته بعلاماتها الحمراء المتعددة لكي ينصب خيمته عند الهضبة التي أقام عليا المترل الكبير بعد ذلك. بقيت القرية تنظر إليه في كثير من الدهشة وهو يذرع الفضاء الممتد بين القرية والشاطئ بقامته القصيرة وخطواته الضيقة، واضعا العلامات الخشبية على طول المسار الذي يقطعه متوقفا من حين لآخر لكي يمسح العرق عن جبينه، كل القرية عند الدكانة التي تطل على السهل تحلق في الرجل الشبر وهو يواصل قياساته غير عابئ بحرارة القيلولة.. وامتدت العملية أياما وبقيت القرية تتململ أياما، وهي تكتشف أن الرجل الغريب قد بدأ يزيد على الشبر وكان في حياة القرية الكثير من الفراغ لكي تملأه بالحديث عن هذا النمو الغريب.. وعندما سئم الجميع الحديث عن ذلك كانت قامة الرجل الغريب قد وصلت شبرا ونصفا وهو مازال يذرع الفضاء الذي يفصل القرية عن الشاطئ ووراءه تتحرك الجرارات ويتردد صدى صوت محركات الحفارات.

عندما وقفت كل القرية تنظر بكثير من الدهشة إلى الماء المتدفق من البئر الأولى كان الرجل الشبر والنصف يقف إلى جانب حفارته يفرك يديه وعلى ملامحه ابتسامة الرضى، ولكن قامته كانت قد أصبحت في مستوى منتصف هيكل الحضارة.. وكان مدهشا أن ينمو الرجل بذلك الشكل الغريب، لذلك بقيت القرية فاغرة الأفواه تبحلق فيه وتبحث عن

تفسير للظاهرة ولم ينقذ القرية من دهشتها إلا صوت إحـــدى النســوة، وهي تؤكد أن مياه عين القرية قد غاضت.. شمرت السواعد وأحضـــرت المساحي ونزل فتيان القرية إلى حوض العين يجرفون منه الأتربـــة، لكـــن العين بقيت ساكنة ترفض مياهها أن تتدفق.

بعد أن حكت القرية رؤوسها طويلا ونبشت الأظافر الأتربة الـــتي ترسبت عند منابت الشعر، وتصاعدت زفرات الحيرة زمنا فتحت القرية أعينها على الفضاء الممتد حتى الشاطئ، كانت الحفارات قـــد تعـــددت وتداخلت أصوات محركاتها، وكانت الجرارات قد تركت وراءها صفوفا طويلة من أشجار الزيتون خضراء منتظمة كما لم تشهد عيون القرية ذلك من قبل. من بين كل تلك الصفوف الخضراء التي تمتد حتى نهاية الأفـــق كانت هامات الحفارات شامخة، ولكن ما كان يبدو أكثر شموخا هي هامة الرجل الغريب الذي كان ينظر حواليه في كثير من التعـــالي.. ولم تجـــد القرية الكثير من الوقت لكي تقف مندهشة مرة أخرى أمام نمو الرجـــل الشبر- الذي لم يعد مجال لتسميته كذلك لأن ذلك يبدو مجرد سخف، إذ إن مياه العين الراكدة أصبحت لا تكفي حتى المواشي.. عند الدكانة كان الجميع يتململون في أماكنهم فتزداد الحفر التي تحدثها أجسامهم عمقـــا واتساعا، ولكن ذلك لم يرجع للعين جريانها لذلك بقي الرجال تترســـب ذرات الغبار عند جذور هاماتهم وتتصاعد الزفرات من صدورهم ويسرح كل وراء أفكاره. وذات يوم حزمت القرية أدباشها وجمعـــت عنيزاتهـــا وخطت في اتجاه الطريق لكي تجد الرجل العملاق واقفا هناك بكثير مـــن الطيبة على ملامحه وبجانبه إحدى حفاراته تسد الطريق أمام الجميع. جـــر

الرجل العملاق الحفارة إلى موقع العين التي نضبت مياهها ووقفت القرية تنظر بأعينها التي كان يعشش فيها الذباب.. عندما انفجر الماء وعادت العين إلى جرياها تقدمت كل القرية للثم يد الرجل الطيب ثم حطت أدباشها، وأطلقت عنيزاها وأخرجت المساحي من جديد لكي ترمم القنوات وتسوق المياه إلى كل تلك المزارع البعيدة التي لا يذكر أحد متي شاهدت الماء آخر مرة.. منذ ذلك اليوم تعلمت القرية أن ترنو بكثير من العرفان إلى المترل الكبير إلى يعلو الهضبة، كما تعلمت الهامات أن تزداد انحناء عندما تمر السيارة هادرة أمام الدكانة.. وكان يمكن أن تبقى الأشياء طبيعية وأن يتوقف نمو الرجل العملاق عند هذا الحد لو لم تشرق الشمس ذات يوم وبقيت مشرقة بكثير من الحرارة في أشعتها وحتى عندما غابت بقيت أشعتها لاهبة في الفضاء لكي تشرق من جديد أكثر التهابا.. وأصبحت الشمس لا تشرق إلا لاهبة ولا تغيب إلا لاهبة وامتد ذلك زمنا. وكانت القرية قد اعتادت مواسم الشمس والرياح اللاهبة من قبل، ولكن هذا الموسم امتد إلى الحد الذي لم تذكر فيه القرية غيره.. وبدأت ذؤابات النخيل تجف قائمة على جذوعها، وبدأت صفوف الزيتون تفقد من خضرها، ولكن الشمس بدت كأنها لم تكن في يوم ما إلا لاهبة حتى بعد غروبها. وبقيت القرية تصعد زفراها وهي تراقب تلك الآبار الدافقة تنضب وعينها تتحول إلى بركة آسنة كما حدث ذات يوم في ذاكرها.

استيقظت القرية على صوت محرك أقوى من كل تلك المحركات التي عرفتها منذ عرفت الرجل الغريب وأقعت القرية أمام الدكانة تنظر

إلى الرجل العملاق وهو ينصب تلك الآلة ذات العجلة الكبيرة التي تصل مستوى صدره، وانهمك الرجل يمد القنوات بين المضخات التي ركزهـا قرب الشاطئ وآلته الضخمة غير مبال بكل العرق الذي تسـيله عـن جسده أشعة الشمس.. عندما دارت محركات المضخات، وبدأ الماء يتدفق في القنوات من البحر إلى الآلة ذات العجلة الضخمة بحثت القرية عـن ابتسامتها- تلك التي نسيت كيف ترسمها على ملامحها- لأن الرجل لابد أن يكون قد تعرض لأشعة الشمس طويلا لكي يضخ ماء البحر.. وطغى صوت الآلة الكبيرة على صوت المحركـات الأخـرى ودارت العجلـة الضخمة وبدأ البخار يتسرب من فوهتها.. كان الرجل العملاق يصـنع الضباب.. بحلقت القرية بكل عيونها لكي ترى الضباب ينتشر من فوهـة الآلة العملاقة لكي يلف الرجل العملاق وآلته.. وتململـت القريـة في مكانها وهي ترى الضباب يمتد في اتجاه السهل، حيث صفوف الزيتـون الكالحة وبقيت مشدوهة الأفواه مفتوحة الأعين تنظر إلى الضباب وهـو يتكثف فوق أشجار الزيتون رغم أشعة الشمس اللاهبة. ولم تغلق أفواهها المتعجبة إلا عندما أدركها الضباب وبدأ يلفها.. بقي صوت المحرك مجلجلا في الفضاء والضباب يتكاثف فوق صفوف الزيتون لكي يسيل قطـرات ندية مع الجذوع ويغيب في التربة الناشفة ولم يتوقف المحرك عن هديره إلا عندما شحبت أشعة الشمس ذات يوم وأطلت السـحب الأولى فـوق البحر.. لم تكن القرية قد تعلمت أن تضيف إلى مواسمها موسم الضـباب وبقي الزيتون يزهر في موعده فتمر الجرارات ترش عليه الغبار الأبيض ثم يزهر من جديد في موسمه.. وتمر سيارة الرجل العملاق الذي أصـبحت

قامته فارعة في السماء فتهرب الدجاجات ونختبئ نحن الأطفال ويقف الرجال عند الدكانة يطأطئون رؤوسهم إلى أن تترسب عليها طبقات الغبار التي تخلفها العجلات وراءها، وكان يمكن أن تتواصل الأشياء طبيعية كما كانت إلى هذا الحد لو لم يحدث أن جاء الجراد قريتنا والجراد الذي يؤكل.

عندما استيقظت القرية لم تشرق الشمس لأن السحابة كانت تحجب كل السماء وكانت السحابة تزداد كثافة واقترابا من القرية ولكنها لم تكن قادمة من البحر، لذلك لا يمكن أن تكون ضبابا، وأظلمت الدنيا قبل الغروب لأن السحابة كانت تزداد كثافة واقترابا من القرية. وعند الغروب حطت السحابة على القرية وعلى صفوف الزيتون وكانت جرادا. وطال الليل كانت السحابة تزداد كثافة وطوال الأيام الموالية كانت السحابة تجثم على القرية والقرية لا تتوصل إلى فتح أعينها، لأن السحابة كانت تتكثف وتحجب الشمس وغابت صفوف الزيتون وغاب المنزل الكبير ولم يبق يتحرك إلا الجراد، وسدت القرية كل المنافذ ولكن الجراد كان يفتح المنافذ في كل شيء.. وعندما تسللت أشعة الشمس إلى أعين القرية كانت السحابة تجثم على الأرض وتحرك على الأرض وتأكل من الأرض وتغطي الأرض.. فركت القرية أعينها مرات لكي تنظر إلى صفوف الزيتون، ولكنها لم تبصر إلا الفضاء الممتد حتى البحر تقوم فيه العيدان واقفة بيضاء في صفوف طويلة متناسقة كما كان الزيتون من قبل. وعندما فركت القرية أعينها مرات أخرى لكي تنظر إلى نخيلاتها أبصرت جذوعا رمادية، واقفة كما يقف الرجال عندما تمر السيارة من

أمام الدكانة، وعندما بحثت القرية بنظراها عن المترل الكبير رأته هنـــاك فوق الهضبة قائما كما اعتاد دائما بشرفاته العديدة ونوافـــذه المشـــرعة يغطي الجراد جدرانه وتتلاعب الريح بأبواب النوافذ أو ما تبقي منـــها، عندما بحثت القرية عن قامة الرجل العملاق لم تجدها، وكذلك الســـيارة الضخمة والجرارات التي كانت ترش الغبـــار الأبـــيض علـــى اشـــجار الزيتون.. وكانت الدهشة كبيرة ولكن الجوع كان أكبر ولم تجد القريـــة غير الجراد تواجه به جوعها.. وتعلمت القرية كيف تأكل الجراد وعندما امتلأت البطون بالجراد وتجشأ الجميع بدأ نسيج الأســـاطير.. وعـــادت الأجساد لكي تتململ عند تلك الحفر التي تزداد عمقا واتساعا تتجشـــأ رائحة الجراد وترنو إلى جدران المترل الكبير دون أن يتجرأ أحـــد علـــى إغلاق متارس النوافذ التي كانت تعبث بها الرياح.. وبـــدأت الأســـاطير تتحدث عن الجراد الذي أكل الجرارات والآلـــة العملاقـــة والســـيارة الضخمة وأكل الرجل العملاق أيضا.. وكانت تلك الأساطير تســـلمنا- نحن الصغار- للنوم مادام الرجل العملاق قد أكله الجراد وما دام الجراد يكثف الغازات في بطوننا.. وانطلقت العترات من جديد ترعى الأعـــواد المتخشبة القائمة في ذلك الفضاء الذي كان بحيرة زيتون وامتدت الأيدي تفتل الشباك من ليف النخيلات التي لم تخضر ذؤاباها بعد ذلـــك اليـــوم الذي مر فيه الجراد عليها.. وأضافت القرية إلى مواسمها موسم الجـــراد. وكانت تنتظره في كل سنة تتعهد مواطن بيضه بالرعاية، لكـــي تضـــمن قوت المواسم الأخرى، وأصبح موسم الجراد ثابتا في قريتنا ذتـــدب يـــه

صغاره عندما يزهر الزيتون في الأماكن الأخرى ويتكثف سحابة عنـــدما تهب الرياح اللاهبة وينتفخ في بطوننا بقية فصول السنة.

هكذا كانت أجسامنا نحن الشباب تحـــول الجـــراد إلى عضـــلات نتوهمها مفتولة عندما نلقي الشباك على أكتافنا ونقصد الشاطئ، حيـــث قواربنا تغطيها الطحالب وكنا قد كبرنا إلى الحد الذي نعرض فيه صدورنا للنسمات البحرية ونتجشأ الجراد كما يفعل الكبار. ويسعى كل منـــا إلى أن تكون ضربة مجدافه أقوى لكي يذهب أبعد.. وكما تعلمنا أن نرمـــي الشباك بعيدا أو أن نتجشأ بصوت مسموع، وأن ندعي أن شبح العملاق لا يسكن المنزل الكبير، لذلك نتراهن للمرور من هناك في الظلام تعلمنا أيضا أن نضيف إلى أساطيرنا حكاية الرجل الشبر وأسطورة الجراد الذي يأكل الحديد لكي يؤكل.

قريتنا والضباب الذي ينمو:

كما اعتادت القرية أن تفتح أعينها دهشة فتحتها هذه المرة لكـــي تبحلق في ذلك المنزل الكبير بشرفاته المتعددة وقد رصعتها إصص الأزهار المتعددة الألوان، أما نحن الشباب فقد حملنا شـــباكنا وســـرنا في ذلـــك المسلك المحاذي لمجرى الماء في طريقنا إلى الشاطئ، وكنا طوال الطريق التي تقودنا إلى قواربنا ننظر إلى تلك النوافذ الكبيرة وهي تتلقى الستائر، وكنا ونحن نركب قواربنا ننظر إلى جدران المنزل الكبير وهي تصـــبح بيضـــاء ناصعة، وكنا ونحن نجدف في تراخ، نتساءل عن أولئك الغربـــاء الـــذين جاؤوا لكي يطردوا شبح الرجل العملاق من المنزل الكبير ومن خيـــال

أهل القرية وكنا ونحن نتجشأ الجراد وماء العين الآســـن نتســـاءل مـــتى يتجشأ البحر لكي يجد الواحد منا الوقت لكي يفهم دوامة الأحداث التي تحرك القرية، وكان البحر يتجشأ بعد أن تهب تلك الرياح الحارة وتلهب أشعة الشمس الأرض والماء وتتحرك النسمات من البحر مساء فيـــدفع البحر بخاره أمامه ويلف الضباب كل شيء.. عندها نجد مجالا من الوقت لكي نوسع في فتحات شباكنا لكي لا يثلقها جراد البحر وكان في حياتنا الكثير من الجراد لكي نلقي بتلك الكائنات مرة أخرى إلى البحر.. وكان جراد البحر يأتي دائما بعد أن يتجشأ البحر ضبابه.. كنا نتحـــدث عـــن أولئك الذين تتراقص أشباحهم على الأضواء المنبعثة من المـــترل الكـــبير عندما كنا عائدين في ذلك المساء بشبابيكنا التي هي في حاجة إلى الرتق.. وكنا مازلنا نلتفت إلى تلك الأضواء عندما بلغنا نهاية المســـلك، حيـــث يفضي إلى الطريق وحيث تعثرنا جميعا لكي تصطدم جبـــهاتنا بـــالأرض الصلبة.. وكنا في حاجة إلى بعض الوقت لكي نفهم بين دهشة الصـــدمة وتحسس الدماء النازفة من جبهاتنا أن الطريق التي توصل المترل الكـــبير بالمدينة قد أصبحت عالية وصلبة، وسوداء. في تلك الليلة عرفنـــا معـــنى الأسفلت وبقيت تلك الجروح الغائرة في جباهنا تجدد شعورنا بالزفت.

أقعت القرية مرة أخرى تنظر إلى ذلك الرجل الشبر الـــذي جـــر وراءه الحافلات العديدة لكي ينتهي بها إلى المـــترل الكـــبير وتململـــت الأجساد الغائرة في الحفر التي ازدادت اتساعا وعماقا، وتكهنت أن هذا الرجل الشبر سيكبر مثلما حدث ذلك للرجل الآخر الذي تتحدث عنـــه ذاكرة القرية.. وبقيت القرية مقعية عند الدكانة تسلط نظرات المراقبـــة

والاستطلاع على الرجل الشبر الذي كان يخطو في الفضاء الممتد بين القرية والشاطئ.. وكلما خطا الرجل الشبر خطوة امتد الأسفلت وراءه وكلما امتد الأسفلت وراءه نمت الجدران على الجانبين بيضاء عالية بشرفات متعددة تزينها إصص الأزهار. وتصل بينها زرابي الخضرة ولكن الرجل الشبر بقي شبرا.. وباتت القرية تتجشأ الجراد وتنسج أسطورة الرجل الثعبان الذي ينتد اسفلتا وكانت الغازات المتولدة عن ماء العين الآسن تتكاثف في البطون.

عندما أفاقت القرية في اليوم الموالي وجدنا نحن بشباكنا على أكتافنا وبجباهنا الموسومة بجروحها الغائرة على المسرب الذي يقود إلى قواربنا وقد غارت أنوفنا في السياج الذي يقف حاجزا بيننا وبين قواربنا.. وكان السياج يمتد إلى الأفق في الاتجاهين يحمل لافتات تتكرر كل بضع خطوات بكلمات لم يعلمنا إياها المؤدب.. في ذلك المساء عندما كانت الاجساد تتململ في حفرها عند الدكانة جاء رجال قالوا: إن صاحب المترل قد أرسلهم لكي يبلغوا العمدة، ولم يكن صعبا أن يأتي العمدة لكي يستمع في انتباه إلى الكلام الذي وجهه إليه صاحب الترل، ولم يكن صعبا أن نستمع نحن أيضا بكثير من الانتباه للكلام الذي وهه صاحب الترل للقرية، ولكن ما كان صعبا حقيقة هو أن نفهم جيدا ما معني أن صاحب الترل يسأل العمدة أن يمده بقائمة أسماء أصحاب القوارب التي حجزت وراء السياج، وما معنى أن صاحب المترل يسأل العمدة أن يمده بقائمة أفضل بحارة القرية وما معنى أن صاحب الترل يعرض الشغل لجميع الشبان في القرية.. وانصرف مجموعة الرجال وبقي العمدة فاغرا فاه

يفكر ولم يكن الوحيد الذي بقي فمه مفتوحا.. في تلك الليلة تكاثفت الغازات أكثر في بطون سكان القرية وبات كل يحلم بمنزل مثل المنزل الكبير الذي يطل على القرية.. وفي تلك الليلة اكتشفنا نحن الشبان أن أكل الجراد لفترة طويلة يورث مغص الأمعاء المتكرر من الغد لم نتحسس نحن الشبان تلك الجروح الغائرة في جباهنا، بل تعلقنا بالسياج ندس أنوفنا من خلال فتاحته لكي نفتح أعيننا واسعة على الحوريات العاريات وهن يتحركن على رمال الشاطئ، حيث كانت القرية تتعهد بيوض الجراد لكي تفقس بعد الرياح الساخنة وكان اللعاب يسيل من أفواهنا وكنا نتجشأ رائحة الجراد، وكل منا يدرك أن موسم الجراد لن يعود هذه المرة. وأضفنا إلى عاداتنا الأخرى التعلق بالسياج كل يوم إلى أن تنصرف تلك الحوريات العاريات من فوق رمال الشاطئ لكي تأول إلى المنزل الكبير.. وأصبح لعابنا يسيل حتى عندما نكون هناك عند الدكانة نتململ في تلك الحفر التي تزداد عمقا واتساعا وأعيننا مشدودة إلى الأضواء المنبعثة من المنزل الكبير وآذاننا تلتقط نغمات الموسيقى التي تحملها النسمات البحرية في اتجاهنا.. وكان مخجلا أن نحس بالحاجة إلى العواء، لذلك كنا نتسلى بوضع أسطورة أخرى تضاف إلى تلك التي تحفظها ذاكرة القرية.. ويبدو أننا كنا نعوي بشكل ما لكي تتقدم مجموعة الرجال من الجانب الآخر من السياج وتفتح الباب لنا لكي ندخل، وكان مرهقا أن نجدف طوال اليوم بقوارب مثقلة بأجساد تهوي ركوب القوارب. وعندما قذفنا السياج خارجة في مساء ذلك اليوم شرع كل منا في تعديل تصوراته للجنة وحورياتها، وعندما احتضنتنا القرية من

جديد اكتشف كل منا كم هو آسن ماء العين، وكم هو غـــث مـــذاق الجرادات التي تحدث المغص في بطوننا. وعندما نتململ في تلك الحفرات التي تزداد عمقا واتساعا نكتشف حاجتنا إلى الأساطير التي تنسينا طعـــم الماء الألسن والجراد الغث.. وكانت ذاكرة القرية قد بدأت تضعف بعد أن أثقلت السنوات ذاكرة الشيوخ وألسنتها وبعـــد أن تفاقمـــت آلام المغص بالكهول فتكوروا على أنفسهم يدارون امتقاعات وجوهم. وبقينا نحن الشباب بعضلاتنا المنهوكة نتحدث لمجرد التسلية عن الضباب. وذات يوم كان الضباب.

ظهرت السحابة الأولى من أفق البحر عندما كنا ندس أنوفنـــا في فتحات السياج في انتظار أن يفتحوا لنا الباب وبدأت الســـحابة تكـــبر وتقترب.. عندما شرعنا نجذف بثقل تلك الأجساد الذي يرهق عضلاتنا كانت السحابة قد عمت كل الأفق.. عنـــدما أدارت كـــل القـــوارب مؤخراتها للضباب وتسارعت ضربات المجاذيف على صفحة المـــاء كـــان الضباب يلتهم مؤخرة القوارب..عندما انفلتت الأجساد العاريـــة مـــن القوارب تجري في اتجاه المترل الكبير كان الضباب قد أدرك السياج الذي يفصلنا عن القرية.. عندما تحسست أصابعنا طـــويلا فتحـــة البـــاب في السياج كانت أسلاك السياج تقطر رطوبة والضباب يزداد كثافـــة. ولم يكن هناك زيتون ينتظر أن يزهر، وكانت فتحات شباكنا قد اتسعت إلى الحد الذي لا تمسك فيه إلا بقايا الأساطير التي لا تضيعها ذاكرة القرية.. وبقي الضباب يجثم فوق بعضه وتكور الكهول طويلا على تلـــك الآلام التي كان المغص يرسمها تكشيرة على وجـــوههم. وتثاقلـــت حواجـــب

الشيوخ تحت ثقل الضباب مما جعلهم يتساءلون باستمرار لماذا طال الليل على غير عادته، وكنا نحن الشباب في برانيسنا متكورين في تلك الحفر التي تزداد عمقا واتساعا نحس بالضباب يبعث الرطوبة في مفاصلنا ونرنو من تحت برانسينا إلى أضواء الحافلات وهي تتعثر في بحثها عن طريقها الذي يقودها بعيدا عن المترل الكبير كنا قد تحسسنا طريقنا إلى السياج ووقفنا طويلا أمام الباب لكي يكتشف أحدهم وجودنا بعد دهر، ويقول لنا، إن السائحات قد سافرن لذلك لا حاجة لنا بالوقوف هناك. وكان الضباب ينمو ويزداد غوصا في تلك الحفر التي تزداد عمقا واتساعا وعندما لا يثقل الضباب أنفاسنا كثيرا نتحدث عن أيام الشمس وأيام الرياح الصحراوية اللافحة ونتحدث عن المواسم الأخرى، ولكن الضباب كان ينمو من البحر ويزداد كثافة وتزداد أنفاسنا تلاحقا فنرخي طرابيش البرانيس على أنوفنا ونغوص أعمق في تلك الحفر التي كنا نتململ فيها.

وطال موسم الضباب كما لم يحدث ذلك من قبل وطال أكثر حتى من المرة التي جلب فيها العملاق آلته الضخمة لكي يصنع الضباب من أجل زياتينه التي كان يريدها أن تزهو.. وكان الضباب ينمو من البحر لكي يثقل القرية، وكانت برانيسنا تثقل فوق أكتافنا. وقد نكون نتحدث عن الضباب لمجرد التسلية ولكن حواجبنا كانت تثقل تحت الضباب. وقد نكون نبحث في ذاكرة القرية عن الأساطير التي تتحدث عن الرجل الشبر وعن الرجل العملاق وعن الرجل الأسفلت ولكن ذلك المغص الذي كان يتفاقم في أعماق كل منا كان يدفع كل منا إلى أن يتكور على

نفسه ويرسم على ملامحه تكشيرة يخفيها الضباب.. وأضافت القريـــة إلى مواسمها موسم الضباب. وامتد الضباب تاريخا..

قطار الساعة التاسعة

محمد رضا الكافي

(1)

القطار رابض على السكة، يهدر بدوي متواصل رتيب، والمسافرون يضجون بأحاديث تافهة، يتمترسون في مقاعدهم، يتقلبون يمنة ويسرة، بحثا عن جلسة مريحة بانتظار ساعة الانطلاق، بعضهم أنهكه الانتظار، فمدد ساقيه على المقعد المجاور، واستلقى على ظهره، داسا رأسه بين كتفيه، متوسلا نعاسا مخاتلا لا يجيء.

بعضهم الآخر سحب من حقيبته صحيفة، وأغرق رأسه بين صفحاتها، يقرأ ما تيسر من أخبار باتت قديمة، في محاولة متعبة لقتل الوقت الذي يتمطط كسلانا، فيبدو كالجامد في مكانه، لا يتقدم، رجل مسن أرخى رأسه على ذراعه، وأوغل في نوم عميق، وأخذ شخيره يتعالى شيئا فشيئا ممتزجا بشخير دواليب القطار، طفلة صغيرة بظفيرتين فوق أذنيها تذهب وتجيء بين المقاعد، تقرأ أرقامها بصوت عال، أخوها الذي يصغرها بعامين أو ثلاثة يبحلق في زجاج النافذة، فلا يرى سوى وجهه معكوسا على صفحتها، كان الليل، في الخارج، حالكا، رطبا، ثقيلا، ينذر بمطر وشيك.

لن ينطلق القطار قبل موعده، ولا تزال أمام المسافرين فسحة تقدر بخمس عشرة دقيقة، سأل شاب صديقه عما إذا كانت الكافيتيريا مفتوحة في مثل تلك الساعة، فأجابه بلهجة حاسمة قاطعة، كأنه يتلذذ بمعاكسته: إنها دوما مغلقة، كأن مسافري الليل محصنون ضد العطش والجوع أدار الشاب وجهه إلى النافذة، خائبا، مراّ، وظل يحلق في الظلام، لا حول له ولا قوة. عبر سائح أنيق، يدفع أمامه حقيبة حمراء ضخمة تسير على عجلات، وعبرت وراءه امرأة شقراء. ممشوقة، ممتلئة، لذيذة. شامخة، تنظر من عليائها إلى المقاعد، يمنة ويسرة. لعلها تعثر على مقعدين شاغرين، دون جدوى، وصل الغريبان إلى آخر العربة. ترددا قليلا، ثم فتحا الباب، ودلفا إلى العربة الثانية، لعل الصيد يكون أوفر هاته المرة.

أحسست سامية بالضجر كانت متعبة حتى النخاع، رأسها ثقيلة، وأعصابها متيبسة عند البطن وعند العنق، سحبت سيجارة من العلبة الغافية في جيب جاكيتتها الجلدية، وطفقت تدخن دونما شهية، تتلهى بانتظار سحب الدخان المندفع من منخريها، متسمْعة أحاديث المسافرين، لكن ما كان يصلها من أصوات كان مبعثرا، متقطعا، يتطاير في فضاء العربة كسحابات خريف معطل، استلقت على ظهرها، مسترخية، ودست ساقيها الجميلتين تحت المقعد الأمامي، ثم أغمضت عينيها، تغالب أرقا قديما ما أنفك يعاودها كلما أنهكت نفسها قليلا، لسبب أو لآخر، وأحست بخواء في ركبتيها وألم برأسها دوار عنيف. لن تصل إلى الحمامات قبل ساعة ونصف، ولن تغفو، ولو قليلا، مخافة أن يأخذها النعاس إلى فسحة طويلة، فلا تتمكن من الترول في محطة «بئر بورقبة»،

لتركب العربة الصغيرة باتجاه الحمامات، حيث تنتظرها، في البيت، زوبعة صغيرة كانت قد تعودت عليها كلما اضطرها بعض المشاغل إلى العودة في ساعة متأخرة.

(2)

وحيد، رجل وحيد حقا، لا أصدقاء له، يكاد لا يغادر البيت إلا إلى العمل ومن العمل لا وجهة له غير البيت، يغسل أواني الأكل، يسقي أشجار الحديقة، يسوي باقة زهور، يضعها على طاولة الأكل، يعد أكلة خفيفة، ويضل جالسا أمام التليفزيون. يدخن، يتثاءب، ويستعيد في مخيلته شريط أحداث اليوم الكئيبة، كي يعيد ترتيبها حسب نسق منطقي يستريح له، قد يأخذ ورقة بيضاء، وقلما جافا، ويوغل في إجراء عمليات القسمة والطرح: يأخذ من فلان كذا، ويعطي فلانا كذا، ويقسم مع فلان كذا... وكان يصل في كل مرة، وبطرق معقدة، إلى إضافة رقم جديد إلى حسابه البنكي، وإن كان ذلك دوما على حساب سامية، حيث يحذف لها كل مرة من قائمة حاجاتها فستانا، أو معطفا، أو ساعة حائطية. أو طقم شاي. أو سجادا للصالون. وغيرها من الأشياء الصغيرة التي كانت سامية تنفق من حسابها الخاص لاقتنائها، وبصيغة التقسيط في أغلب الأحيان.. لو أن وحيدا يفيق يوما من غفوته، ويدفع باب شرنقته الخانقة، ويخرج إلى عالم النهاس، ويتفسح، ويسكر، ويسهر في الملاهي، ويتمتع من لذات الحياة قبل أن يغزو الشيب رأسه، ويصاب بالسكر أو ضغط الدم، ويعلو شخيره في الليل، وتكبر بطنه. وينتفخ كالبالون،

ويصبح كهلا قميئا، متعبا، مكتئبا، معطل الإحساس، ثقيل الظل، مغلقا كعلبة صفيح صدئة، أحيانا، تتمنى سامية أن تضبطه مع امرأة في مكان ما، فتستفيق جذوة الغيرة التي تكاد أن تنطفئ داخلها فتسعى إلى استعادته، وكسب حبه من جديد، تتزين له، وتلبس من أجله احدث الفساتين وأجملها، وتتبرج أمامه بخيلاء، وتلفه بخيوطها العنكبوتية الرفيعة، إلى أن يسقط في سحرها، وتبدأ معه مغامرة جديدة، سوف تكون دون شك أروع من مغامرتهما الأولى. لما كانا مراهقين عبيين، اندفع الأول في أحضان الآخر مغمض العينين، مقفل الرأس، مستسلما، بلا معركة، ولا كر ولا فر، ولا مخاتلة، هكذا، لقاء دونما حرارة، فزواج سريع، فإحساس كامن، غير معلن، بالندم.

هل ندمت سامية بعد على ربط قدرها بقدر وحيد، ولم يمض على زواجهما سوى عام ونصف؟ هذا ما تحاول جاهدة كتمانه حتى على نفسها في نوع من الإحساس الموجع بالذنب، كما لو أن تغير مشاعر الإنسان جريمة، ورغبته في التحرر من بعض الضواغط الاجتماعية إثم، وسعيه إلى تغيير وجهة حياته الكئيبة شتيمة في وجه الآخرين، أحيانا تحاول سامية ممازحة أمها، فتعدد أمامها مزايا الطلاق، مستمتعة بصلابة الحجج التي تجهد خيالها في ترتيبها ضمن نسق متكامل، إلى أن تنتهي إلى حقيقة أن الزواج اختراع قميء اهتدي له الإنسان عن عجز جوهري لديه عن ممارسة حريته بحرارة وعمق فكانت أمها التي عانت، كما تقول، من مخلفات زواج خاطئ وطلاق سريع، تسد أذنيها وتصدها عن مواصلة الكلام، ثم توغل في تعداد خصال وحيد، خاصة وأنها ترى فيه صورة

الزوج المثالي الذي لا يعاقر الخمر، ولا يعاشر الأوغاد، ولا يبدد طاقته، ووقته، وماله في الملاهي الصاخبة، ولا هم له سوى ترتيب أوضاع بيته، والاعداد للمستقبل في نوع من الخوف المرضى من الحاجة والفقر، والهوس الغريب بجمع المال، حتى ولو كان ذلك على حساب متع الحياة الصغيرة.

(3)

القطار أسهم في الظلام، يلتهم الطريق، يلف المسافة لفا، وسط أزير المحركات، وهدير العجلات، وثرثرة بعض المسافرين الذين لم يناموا بعد، الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، لم تمض سوى عشر دقائق على لحظة الانطلاق، ولا يزال السفر طويلا: ساعة أخرى على الأقل، غيرت سامية من جلستها، وقد أحست بتنمل في ذراعها اليمنى، وفي خاصرتها، تذكرت أن لديها في الحقيبة مجلة نسائية كانت قد اقتنتها في الصباح وهي في طريقها إلى المكتب، لكن الضوء، داخل العربة، كان أصفر خافتا لا يسمح بالتركيز، أعادت الحقيبة إلى مكانها، على المقعد المحاذي، دون أن تفتحها، فلمحت شابا وسيما، متأنقا، يمعن النظر إليها، حاولت أن تتظاهر بعدم الاكتراث، لكن عينيها استقرتا، بالرغم عنها، في عيني الشاب الصافيتين، وكأن قوة خفية كانت تغذي شعلة الفضول داخلها، ابتسم الشاب، فاستضاء وجهه بنور غريب، وبدا وجهه وكأنه طالع من حلم لذيذ، فابتسمت سامية، وهي تجمع داخلها كل ما تبقى من طاقة على مقاومة رغبة عنيفة استبدت بها فجأة في الذهاب أبعد على درب

المغامرة، تمكنت أخيرا من إدارة رأسها باتجاه النافذة، دون أن تكف عن الابتسام، وهي تحاول أن تكبت إحساسا غامرا بالفرح تسلل إلى كامل مسام جسدها، فإذا بعبء ثقيل قد تنحى عن كتفيها، فباتت طليقة، خفيفة، مرحة، فلم تعد تشعر حتى بالصداع، وتيبس الأعصاب، ودوار الرأس.

نهض الشاب، وجاء نحوها، متكئا على ظهر المقعد الأمامي، حانيا رأسه قليلا نحوها، سائلا في نبرة واثقة:

تسمحين لي بالجلوس حذوك؟

أجابت سامية دون أن تلتفت إليه، مخافة أن تلتقي عيناهما من جديد، فتفقد كل سيطرة على نفسها، وترتمي في أحضانه:

- المقعد شاغر، كما ترى، ولا فائدة في السؤال.

- هل يزعجك أن أجلس حذوك؟

- أبدا، إذا كان في ذلك راحتك.

أخذ الشاب حقيبتها اليدوية بين ذراعيه، وجلس حذوها، ثم أخذ يمرر راحة يده اليمنى على جلد الحقيبة، وقد تأكد بعد من أن سامية كانت تراقب كل حركاته، وهي تتفحص صورته المنعكسة على زجاج النافذة. ران صمت ثقيل عليها، فمد الشاب سبابته نحو الزجاج، وهو يقول مازحا:

- لست أنا الذي ترين، إنها صورتي فقط.

انفجرت سامية بضحكة طليقة، ثم سرعان ما كتمتها، وقد اتجهت أنظار المسافرين نحوها متسائلة محتجة:

لا تتصور أنني أنظر إلى صورتك المنعكسة على الزجاج، فأنا، في مثل هاته الساعة، أصبح كالخفاش، لا أرى شيئا.

- ذلك أفضل، فأنا قبيح بشكل لا يحتمل.

كتمت سامية ضحكة أخرى ظلت معلقة كالغصة في حنجرتها، ثم التفتت إلى الشاب، وأخذت منه حقيبتها اليدوية، ودستها في الحيز الضيق الفاصل بين جسديهما، دون أن تنبس بكلمة واحدة، لكن ابتسامة مرحة ظلت عالقة بشفتيها، فلم تقو على ردها.

عاد الصمت ليفصل بينهما من جديد، كانت الساعة تشير إلى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة. عادت إلى مخيلتها صورة وحيد، لابد وأنه يعد طاولة الأكل، يهيئ نفسه إلى معركة كلامية حادة سوف تنتهي بين قبلتين وعناق ساخن على السرير:

- إنه غبي، غبي!

لا تدري سامية كيف أفلتت منها هاتين الكلمتين، وإذا بها تحني رأسها على كتف الشاب الجالس حذوها، وتدس يدها تحت قميصه،

تداعب صدره، وهي تهمس بإصرار كما لو أن رغبة مدمرة قد نهضت داخلها فجأة فلم تقو على ردها:

- قبلني! أرجوك، قبلني.

تنحى الشاب عنها قليلا، ذاهلا، ثم أجال ببصره على المقاعد حوله، خائفا، مترددا، فإذا بسامية تعض بأسنانها على خده، وهي تهمس بإصرار أكبر:

- قبلني! أرجوك، قبلني!

لم يكن الشاب، برغم جماله وأناقته، يتصور أن الأمور سوف تسير بمثل هاته السرعة، وأن له مثل هذا السحر الآسر، لكنه لم يقو على الرفض، فضم سامية إلى صدره بعنف، ومتع من شفتيها، ورقبتها، وصدرها، ثم دس يده اليمنى تحت فستانها، يجس فخذيها، ولما لمست أصابعه سروالها الداخلي، تحاول نزعه، أفاقت سامية من غفوتها المدمرة، ودفعه عنها، ثم سوت فستانها، وأمسكت حقيبتها، وأفلتت من يديه، وهي تتسلل بحركات متشنجة بين صفي المقاعد، باتجاه الخروج، وتمسح بطرف أصابعها دموعا كانت بعد قد ترقرقت على خديها عزيزة حارة، حارقة..[1]

---

[1] – من مجموعة «نساء».

إحدى وعشرون

نافلة ذهب

عندما يتفجر الفجر عبر الأشجار سيولا من الضوء، فيقفز الظلام قفزات إلى الوراء، يشق السكون صوت حمار يقطن جوارنا، صوت مليء تعتريه بحة رقيقة كلما شهق، عندما تنهض النساء من نومهن فتقصدن المطبخ لإحضار القهوة والحليب ولشواء الخبز في الفرن، فيكتمل الفطور، عندها يكون الصباح قد انتشر فيرسم الأشياء بألوانها، فتظهر أبواب في لون السماء، وجدران مبرقعة وأوساخ في الزوايا، رأسية منذ أيام.

كان نهيق الحمار يمتد على إحدى وعشرين شهقة، كالساعة إذ تجري عقاربها، تتابع شهقاته إحدى وعشرين مرة.

كان الحمار ملكا لرجل مسن يسكن في الحي، في بيت لا يشبه البيوت الأخرى فالأرض كسيت ترابا ولم تكس بالرخام الأبيض، والأبواب غير موجودة، وهناك فوهة صغيرة في السقف تتسلل منها الشمس في الصباح وتظهر النجوم على سطحها في المساء، وكنا ونحن صغار تدخل البيت الغريب، فتتضوع رائحة الحيوان فنتشممها بشيء من

الاشمئزاز رغم طرافة الحمار، إذ كان أسود اللون، ذا عينين ســـوداوين يعتريهما الذل والكآبة في نفس الوقت، وكنا نتعجب لتراكم الذباب بين جفونه وعلى جروحه المتعددة.

كان الحمار ساعة الحي، حيث يبتدئ النهار فيه بإحدى وعشـــرين شهقة يطلقها الحمار كل صباح، كان يذكر في كل حين وفي كل مـــترل: فلان أسود كالحمار وفلان بشع كالحمار، إلا أن مع مرور الأيام أصـــبح نهيقه مطلقا، كان يقلق الأطفال وهم نائمون ويقلق المرضـــى والنســـاء الحاملات، وحتى العصافير في أوكارها، كان الذباب يتكاثر فجأة في الحي ويقال: إنه آت من ذلك البيت أين يوجد الحمار، وقتها كانت علاقتنـــا مع البلدية ليست صافية، بل كانت تتحمل طلبات متزايـــدة ومكاتيـــب طويلة متتابعة، فالحي كان منسيا، والأوساخ كثيرة والذباب يقطن مـــع السكان، عندما أخبر عم محمد سكان الحي بأنه كان يعد شهقات الحمار كل صباح، وأنها لا تفوت الإحدى والعشرين شهقة، أثار تعجبهم وقال أحدهم: ربما هو العدد الذي يناسب الحمار، كان ممن يدرس تأثير الأنجم على الكائنات، أما سي عمر المولع بسياق الخيل فقد أكد أنه سيلجأ إلى هذا العدد كلما شارك في سباق الخيل.

وقال جزار الحي، وهو أدرى بالحيوانات: ربما كان الحمار يشـــكو من مرض في بلعومه، وقالت خالتي خديجة: «هكذا خلق، فلم التأويل ولم التخمين» أما شبان الحي، فكانوا صامتين وكانوا يلجؤون إلى تفســـيرات أخرى، فربما كان يصيح لأن الأسمنت أكل الخضرة، ولأن المدينة أكلـــت

البساتين، أو لأنه يحس بالأشياء الميتافيزيقية عن عفوية تامة، أو لأنه يشبه الإنسان الذي ينتقد كل شيء.. أو لأنه.. وتكثر التأويلات قرب الجدار والمقهى العتيق.. كثرت الخرافات والتساؤلات وكثـرت الاجتماعـات داخل المنازل وكان السكان يبحثون في كل يوم عـن حـل لإسـكات الحمار، الذي مازال يبدأ صباحه وصباح الحي بإحدى وعشرين شهقة.. كان الأطفال يزورونه يوميا وكانت ربات المنازل كثيرا ما تتخلصن مـن الخضر الذابلة فترسلن بها إلى الحمار، فكنت ترى الأطفال يحملون السلل وهم قاصدون البيت الغريب، في مطلع كل يوم.

وفي مساء ما، اجتمع بعض السكان في منزل أحدهم، وقد قـرروا لإسكات الحمار بأي وسيلة قال عم محمد: لنأخذه إلى طبيـب بيطـري، فربما ناوله بعض الأدوية لتخفيف ما به، فيكون صباحنا ساكنا، لا يشوبه أي شيء، وقال عم عمر في بساطه: رأيي أن نشتري لـه أتانـا تؤنسـه وتخفف عنه وحدته! إن الحيوان مثل الإنسان لا يطيق الوحدة! سـكت الحاضرون برهة، وكأن كلام العم عمر على بساطته حرك فيهم أشـياء كثيرة، وقال أحدهم: ولكن أين نجد ثمن الآتان، وأين نجد السيارة الكبيرة لنقلها حتى هنا؟ قال عم عمر مؤكدا: ألا نستطيع التضحية مـن أجـل راحتنا وراحة أطفالنا؟

أما عن النقل فالسيارة التي تنقل اللحم، لصديقنا محمد تنقل الآتان إلى هنا.. كانت كؤوس الشاي قد أوشكت أن تفرغ، والليل قد تمطـى فأرجأوا الحديث إلى الغد.

طالت الأحاديث في اليوم التالي، وتكاثرت، مدة أسبوع كامـــل ثم كان اليوم المنتظر فانطلق الجزار بسيارته مع بعض الأهالي صـــباحا، وفي الظهر أتوا بالآتان إلى الحي، وأدخلوها البيت الغريب، وأعطوها ما تأكل وما تشرب.

بات سكان الحي، ليلتها تلك يترقبون الصباح بفارغ صبر، هـــل سيطلق الحمار إحدي وعشرين شهقة، هل سيسكت فيحـــل الســـكون بالحي؟ لكن عند الفجر سمعت الشهقات وكأن شيئا لم يكن، يومها كـــان اللقاء في المقهي يحمل ضجيجا غير محتمل، وعم محمد ينصت إليهم وقـــد غضبوا، فنددوا بهذه الفعلة التي أفقدتهم كثيرا من الدينارات وكثيرا مـــن راحتهم وكان عم عمر يجيبهم دائما : يجب أن نترقب حتى يتعود علـــى وجود الآتان قربه! في اليوم الثاني كان النهيق في أول النهار وكان المقهي يعج بالناس.

أما في اليوم الثالث، فلم يسمع أي شيء، كان الصباح فارغـــا لا يحمل أي صوت، تراخي السكان قليلا، ثم هبوا من نومهم كالعـــادة، ثم نظروا إلى بعضهم بعضا، فتفطنوا إلى أن.. الحمار لم ينهق! لم ينهق ولـــو مرة.. فأين الإحدى والعشرون مرة؟

خرج السكان فتناثروا عبر الأزقة يتهامسون، وذهبوا إلى بيت عم عمر، وهم يهنئونه وقد أصبح اقتراحه من أجمل الأشياء لقد تعود الحمار إذن على الآتان وحصل التوازن بين الاثنين؟ قال أحدهم: نذهب إليـــه، أريد أن أتحقق أنه هنا!

كان اللقاء أمام البيت الغريب، كان الباب مفتوحا، ورائحة الحمير تتضوع، دخل القوم واحدا واحدا فرأوا صاحب البيت جالسا، كان حزينا، أجل حزينا لموت الحمار! كيف! أمات الحمار؟ نعم! والآتان؟ كانت واقفة في عينيها صور نجهلها وفي رأسها أشياء نجهلها أيضا! كان الحمار ممددا على الأرض يابس الأعضاء مفتوح العينين، خرج القوم مسرعين، شعروا بالحي أخرس الجدران، أما سماؤه فصافية لا تحمل سحبا.

هل مات الحمار من أجل الآتان، أم من أجل أشياء أخرى نجهلها؟[1]

[1] – من مجموعة «الشمس والأسمنت».

ليس لهذا السحر مقابل

عروسية النالوتي

في إحدى عشايا «جوان» [1] وقد بدأ الجو يعبق بــروائح الصيف، والضوء ينهمر على أرض الجزيرة خرجت أتشمم هذا الأريج الذي كان يتسلل عبر مسام جلدتي فتتسع لــه مطاوي الصدر إلى حدود الانغلاق.

كنت حافية تحرق قدمي حصيات الرمل المخملي.

وكانت السماء مطلقا أبديا يبدو الإنسان تحتها ذرة من ذرات هذا الرمل الذي ندوسه بأقدامنا. كانت سماء تتوهج زرقة توشحها بعض الغيمـــات الحريرية تكاد لرقتها وشفافيتها تنصرم.

وأمامي كان المكان يمتد أفقيا يسابق النظر ويتعداه إلى مـــا فـــوق حدود البصر.. لا شيء يتحرك في هذا المكان، ولا شيء يضج عدا هـــذا النبض الصامت بوقع حركة الزمن.

[1] – هو شهر حزيران «يونيو».

شيء ما في هذه الجزيرة يشعرني بأني أتحرر من أعباء الزمان والمكان شيء ما يجعلني أحس إحساسا غريبا بأن التربة يدق قلبها في موضع ما يختلط بدقات قلبي.

وشيء آخر مبهم يوهمني بأن رابطة حميمية تربطني بعهود الخرافة والأساطير الأولى فتختلط في رأسي الأشياء، فلم أعد أعرف إن كنت في تلك اللحظة خرافة مبتورة تبحث عن بداياتها الأولى ليكتمل النسيج أو أني وجود هش يبحث عن صخرة البدء، يستمد منها القوة على السير، وكانت رغبتي في الإسراع حقيقة لكن التربة كانت تخدر قدمي فتقارب بين خطاي.. لم أكن أحب أن أصل إلى جارتي العجوز متأخرة. لقد رتبت لقائي معها قبل مدة وبعد إلحاح طويل مني إنها كالأرنب البري تخاف الغرباء ولم أكن أنا غريبة.. ولكنه خيط التواصل انقطع بيننا منذ زمان فأبقي على لغتها وأغير لغتي.. لم تكن قد صدقتني عندما شرحت لها رغبتي في السماع إليها تقص على قصص الغابرين.

لم تكن طوال حديثي تستمع إليّ، لأنها كانت قد فقدت قدرة التسليم وتصديق اللسان .. كان كل اهتمامها – وهي تتكور في ردائها الكتاني الأزرق– منصبا على وجهي وعيني تستجلي منها سر الرغبة المفاجئة في إطلالتي على عالمها.

كانت بين مصدقة ومكذبة.. لأن هذا الدفق التلقائي قد عاد نادرا، وعهد المصافحات البريئة قد ولى وانتهى أمره.

ولعلها مالت في آخر الأمر إلى تصديقي إذ دعتني إلى تناول الشاي معها.. كانت فرحتي عارمة أضفت على سعادتي بالمكان سعادة أخـــرى تربطني ببقية خيوط النسيج السردي الأولى.

***

وقفت بباب منزلها، كان الباب مفتوحا، وكانت في زاوية من زوايا صحن الدار قد افترشت فرشا زاهيا من مظفور الأقمشة. وأســـندت إلى الحائط بعض المساند الصوفية. وكان الكانون أمامها يشتعل جمرا وتتطاير حوله الشظايا كفراشات نورانية، أما الفضاء فكان مسكونا بعطر البخور وبروائح محروق السكر والشاي، كان هذا كافيا ليدخل علـــى الـــنفس النشوة والرهبة في نفس الوقت.

تخطيت العتبة الخشبية، فهشت العجوز في وجهـــي. ودعـــتني إلى الجلوس بجانبها.. وما إن استويت حذوها حتى رفعت براد الشـــاي مـــن فوق الكانون وسكبت شايا أحمر متخثرا رافعة يدها إلى أعلـــى نقطـــة. وكان سيل الشاي يهوي على الكأس في عملية دقيقة تشـــي بـــاحتراف صاحبته وخبرتها. كان خيط الشاي العمودي يستقر مباشـــرة في حلـــق الكأس لا يخرج عن حدوده رغم بعد المسافة.. كنت أرقب هذه العملية في صمت. وكنت أنتظر في كل مرة أن ترتعش يـــد العجـــوز فتغرقنـــا السيول الحمراء الداكنة.

لكن شيئا من توقعاتي لم يحدث، فكانت الأكواب تمتلئ وتفرغ، ثم تعاد إلى سابق امتلائها، وقد علتها فقاقيع شفافة في لون الذهب.

قدمت لي مضيفتي الكأس بعد أن أحاطتها بكل الطقوس المقدسة، المعادة منذ – من يدري – كم من سنة.

قربت الكأس الموشاة بخطوطها الذهبية، واستنشقت الرائحة القوية قبل أن أترشف ذلك الرحيق المتخثر، فأحسست للحظة أن رأسي تطن وكأن عفاريت الخرافات والأساطير قد نطت دفعة واحدة إلى داخل الرأس تؤرجحه عن إيقاعات جنونها.

ابتسمت للعجوز فابتسمت وكأنها حدست ما اعتراني فقالت لي في شبه اعتذار: «لعله مركز شيئا ما»، فسارعت إلى كأسي أقذف بما فيها في حلقي حتى لا تشعر بحرجي وترددي.

لم أكن أريد إبطال سحر هذا اللقاء ولم أكن أسمح لأي جزئية أن تحر محدثتي التي لم تتحدث إلى الآن.

***

ثم انطلق السيل وشعرت أني أتكور على نفسي كقطة أسكرها الدفء.

كنت أحس أنني أقترب منها أكثر فأكثر، وكنت أود أن تتقاصر قامتي وأنط في أحضانها أتوسد ذراعها، بل أكثر من ذلك. كنت أشعر أن خيطا دقيقا سيصلني ويدخلني إلى أرحام العالم الواسعة.

كنت في شبه حذر، فلم أعد أدري إن كان ذلك بمفعول البخور أو بمفعول الشاي، أو هو سحر لفائف الذاكرة العجيبة التي كانت

تسحبني نحو عوالم كأنني حلمتها يوما أو ربما أكون قد عشتها ونسيت ذاكرتي أن تحدثني عنها.

***

انتبهت فجأة من خدري، وكأني أطرد خيالات لا ترى، تجر حتى إلى حيث لا أدري، وعندها تذكرت أنني جئت أيضا من أجل أن أقيد هذه الذاكرة السحرية على أشرطتي المغناطيسية لتكون لي حرية الالتقاء بها متى شئت.. أخرجت آلتي المسجلة من حقيبة يدي الواسعة برفق شديد، كمن يحاول أن يسرق سرا مقدسا وجعلت الآلة أمام العجوز وطفقت نظراتها تتجول بين وجهي وآلتي.

ثم طفقت تنادي بأعلى صوتها شخصا لا أثر له في المكان. فظللت حيران أرتقب المجهول. ولم أعد أدري إن كانت جارتي هي جارتي التي كنت أتحدث معها وتحدثني منذ لحظة، أم أن روحا من الأرواح التزقة قد سكنتها، فغيرت من وجهها وملامحها وحركاتها، ولم يطل انتظاري لأن رأسا بدأت تنقذف من أعماق الأرض، كان ذلك في الجانب الآخر من صحن الحوش حيث توجد بئر لم أتفطن إليها عند دخولي.

خرج الرجل من البئر. وكان يحمل في يده مملسة كان يرمم بها جنبات البئر على ما يبدو. كنت أرى فيه كائنا من تلك الكائنات الأسطورية يتشكل بأي شكل وينقذف من أي مكان فخلته تجسيدا ما لأبطال الخرافة التي كانت جارتي تبدع في رسم ملامحهم.

لكنه سرعان ما خرج من إهابة الأسطوري وتقدم نحوي وهو يشير إلى آلة التسجيل:

«اسمعي- يا ابنتي- هذا النوع من الأحاديث لا يكون إلا بمقابل» ذهلت للمفاجأة ولم أعد أدري ما أقول:

- ماذا يمكن أن يكون المقابل؟

- مال!! كيف يكون ذلك ممكنا؟

من عود هؤلاء الطيبين هذا المستوى من الخطاب؟ من علمهم أن يبيعوا أسرار الذاكرة مقابل وريقات هزيلة ذاوية؟ من اخترق حجب السحر ليسو على تمائم هذا المعبد ويبيعها هناك في أسواق الخردة ومحلات الأدباس؟ بقيت لحظة كانت فيها رغبتي في حفظ هذا المخزون تلح على أن أدفع وأسكت، لكن غضبا قويا عصف بي فجأة فسحبت آلتي وعانقت جارتي، ونظرت في وجه الرجل الطويل الواقف قبالتي فودعته وأنا أشفق على هذا الوجه المغضن أكثر مما كنت أحقا. عليه وقلت له وأنا أبارح المكان:

«... أنا سعيدة يا عمي، بما عشته الآن معكم! لكني أرفض أن أدفع مالا.. فليس لهذا السحر مقابل».

سأتركك تتذوق هذا الطعم

حسن بن عثمان

الذي لا يعرفها يحسب أن الفقيد هو ابنها البكر، ليس فقط لأنها من يوم موته، وهي تنوح بلوعة، ولا تنبس بكلمة إلا ويداخل صوتها النحيب ومرارة التحسر، بل لأن خشبة غسل الأموات النظيفة الملساء، ذات اللون الضارب إلى البيوضة، منذ ثلاثة أيام وهي تتكئ على حافة جدار بيتها.

ومن المراسم العريقة في هذه البلدة، أن المغسل، الذي يعتبر في ذمة حافظ بيت الوضوء بالجامع الوحيد هناك، والذي يجيء به بإعانة ابنة ليطهر عليه الجثة، ويبقى مسندا على الحائط الأمامي حذو باب بيت المتوفي لمدة ثلاثة أيام، والمعزون من أهل البلدة والمعارف، هم في العادة، يسترشدون به كعلامة لدار أولياء الميت.

وخديجة أرملة الهادي الخضار المرأة التي تتأرجح في الأربعين سنة، ويفيض لحمها عن كل لباس، حتى أنها كانت تبدو مقحمة عنوة في كل ما ترتديه وانشق في يوم الولولة الأول فستانها البني ذو التصاوير السائبة، من نهاية العظمة الفقرية السفلى حتى إبطها الأيسر، شقا مائلا اندفع منه لحم أبيض ما لبث أن تورد من ضغط الجسم المعبأ، ورغم أن النسوة

النائحات اللائي تترّ عيونهن بدمع لا يشح، أشرن عليها بالكف عن الخبط والتمايل الأهوج حتى لا يتتابع تمزق الثوب فتنكشف عوراتها، وتحضر إذ ذاك الشياطين، وتغيب عن الجنازة الملائكة، وهذه جناية كريهة في حق روح الفتي الميت، فإنها لم تكترث ولم توهن التفاتا.

وكانت الحال تتطور معها، إذ ظهرت وكأن في مخها عش دود يتثني، لأن هذا اللطخ القاسي يكفيها على رأسها، وتلويها الثقيل الذي يموج طيات بدنها في تلاحق سرابي واضح، يشبه فعل ديدان الجن الخبيثة التي تصرع أعتي الأجسام، إنها كانت في حالة غريبة من الصرع، إذ إن جسدها لم يتصلب ويتيبس كما الصرعى، بل ظل مطواعا يترجرج مكتترا مع كل حركة، الشيء الذي نشر عدة انفلاقات في الفستان البني وجعل تصاويره السائبة تشطر وتتفتت أشكالها، وجعل أيضا، تكومات وعماميد لحمية تنبثق في النصف الأعلي لجسدها، تكون في تقسيمها التلقائي المتزاحم مجموعة أثداء الواحدة بحجم الراحتين المتقابلتين.

عند هذا الحد، انقطعت النساء النائحات عن النواح والولولة، واتجهن بألحاظهن المتقدة احمرارا ونزل دمع، نحو خديجة المهاجرة عنهن في غيبوبة الانفلات العنيف للجسد الذي يصدر عنه صوت يتبين فيه نشيج غليظ أجوف لا آدمي، يشبه، حين تلوي رقبتها القصيرة إلى التحت، خوار ثور رفعت للتو عن أوداجه النازفة السكين، وتبادلن نظرات الاستياء الغاضب التي يقصدن بها حث إحداهن على زجر وتوبيخ تصرف خديجة المبالغ في رعونته.

– «الصبر يا رحمان، يا خديجة انتبهي، إنك قلبت المأتم إلى فضيحة، لمي روحك يا هذه، احتشمي.. ليس معقولا ما تفعلينه..»!

– هذا ليس معقولا، ليس معقولا يا ناس، إنها غير مؤدبة في محفل الميت، يا لطيف، لكأن المرأة أصيبت في عقلها، يا أم عباس ألا ترين، أنها أدمت جلدها، يا ساتر أستر.. تداركي الأمر يا أم عباس، إنها فاتتك وفاتتنا في إبداء الحرقة على المصاب، يا عجبي كأنه من رحمها وليس ابنك.. والله لو زادت على هذا لفعلت جريمة..

زحفت أم عباس من وسط النساء، وعجيزها غير المكورة لم ترتفع عن الحصيرة المفروشة، في المساحة القليلة لبهو الدار، حتى التصقت بخديجة كأنها تضمها، وتحلق النسوة حول المرأتين من غير أن يستعملن أقدامهن في التنقل، ثم حاولن مجتمعات شد يدي خديجة وتهدئتها، واختلطت الأصوات بالحركات، وعلا الضجيج في الدار.

فجأة، تهب خديجة مقتلعة نفسها من بينهن، وتعفس هكذا دون تبصر، وتدور في البهو لولبيا، منكوشة الشعر، متفتقة اللباس، ثم تركض بوزنها الثقيل صوب الباب الخارجي.

– «يا إلهي الرحمة.. لقد سكنها إبليس.. الرحمة..».

للحظة يخيم الذهول، وتشل حركات النسوة. كأنهن مصعوقات، فاترات الشفاه، الأعين سائحة في محاجرها ببطء، وقع قدما خديجة القويتين مضغوط في الأسماع.. يتلو هذا الهبوط الآني للحس والحركة،

نهوض متسارع للنسوة، عند سماعهن جلبة شيء يكركر على أرضية الممر الترابي الذي ينهج طولا، في ضيق، مباعدا بين البيوت المتقابلة، وتدافعن متراصات نحو الباب الخارجي المشرع، ترتسم البهتة علـــى وجـــوههن، حيث وجدت زمرة ملتفة متحاكة تشرئب منها الأعناق مادة الـــرؤوس كالأوز المفجوع. خارج الدار، غاصا بهن آخر الممر، وقد ثبتن في مكانهن وهن يتشوفن إلى خديجة تجر المغسل الضارب لونه إلى البيوضة، منحنيـــة عليه قليلا، تمسكه من طرفه الدائري، وهو واقف علـــى حـــد ضـــلعه المستطيل، وتمشي به القهقري.. تابعن بأعينهن الجر، وهن جامدات، حتى بلغت به إلى بيتها الذي يفصله عن دار أم عباس ثلاثة أبواب، ودفعت به إلى الداخل، وحين لحقن بها مهرولات بلا وعي، لقينها طرحت في حينها أرضا، أمام عتبة غرفتها الوحيدة، وقد اعتلاها المغسل، لتفرد ذراعيهـــا فوقه في كبس وعناق.. وكان وجهها تحت طرفه الدائري المنتصف الذي يسبل رأس الميت عنده حين غسله، وكانت طريقات محمومـــة لشـــفتيها على الخشبة في موضع الرأس.

– «إنها تبوس المغسل.. إنها تبوس المغسل..».

هكذا صرخت النسوة مذعورات مذهولات بصوت واحد متكرر، وبحركة جماعية انكبين عليها يخلصن المغسل من بين يديها اللتين استحالتا إلى كماشة حديد، ورقد قاومتهن بشراسة وعنف وهي تتمـــرغ تحـــت الخشبة، وصوتها الصائح اللاهث يستغيث:

«اتركنني يا بنات الكلب، إن بقية روح عباس تتنفس عندي رائحة الأنثى، الرائحة التي اشتاقها ولم يعرفها وهو حي، سأعطيها لآثاره على هذا المغسل.. قصف شبابه ولم يذق طعم امرأة في حياته، ابتعدن عني.. ارتكنني معه.. لا تنتزعنه من فوقي.. اتتركنني أريح الولد في قبره..».

***

الرجال وهم عائدون متباطئين خشعا حزانى من المقبرة، تناهى إلى أسماعهم اللغط الحاد العالي المنبعث من بيوت الحومة، وقد استطاعوا أن يتبينوا فيه أصوات نسائهم حين يكن في حالة شجار وعراك، خلافا لما يجب أن يكون عليه الصوت في مثل هذا الظرف من النحيب والبكاء، وهم يدركون كذلك أن ميتهم غير عادي، وربما يحدث أمر ما، لذلك فإن جنازته كانت غاية في الضخامة والكثرة، حيث تجمع فيها كل أهالي البلدة، بما فيهم الأعوان السبعة لمركز الأمن المحلي ورئيسهم، وزغردت النساء النائحات عند خروج نعشه، وهتف الرجال بأصواقم المهيبة الجهورية وم يشيعونه إلى مثواه: «رحمان يا رحمان هذا عبدك»، إذ إن الميت كان أعزب في عنفوان صحته، عندما غادرهم إلى العاصمة باحثا عن شغل، وفي صباح اليوم السابع لذهابه، عندما باشر عديد الرجال في المقهى الوحيد للبلدة لعبة الورق والديمينو والمزاح الفاحش، أتت سيارة عسكرية خضراء غامقة، يستقلها أربعة من رجال الشرطة بأزياء غير معهودة، وخوذات لونها، في الظل، رمادي فاحم، ولم يتجهوا إلى مركز الأمن كما هي عادة البعثات الرسمية والناس الغرباء، وإنما سألوا في المقهى

عن أبي عباس.. وحين لقوه أركبوه معهم السيارة في هدوء ولياقة متوترة، وذهبوا.. عندما أرجعوه في المساء كانت حالته لا تسر، بل تبعث على الريبة، فالرجل أصفر الملمح كالح، يلتفت إلى جنبيه كالمخطوف، وقال لجيرانه القلقين، منذ ذهابه، بهمس مرتجف، إن ابنه عباس ثقبت بطنه برصاصة أعوان النظام العام، وقد حملته الحكومة إلى المستشفى الجهوي الكبير بالولاية لتعالجه، وهو لم يتمكن من الحديث معه لأنه كان مغميا عليه منذ أصيب، وقد تكلم مع أعوان الحكومة، فأعلموه أن المواطن عباس الذي هو ابنه شارك في مظاهرة طلابية للمطالبة بتكوين اتحاد طلابي، فقال لهم إن عباس يفك بالكاد حروف اسمه، فاعلموه أنه كان يتزعم فصيلا طلابيا ويقذف أعوان النظام العام بالحجارة ويهتف بالشعارات ضد الحكومة، والأعوان دفاعا عن النفس أطلقوا النار، ولم يصيبوا منه مقتلا، لذلك فليطمئن، فهم يسهرون على سلامة أمن الجميع، وأنهى أبو عباس كلامه ببكاء جليل صامت.

***

عند الصباح الباكر، والشمس الشمالية التي تبزغ دافئة وأليفة، وما تلبث في وقت قصير أن تقترب من سطوح الديار، وتستنثر نفسها الناري الجامد، كانت مجموعة من النساء في الممر الضيق المفضي إلى دار أبي عباس، يتعثرن في سفاسرهن البيضاء العتيقة، ورؤوسهن منخفضة في خفر، وهن يختلسن الوطء مسرعات، ومقبلات نحو الكميونة الصفراء الرابضة على ناصية الممر، التي تطوع بها أحد الأهالي لحمل الزوار المقربين من عائلة أبي عباس لعيادة الابن في المستشفى الكبير بالولاية.

وخديجة حين التحقت بالركب وهي تعرج بقفة الزيارة، لم تجد لها مكانا. فالكميونة غصت بالرجال والنساء، ولأن المرأة ثخينة ممتلئة، فقد امتنع السائق عن حشرها بين الجمع، متعللا بمحدودية حمولة الكميونة وخوفه من الحاكم الفاتح عيونه عليهم هذه الأيام، فشتمت خديجة السائق والحاكم ولعنتهما جهرا، وقد كبر هدوء الصباح صوتها فتهادي في البلدة ولم يخدش سمع أحد.

لم يثنها عن الذهاب انطلاق الكميونة بدونها، واستطاعت أن تتدبر الأمر مع سماسرة المواشي الريفيين الذين يسلكون، مرتين في الأسبوع، الشارع المسفلت بالبلدة، في طريقهم إلى سوق الولاية.

وقد أركبوا خديجة مع البقر في العربة المكشوفة لشاحنتهم اللوري المهترئة الوسخة، بعدما جاولوا ممازحتها بسفالة، وعرفوا أن مزاجها حاد وسيئ، فقد كانت مقتضبة الكلام، متزعجة ومهمومة، ومستغرقة في حالة شرود عجيبة، إذ إن خبر إصابة عباس طيرّ لبّها، وجعلها مرتبكة وقلبها يوسوس لها بخواطر سوداء خبيثة، فالولد قد كبر أمام عينيها وكانت ترقب نمو أعضائه فصلا بفصل إلى أن نبت الشعر الأكحل على صدره العريض، والآن ها هي خائفة أن يقضي نحبه دون أن يتمتع بشبابه الرجولي الفتي، لقد كانت في الأشهر الأخيرة تدغدها الفرحة حين يأتي إلى بيتها، ويقرفص في الظل قبالتها تاركا ظهره يلامس الحائط، ومجيئه إليها يعتبر في نظر الآخرين عاديا، لأن الجميع يعرفون أنها أرملة وحيدة وشريفة، رغم ما يبدو أحيانا من نزق في سلوكها، ويعرفون أن عباس

بمثابة ابنها ومؤنسها البريء، فقد كان وهو صغير يمضي معظم وقته عندها، وهي ترعى عن كثب سني عمره بود وعاطفة أمومة ساخنة، إلى أن تخطى العشرين وأصبح يقرفص كالرجال، وتحس هي برجولته في هيكله المكتمل الفاخر، ونظراته المشبوبة الثاقبة التي أحست بوهجها الجريء أكثر من مرة وهي تجوس بحذر في مواطن مخجلة من جسدها، وتعودت عليها واستمرأتها، وأصبحت تنتشي لها وتطلبها، ما أمضى نظرات الرجولة الأولى المترددة وأحرها، فهي تجعل إحساسا خفية مبهمة في نفسها، كانت تحسبها اختفت إلى الأبد منذ موت زوجها، تفعل وترتعش داخلها، وكانت تلعن في خلوتها تلك النوازع الشيطانية الآثمة التي سيطرت عليها وباتت تؤرقها وتبلبل ذهنها منذ رجولة عباس.

كان عليها في هذا الظهر الحامي، أن تستقل تاكسي بعد أن أوصلتها الشاحنة إلى سوق المواشي على مشارف الولاية، لتلحق بجماعة الزوار قبل أن يتموا زيارة عباس، لكنها حين بلغت المستشفى أخبرتها الممرضة أن زيارة عباس ممنوعة، لأنه في غرفة الإنعاش فاقد الوعي، ومن المرتقب أن تتحسن حالته غدا، ويوضع مع المرضى العاديين والذين جاؤوا قبلها منعوا لهذا السبب. زد على هذا أن اثنين من الأمن يقومان على مراقبة زواره وتطورات وضعه الصحي.

لم تفهم خديجة هذا الكلام، وأصرت على رؤية عباس حتى لو كانت قوات الحاكم كلها في اعتراضها، فلابد أن تراه ولو كلفها ذلك حياتها.

وبفعل صوت الصراخ والضجة اقترب منها عون أن مدني اللباس ووسيم، وبدأ يتلطف معها ويجاذبها الحديث، ويسألها بتهذب ونعومة عن البلدة وعن سعر الدجاج وعن عائلة عباس وعن سيرة عباس وعنها، أسئلة متفرقة مفتعلة، ثم مد يده إلى قفة الزيارة وسحبها وفي كفه بيضتان مطبوختان قشرهما وأكل، ثم كرر العملية إلى أن أتى على أهم ما في القفة، وبعدها ربت على كتفي خديجة، وقال لها إنه سيتصرف في أمر رؤيتها عباس، شرط أن تكون رؤية قصيرة لا تسبب له مشاكل.

حين رأت عباس وهو ملقى على الفراش الأبيض، ومغطى باللحاف الأبيض، وخيوط المصل تتدلى من فوق إلى ذراعيه وأنفه ووجهه، وهو مسبل جفنيه، ككعبة الليمون المعصورة، أيقنت أنه سيموت، فجثت على ركبتها، وصدرها على السرير، وهتفت بفزع: عباس أيها الغالي.. ما بك يا كبدي؟؟

على الصوت الملتاع انفتحت العينان الذابلتان بلونهما الممحي ومالتا في إنهاك ناحيتها.. وتملصت بعسر كلمات مخنوقة من بين شفتيه الجافتين المشققتين:

«ع السلامة

أين والدي..؟

وحدك أتيت يا خديجة.

إنني أموت.. لقد ضربوني بالرصاص في الشارع ولم أفعل لهم شيئا.

لست خائفا من الموت يا خديجة.. لكنني شديد الحزن.. يعز على أن أغادر هذه الحياة دون أن أتذوق طعم المرأة..

قالت خديجة بصوت باك وسريع:

– لا تخف يا عباس، ستنجو من الموت.. وسأتركك تتذوق هذا الطعم..»[1].

[1] – من مجموعة «عباس يفقد الصواب».

زرنيخ

صلاح الدين بوجاه

النصل اللامع على الأعناق النحيلة الرؤوس الصغيرة تتدحرج الواحدة تلو الأخرى في تشنج غير إرادي ثم تتجمع في حذر قرب الموقد الملتهب، أما شمس الظهيرة فتسطع فوق السهوب تكشف الشجرة والناس وحقول القمح المنسابة حتى مرمى البصر.

مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر.. كلما تكاثرت الجراء في الضيعة، أو ولدت كلبة سائبة في الأحراش القريبة، أو شاع الداء الخبيث بين كلاب الانحاء، يهرع الأطفال إلى السلال، ومقاطف السعف يملؤونها مخلوقات صغيرة عاوية، من هذا الكوخ الخرب أو تلك المغارة في حذر، ثم يفتحونها واحدة تلو الأخرى أمام عيني راجح الشرهتين.

يمسك العجوز بالفأس، يمرر راحته فوق النصل اللامع الذي ما فتئ يسن على الدوام لغاية غير معلومة.

وما أن تلمع الشفرة في الهواء حتى يختفي الأطفال خلف الجرار القديم، أما الجراء فتلقي حتفها في تسلسل محسوب..!

الخارج من الكيس هالك، والعائد إليه هالك، والخائف المنتظر غير ناج من النصل المحتوم!

تتشنج عضلات العجوز راجح، يتمطط جبينه الأحمر المدبوغ، تلتهب عيناه ببريق مكتوم، تنفتح خياشيمه وتهتز أرنبة أنفه حمراء داكنة، وتبرز عروق عنقه وأعلى صدره، ثم يهوي على كتل اللحم الصغيرة العاوية داخل المقطف أو على كثب منه أو حزو الصخرة الرمادية التربة.. فينبجس الدم قانيا، ويتطاير فوق أوراق شجرة الخروب الطاعنة.

الشمس تسطع رائقة هذا الصباح، ورائحة آخر أيام الربيع تنتشر في الضيعة، يخرج الجرو الأول من الكيس، لونه مثل حبات الكستناء المشوية، يخطو خطوتين، فتغمره نسائم الحقول . وفي لمع البرق تهوي الفأس تجتث العواء المكتوم.

ثم يخرج الثاني، يليه الثالث، يريد وجه العجوز راجح، ويثار الغبار تحت ضربات الفأس رماديا داكنا ويزداد الأطفال خلف الجرار القديم تراجعا!

يمر الوقت ثقيلا، ثم يظهر الجرو الرابع: يمد عنقه خارج الكيس يتقدم حذرا، يلمح شعاع الشمس من خلال أغصان الخروبة، يحدق في عيني راجح.. وفي لحظة هاربة يبصر النصل اللامع تحت زرقة السماء.

كانت لحظة

مثل دهر..

تقهقر الجرو الرابع، أراد المغامرة، حاول أن ينكفئ ويقع على مؤخرته، رمقة العجوز بنظرة فاحصة فلمح في قسماته مزيجا من الاستعطاف والتحدي، بل إن عينيه المحمرتين من أثر الرمد قد اتخذا ألق عيون الذئاب اللامعة في الليل البارد.

كانت لحظة بطيئة، فكر العجوز فيها لا يكون وارتعدت أوصاله. هوى الفأس نحو الرأس الوبرية الصغيرة، وقبل أن تجتث العنق النحيلة في حركة فاصلة انثنت يمينا وارتطمت بجبهة الجرو الخامس المطل من الكيس في وجل وتحسب..

نجا الجرو الرابع!

نجا وارتد بكتم عوائه، وانساب نحو كومة التبن وانغرس داخلها تصحبه خشخشة جافة.

لا يذكر الأطفال أن العجوز قد أخطأ ضحية من ضحاياه الصغيرة.. القطط وجراء الكلاب والقنافد والثعالب وبنات آوى..

رمقوا العجوز بنظرة استفهام وريبة ولمحوا فوق صفحة وجهه الداكنة ظل غيظ مكتوم، ثم سمعوه يرسل قهقهة شرسة وهو يهز الشفرة في الهواء يغرسها في جذع شجرة الخروب:

– نعم.. يحدث أن تنجو الجراء أحيانا!

قبل مغيب الشمس ذلك اليوم كان الأطفال يبحثون عن الجرو الرابع.. فتشوا داخل كومة التبن، قلبوا الأغصان اليابسة، أزاحوا أكياس الجلبان والقرفة والحمص..

كانت فاطمة هي التي ظفرت به: وضعته بين راحتي راجح في فرح، فرمقه العجوز وهو يخفي ظل ابتسامته:

– عيناك تزدادان حمرة.. هذا الرمد يكاد يذهب بهما!

أحاط الأطفال بالشيخ والصبية والجرو، استفهموا في صمت:

«أيمكن أن ينجو من الفأس.. ثم يصيبه العمى؟!».

قرر العجوز في ثقة وأناة:

– حمام الزرنيخ.. غداً صباحا ينعم هذا الصغير بحمام زرنيخ بارد ينعشه ويزيل رمده..

دفع الجرو أصابع العجوز بخياشيمه، وأخذ يعلق راحتيه بلسانه اللين الرطب..

الأطفال لا يسألون: «ما الزرنيخ!»، العجوز يحدق في عيني الجرو، الصبية فاطمة ترمق العجوز، تسبر غور عينيه المحمرتين من أثر السهر ودخان الموقد المرتجل، وليل السهوب يهبط شيئا فشيئا على الكائنات بنسائمه الباردة وظلامه القديم.

على كثب من البئر صب العجوز دلاء ماء في تجويـف مسـتطيل نقره الأقدمون في الصخر، جعل فيه زرنيخا أخضر، ثم عالجه بشيء مـن الملح والخل..

تغير لون الماء الأطفال مبهورون، التفوا حول راجـح الممسـك بالجرو، سأل أحدهم:

– من حفر هذا الحوض؟

أجاب العجوز:

– القدامى كانوا يتخذونه تابوتا لدفن الموتى.. أو لعلهم يطهرون فيه أطفالهم!

قالت فاطمة:

– ما هذه الألوان التي تجعلنا في الماء؟

لفها العجوز بنظرة هادئة، وهمس وهو يرخم اسمها:

فا.. انظري ولا تسألي!

– ثم.. ازداد صوته خفوتا وقال:

– بعد حين تصبح عينا الجرو في لون عينيك: خضـراوين مثـل فستق مقشر.. سأشرح لك ذلك فيما بعد!

توردت وجنتا الصبية، ابتعدت خطوة أو خطوتين، دنا العجوز من الحوض ودلى الجرو في الماء.. فتخبط عاويا يكاد يغرف، ثم استوى يسبح عند السطح رافعا رأسه الكستنائية الجميلة ناظرا إلى الأطفال في زهو..

أمسكت به راحتا العجوز المعروقتان، ثم غمستاه تحت الماء:

ما هكذا يكون الغوص، ينبغي أن يلمس الزرنيخ عينيك، وينطبق عليهما الخل والملح حتى تخشى العمى.. حتى توقن بالغرق!

خفق الجرو داخل الزرنيخ المخلوط، خبط الماء بذنبه القصير، تشرب اللون..

في حركة سريعة، وبأصابع دربة، اجتذبه العجوز من الماء ولفه في خرقة بالية تدثره وتجفف شعره، نظر الأطفال وصرخوا في دهشة:

– هذا جرو أخضر..!

ابتسم راجح، وقال:

– بعد أيام يعود وبره إلى لونه الحقيقي، لون الكستناء المشوبه، أما العينان فتلبثان فستقيتين، المهم أن يشفي نهائيا من داء الرمد..

أقبلت فاطمة على كتلة اللحم الصغيرة المرتعشة تدثرها في لطف:

– هو في لون الزرنيخ.. هو.. زرنيخ!

شيئا فشيئا نشأت روابط حميمة بين العجوز والجرو، روابط تمازجت فيها انفعالات شتى: الود والعرفان والحذر والتحدي والخوف!

لم ينس راجح وميض النصر في العينين الحمراوين الصغيرتين لحظة أخطأ النصل العنق وارتد بين يدي الشيخ.. ثم وقع على رأس الجرو الخامس، فلبث الجرو الرابع.. «زرنيخ» طليقا معافي!

أما «زرنيخ» فلن ينسى أعناق الجراء تتطاير في الهواء يسبقها نثار دمها الأسود!

صورتان من مشهد واحد لبثتا عالقتين بالرأس الآدمية الشعثاء.. ورأس الجرو الصبور ذي العينين الخضراوين.

لكن التواطؤ يمكن أن ينشأ بين الكائنات رغم أصناف الحذر والحقد والموجدة التي تهز هذا أو ذاك ساعة العودة إلى أحداث الزمن الأول.

مثل هذا التواطؤ المبهم، القائم على توزان هش من توازنات الطبيعة، نشأ بين راجح وزرنيخ والصبية..

كان العجوز يطارد الصبية داخل حقول القمح الشاسعة الممتدة على مرمى البصر، حيث السنابل في لون الذهب تتموج تحت نسائم أواخر مايو الحارة.

تفلت الصبية، تتعثر في حيائها، ويلبث صدى الصوت مخترقا صمت السباسب:

- فا.. فا.. يا.. فا..!

يجيبه السهل البعيد بهمهمة صامتة! وتندس الصبية الرعناء بين السنابل تحتمي من وقع الصوت الترق:

- فا.. فا.. !

فاطمة في راوة الصبا، عصة العود، فستانها الواسع مزهر على عادة الصغيرات في هذه السهوب الحارة..

تنساب في الحقثل، حولها القمح والشعير فوق سيقانه المديدة. السنابل تخز جسمها الصغير في مواضع شتى عبر الثوب المسدل رجراجا حتى أخمص قديمها، والنداء المكتوم يبلغ أذنيها أخرس حادا فيه حرقة وحدة وضراعة:

- فا.. يا.. فا!

فاطمة تعذ السير، تعدو، يسبقها خوفها، تتعثر، توشك على الوقوع، تتردد لحظة، تندفع في الحقل الذهبي الحارق حتى منتهاه، تندفع تحت سياط ذعرها الأصيل.. والعجوزر خلفها يدنو لاهثا محزونا منكسراً:

فا.. ألم تسألني عن عيني «الزرنيخ» أم تسألي عن الحوض القديم.. سأطلعك على كل شيء..

خطوات قليلة تفصل فاطمة عن نهاية الحقل.

بعد لحظات تطأ قدماها الصغيرتان العاريتان المسلك المترب! هل يكف العجوز عن مطاردتها؟ أم لعله يكون هنالك، فوق التربة الصلبة، أقدر على العدو خلفها.. رغم سنواته الستين!؟

حمحمة جواد تأتي ضعيفة من بعيد، فاطمة تجد في الهروب، الحرارة خانقة والعرق المتصبب يغسل جسمها الصغير ويبلل الثوب، ويتفشى نثاره حولها على الهواء!

لم تفهم جيدا ما الذي حدث، أو كيف حدث! كان الشيخ قد سبقها من حيث لا تدري! فهو عليم بالحقول والحمادات والأودية.. حقول القمح، والشعير، والعنب، والذرة، والجلبان، لكل منها مسالكها وأسرارها؟ كمن عند نهاية الحقل حيث تتموج سنابل الأطراف وحيدة بعيدة عارية. كمن مثل ذئب!

فكر في مباغتتها هنالك في العراء، وكان له ما أراد. فما أن وطئت قدماها الأرض المبلطة بالتربة البيضاء الساطعة حتى انتصب أمامها طويلا معافي تعلو محياه الأسمر الأحمر العريض ابتسامة ماكرة بلهاء. جعل عصاه خلف عنقه، أمسك بها من طرفيها بكلتا يديه... ولبث يحدق في الصبية المندفعة نحوه في قفزة أخيرة لم تحسب لها حسابا.. وأنى لها؟! في اللحظة

ذاتها، ومن مسلك آخر متوار حذو اخشاب فيكتمل الثالوث: الصبية والعجوز والجرو..! لم يعو، لم يحرك ذنبه القصيرة المتشنج، لم يتشمم الهواء بخياشيمه الصغيرة السوداء، إنما اكتفى بالنظر. فتح عينيه واسعتين، وتجمد مثل كلب صغير من خزف الصين البعيدة!

كانت العينان خضراوين زرقاوين. كان لونها غريبا وسطا بين هذا وذاك..! لكنهما تحولتا شيئا فشيئا إلى لون الجمر، استعادتا لونهما الأصيل، لون ذلك اليوم البعيد.. لون اللقاء الأول بين العجوز والجرو، لحظة لمع النصل في الهواء.. فرمقه الكائن الأعزل الصغير بعينين لونهما الرمد وامتز فيهما الخوف بالتحدي!

انثنى الشيخ واندس بين السنابل المرتفعة لا يلوي على شيء! هل أحس بالعري والانكشاف، هل خسي زرنيخ، هل أصابه رعب العينين الملتهبتين مثل جمر الثلوج فوق جبال الشمال؟!

لا أحد يعرف حقيقة الأمر!

كل ما هنالك أن الصبية فا.. قد شوهدت تعود إلى الضيعة هازجة يسمع لضحكها مثل رنين الحلي فوق الزجاج، يتبعها زرنيخ متمسحا بقدميها العاريتين مثل قط صغير أليف.

شاع في الضيعة نبأ المطاردة، فا.. لم تتحدث! ترى من لمح المشهد في الحقول؟! أم لعل وجه العجوز الأسمر الأحمر قد فضحه من حيث لا يدري؟ أم تراه «زرنيخ»!

انفض الأطفال عن العجوز راجح بسرعة ودون تعليل، لن يأخذوا من سلالة جبات المشمش وحب الملوك ولن يتخطفوا من مقاطفه عناقيد العنب سوداء لامعة ريا، ولن يتناولوا من راحتيه الواسعتين ثمرات الفراولة الحمراء اللذيذة.. ولن يملؤوا قفافه بما يجود به أباؤهم من حلوى ونقود صغيرة لامعة ولفافات تبغ أو قراطيس سكر وتمر..!

ذهب الزمن القديم ومرت الشهور الطويلة ثقيلة وتبدلت أحوال لكن ثأرا مقيما لبث متفشيا هنا وهناك مخيم على الضيعة حاضرا في رأس زرنيخ يكاد يذهب بها، ثأرا أضحى يلح على رأس الآدمية الشيباء، ثأرا انبثق من المشهد القديم، ثم أيقظه الصدام بعد المطاردة.. وزادته همسات الأيام الأخيرة حدة..

لم يتمكن زرنيخ من نسيان الجراء تمزقها الفأس، ونثار دمها المتخثر يتطاير في الهواء، أما راجح فلن يمحي من ذاكراته وميض التحدي الذي بدا في العينين الزرقاوين الخضراوين لحظة المواجهة التي جعلتهم وجها لوجه: العجوز والصبية والجرو!

اختفى العجوز في الحقول البعيدة، وأضحى ينام تحت أشجار السرول منكفئا على وجهه فوق التراب، منكفئا مثل رضيع يحتضن شيئا وهميا.. يحتضن خيبته!

يلبث صامتا ينصت إلى الريح تكاد تجتث أوراق العنب والتوت والتين، فيزداد التصاقا بالكائن الوهمي الذي يسكنه هذا الذي يأكله من

الداخل.. حتى إذا ما لمح فاطمة عن بعد في بعض الأوقات النـــافرة، أو خيل إليه أنها تمر قرب ناعورة الريح صغيرة متوردة الوجنتين منســـابة.. أمسك بالعصا الغليظة يهزها بقوة وأخذ يخور مثل ثور يساق إلى الذبح..

ثم ينبثق في الريح والحقل، تتكسر السنابل عند عبوره، تطأ قـــدماه العريضتان القصبان الصغيرة والحبات الصفراء المتناثرة، تفقـــس بـــيض الحجل البري وتجتث السيقان وتقتلع فزاعات الطير..!

يهتز الكائن التائي الذي يسكنه، تتشنج عضلاته، ينساب الـــدم في عروقه، يندفع نحو وجهه، فيزداد احتقانا حتى يصبح في لـــون الســـواد وتزوغ عيناه نحو غاية غير معلومة..!

فوح برتقال ومشمش يهب من الشرق، والنحل ينســـاب بـــين الأشجار سحابات صغيرة تائهة، الحرارة تنبئ برذاذ خفيف وشيك، أمـــا العصافير وصغار الطير فتندس بين الأغصان لائذة بفيء ظليل..

يكون حينئذ قد قطع الحقول جيئة وذهاباً، فلا ينتبه إلا وقد رجع إلى مكانه ينظر إلى الأرض تحت أشجار السرول العتيقة قد تناثرت فوقها الأوراق الجافة وحبات القمح والأغصان الصغيرة، ثم ينكفئ على نفســـه يعانق ركبتيه مثل رضيع.. وينام.

طاردها في الحقول، خلف البئر القديم. أرســـل إليهـــا طاقـــات الياسمين، بعث توتا وخوخا وكمثرى..

الشيخ والجرو والصبية..!

طاردها في كل وقت، وزرنيخ كان حاضرا في كل مكان..

عدا مرة.. كان الحر قد اشتد بعد الظهر وتصببت الأبدان عرقا. وجد زرنيخ الحوض العتيق قد امتلأ ماء، نزل يتبرد، سبح مثلما لم يسبح قط، انتفض في الماء فأزال غبار الطريق وأخذته النشوة..

وكان راجحا قد حاصر فاطمة خلف البئر قرب شجرة التوت، وأمسك عصاه في صلف واستعطاف، ورمقها بنظرة ظفر وقال في توسل كالعواء:

- فيم الهروب!؟

لم تصرخ، لم تنهره لم تدع أحدا، لم تهتف في الريح والقيظ: «زرنيخ!».. إنما أسبلت أهدابها وقد تضرج وجهها وما انكشف من عنقها وأعلى صدرها، ثم همست كمن يغالب حملا ثقيلا يعلم ألا مفر منه، كمن يغالب نفسه قبل التسليم:

- اتركني..

لم يتقدم راجح قيد خطوة واحدة، دار حول نفسه، أصابه حياء لا عهد له به، غلبه الانفعال وأطرق لحظة، ثم أفلت بين الظلال لا يلتفت..

هب زرنيخ من الحوض، تناثر حوله الماء في الهواء، لمح العجوز يتوارى بعيدا، لكنه خمن في عيني الصبية تسليما لم يعهده!

عاد إلى الضيعة هادئا ساكنا لا يهز ذنبه القصير ولا يحرك أذنيه ولا يدفع الهواء بخياشيمه!

كان الليل خافت القمر بديع النسمات.. وكان زرنيخ مقعيا في صمت وقد أخذته إغفاءة خفيفة، لكن أذنيه ظلتا قائمتين تتشربان حفيف الأغضان وأصوات الريف المكتومة وهسيس الريح في السنابل.. بدت الطبيعة منصتة إلى هديل يمامها وصهيل جيادها البعيدة.

فجأة، ينتفض الجرو كالملسوع!

بدا ظهره مثل قوس مشدودة، وبدت ساقاه مضمومتين إلى بطنه، أما عيناه فمثل جمرتين في كوم من الكستناء المشوية، ثم شرج في نباح كالنحيب، وقفز في الفضاء يكاد يطير..!

لم ير الصبية تغتسل في ضوء القمر، لم يلمح العجوز ينفض التراب عن ردائه الوبري الأصهب.. ولم ينصت إلى حفيف أوراق التوت تتساقط في الماء واحدة بعد أخرى.. لكنه أحس أنه اليوم يذبح مرتين.

كان يشعر بنصل الفأس والعصا الغليظة تنهالان عليه ترضان جسمه الصغير، وكاد يري رأسه تنفصل عن عنقه.. ونثار دم متخثر يلطخ التراب والصخرة البيضاء!

تألقت عيناه الخضراوان في لون الفستق المقشر، وقفز في الفضاء مرة ثانية. فتلقفه الحوض الأثري القديم، وغاص في الماء..

قال العجوز يسأل فا.. خلف التوتة العارية:

– أهو يسبح أم يغتسل؟!

لم يطف الجرو.. واكتفت الصبية بالنظر في الليل والصمت، وهي تغطي ركبتيها بطرف ثوبها، وتنفض القش عن خصلاتها المسدلة..[1]

[1] – من مجموعة «سهل الغرباء»

الشيخ والحسناء

بوراوي عجينة

في لحظة من لحظات أنسه القليلة التي تخترق حياته المتعبة، جلس مواجها شاشته الصغيرة، وبيده سيجارة ثخينة، وبالأخرى فنجان شاي معطر، كانت أعدته له الحليلة، قبل أن تغادر البيت وترافق الأولاد الأربعة إلى سوق المدينة، في رحلة مضنية، بحثا عما رخص ثمنه من ملابس جديدة وأدوات مدرسية.

ارتشف رشفات متباعدة، ونفث أنفاسا طويلة، وسعل مرات متهيئا لعرض أدوات إصلاح الأحذية أمام بيته.

إنها لفترة ممتعة لا يستهان بها، يرتاح فيها من عناء الحراسة في المصنع ومن وجوه الصغار الأشقياء، قبل أن يستأنف عملا آخر.

نهض من متكئه، وفتح جهاز التلفاز، لعله يعثر على ما يتسلى به في أواخر تلك الظهيرة، لم ترق له برامج الصغار الصاخبة، إذ يكفيه ما يعاني في البيت من صخب حاد وعراك لا ينقطع وضجيج يصم الآذان.

ماذا يحدث لو بحث عن محطة إرسال جديدة، في هذا اليوم الخريفي القائظ الذي تنضج فيه التمور؟ وما الضررر من المحاولة وإعادهما؟

حرك الأزرار عبثا، ثم حول الهوائي المعلق في النافذة، ثم أخذ يلهو بالأزرار ثانية، يمنة ويسرة، وأطال العبث بها.. من يدري؟ اعترضته محطات مشوشة، وأخرى معطلة الأصوات وغيرها متداخلة الخطوط غائمة الأشكال، تتعب الناظر إليها حتى كاد ييأس من ملاحقتها.

وفجأة انتصبت أمام عينيه محطة أجنبية، ناصعة الصور، صافية كالزيت، زاهية الألوان كأنها المروج الخضراء بهية الأشكال، تكاد الوجوه منها تفيض وتنطق بالحياة.

ارتشفت ثمالة الفنجان، ونفث ما تبقى من عقب السيجارة، وهيأ النفس لتنتبه أكثر إلى ما يعرض أمامها من أحوال وألوان.

وتلاحقت، أمام ناظريه المشدوهين مشاهد لم يكن ألفها، بلغة غريبة وبأنغام ممتعة: سيارة جذابة تعدو في حدائق غناء ببطء ثم بسرعة في دروب جبلية صعبة يقودها شاب وسيم، ترافقه حسناء تأخذ الألباب تحيط رقبتها بمنديل أحمر. تنكشف السيارة من عدة جوانب، مبرزة مفاتنها ومحاسنها وألقها. أين هذه الآلة الجديدة من حافلات الضاحية المتعبة أو سيارات الأجرة المزدحمة كامل النهار؟!

ثم لاحت ألوان من المياه المعدنية العذبة والمثلجات المغرية والجبن الأصفر الطري والأطعمة التي يسيل لها اللعاب، وتلمظ لها الشيخ متحسرا.

الصور تمر متلاحقة سريعة، وفتيات نحيفات ما فتئن يعبرن الشاشة الصغيرة أمامه ماشيات، قافزات، جاريات، في ثياب رقيقة مغرية شبه عاريات، وتكاد الأنفاس تحتبس في الحلق وتتوقف.. مادام مني النفس بالإقبال على تلك المأكولات والمشروبات، ولو مرة واحدة على سبيل التذوق، كم مرة رد جماح أطفاله المطالبين بأحدية ذات تسمية معينة وملابس ممضاة مستوردة وألبان بعينها! ما الحيلة والأعمال كاد تقصم ظهره في المصنع؟ والسويعات التي يقضيها أمام البيت مصلحا الأحذية تكاد لا تكفي دريهماها لمواجهة متاعب الحياة وتلبية حاجيات الأطفال المتزايدة؟

لكم ضحى هو وحليلته في هذه الر فقة الطويلة! المهم أن يبدو أولاده في المدرسة والحي والشارع في أفضل مظهر ممكن. المسكينة لم تعد تكترث بهيئتها، كما كانت في عقدها الأول من الزواج وهما بلا أولاد أو بعد عقود أخرى من الزمن كانت كلها متاعب. لا تراها العين إلا منحنية الظهر، منكبة على تنظيف البيت أو إعداد الطعام، أو غسيل الثياب، شعرها مشوش ملفوف في جورب نسائي قديم، ولسانها لا يتوقف عن الشكوي واللوم والتأنيب، ووجهها شاحب حزين، وجسدها ما انفك يتهدل مع مرور الأيام ويتضخم من بعض الجوانب تضخما لا تستسيغه

العين، لا تصلح من شأنها إلا قبيل الخروج من البيت لقضاء بعض الشئون. شتان بين هؤلاء الشابات المتعطرات وتلك الكهلة المتصببة عرقا الآن في أحد دروب المدينة!

يا له من عالم ساحر هذا المعروض أمامه! زوارق تعبر البحار فيها حسناوات كحوريات الجنة وغلال ناضجة وأقدام تتسلق الجبال بأحذية متينة، وأفواه ظامئة تنهل من كؤوس مترعة ماء معدنيا أو ترتشف شرابا لا يعرف له مذاقا في حفلات أنيقة راقصة، وأنواع عديدة من البضائع لا تخطر على البال قد تحلم النفس بشرائها يوما وقد لا تحلم.

لقد أراد التخفيف من سأم يومه، فرذا بنفسه تطمع وتقطع عقالها وتمرح متشهية، تود أن تقبل – وإن على سبيل الخيال– على متع ثمينة رفيعة، بعيدة المنال لا يقدر عليها إلا عليه القوم.. استرخى في متكئه، متحسرا، مهزوما، يتأفف من قسوة الدهر وعثراته، وتابع عرض مشاهد أخرى.. لفت انتباهه فتاة حسناء مسترخية في فراشها صباحا، تحتضن قطة أنيقة، ناعمة الملمس، أخذت الحسناء وقطتها تتثاءبان وتتمطيان، إعلانا عن إشراف ضحى جديد، غادرتا الفراش، متثاقلتين، أزاحت الفتاة بأصابع ناعمة الستائر فانتشر النور وعم كامل الغرفة، بينما كانت القطة تتمسح على أقدام سيدتها. حظوظ هي الدنيا تقبل على من تشاء وتنفر ممن تشاء! حسد الحيوان الأليف على مجاورته سيدة بمثل هذا الجمال. تعيش القطط في رؤوس المجانين!

ثم دلفت الحسناء– وقد خلعت منامتها– إلى غرفة استحمام ذات حاجز شفاف. أيقظت فيه شهوة كانت غافية في مكمنها بتقاطيع جسدها وأطرافها المتحركة المغرية، وزاد الماء المنسكب على رأسها وكتفيها في تحريك سواكنه.

نهض من متكئه واعتدل في جلسته، حتى يستطيع متابعة المشهد بوضوح أكثر، وأشار بيده إلى الشاشة الصغيرة الفاتنة كأنه يريد أن يلمسها أو يخترقها بأصابعها.

لاحظ أخرى وهو يرقبها تخرج من غرفة الاستحمام عارية وعلى رأسها منشفة، ثم تلقي بها جانبا، لتلبس أمام ناظريه فستانا أحمر. تلمظ، ابتلع ريقه، تنفس بعمق، شهق وكاد يختنق بريقه، ما أشد ظلم الطبيعة! تجود على بعضهن بسخاء بينما تحرم أخريات من أدنى حظوظ الجمال!

تمططت القطة ماسحة رأسها بقدم الغانية، كأنها تنتظر أمرا، فالتفتت إليها يد كريمة تداعبها، ثم اتجهت إلى رفّ ففتحته، وإذا بالداخل علب متجاورة. أخذت إحداها وفتحتها، ووضعت ما بداخلها في صحن عميق. إنها كتل متراصة مستديرة من اللحم، ود أن يقبل عليها مكان القطة التي انهمكت في أكلها أمام عينيه، وأن ينقض عليها.

اللحوم في الأسواق معروضة كامل أيام الأسبوع لكنه لا يقدر أن يشتري منها إلا مرات معدودة كل شهر، ولا يقدر إلا على الأنواع الرخيصة منها. ذلك قدره وقدر أمثاله!

انتصب واقفا في مكانه، خطا خطوتين نحو الشاشة، مد يده ليمنع القطة من متابعة الأكل، ويستأثر باللحم عوضا عنها، هز الحيوان مكشرا عن أنيابه، مبرزا مخالبه متهيئا للمصارعة.. استغرب حين ألف يده تخترق سطح الشاشة وتنقض على ما تبقى من كتل اللحم وتنحيها عن الخصم المدلل وتفتكها منه غير عابئة بما نالها من بعض الخدوش.

وألقى كتل اللحم المفروم أمامه، أخذ الأولى، رماها في فمه مضغها ابتلعها، وجد طعمها غير مألوف، هل هو لحم بقر أم ديك رومي أم خنزير أم حيوانات أخرى؟ ما يهمه من كل ذلك! وألقى في فمه لقمة ثانية استساغها هذه المرة، ولعله اعتاد طعمها فألفها. وقبع على الأرض، متناسيا ما يجري أمامه على الشاشة من أحداث وواصل أكل ما تبقى في الصحن حتى أفرغه... إنه محظوظ هذا اليوم مرتين: إذ إنه استمتع مرة بصورة جذابة، وأخرى بطعام لذيذ لم يكن يخطر على باله أبدا.

استلقى على الحشية الأرضية متجشئا، هانئ البال، متلمظا. ثم التفت إلى الشاشة، فرأي القطة مكشرة عن أنيابها غاضبة همّ بالهجوم عليه منتظرة أمرا من سيدهّا التي كشفت هي أيضا عن نواجذها، ورسمت على وجهها محل البسمة تكشيرة حادة.

احتار، وظل مبهوتا لا يدري ما يفعل، غير قادر على الحراك، واخترق جسد الأنثي – الذي يلبس حذاء ذا كعب عال– سطح الشاشة ذا الملمس الناعم. خطا خطوات ثابتة مقتربا منه رويدا رويدا. تغير إيقاع كعبها – حين اخترقت وقطتها الشاشة– واقتحمتا عليه خلوته.

يا للمفاجآت المتعاقبة! هل جنّ هذه الظهيرة أم أنه يهذي هذيان محموما؟ هل يطمع أن ينال من الحسناء أيضا ما تشتهي نفسه؟ وأطرد هذه الفكرة المستحيلة من ذهنه إذ إن هيئة المرأة الغاضبة لم تكن تنبئ بذلك أبدا.

وصلت المرأة إلى مستوى جسده والقطة تسير خلفها وبجوارها خطوة خطوة، ورويدا رويدا، رفعت الحسناء قدمها عن أرضية غرفته رآها مشرفة عليه، غاضبة، قاسية الملامح، ولامس مسمار كعبها العالي عنقه.. لبث برهة واطئا عليه، انتقل إلى صدره ثم إلى الجهة اليسرى منه.. انغمس الكعب العالي بقوة مخترقا اللحم والعظم خنجرا حادا أصاب مقتلا بدقة عجيبة، وارتمت القطة على وجهه خدشا وعضا وعواء.

أذهلته المفاجأة، ولفته سحابات ضبابية مؤلمة، وهالة نزيف دمائه وأنفاسه.. بينما تتابع الطرق على باب بيته كان هو يتخبط وخيط أحمر يسيل من صدره في اتجاه الباب.[1]

---

[1] – من مجموعة «خفايا الزمان».

حكاية الأسوار

حفيظة قارة يبان «بنت البحر»

تراقصت أضواء الشموع والمصابيح وهفهفت الستائر المخملية على النوافذ الواسعة المفتوحة لليل الساكن. وبدت النباتات الخضراء الغضة من الخارج تداعب الجدران الصقيلة والأثاث الفاخر. وانبعثت موسيقى هازجة من الأركان.

ابتسم الأهل وهم يشاهدون من دورهم البعيدة الواطئة دار القاضي الجديدة الشامخة على الربوة تتلألأ أضواء وبهجة وأنسا، وتبعث إليهم بنغمات الفرح الراقصة. لقد انتهت أخيرا أشغال بناء بيت القاضي. وها هو يفتتح أيامه السعيدة به، وسيتفرغ الآن لهموم السكان ومشاكلهم، ويبسط على وجه مدينتهم راحة العدل والأمن والسلام.

طالت ليلة الأنس، وتعب سكان المدينة من الفرجة المخطوفة من بعيدة وأخذهم النوم. وظلت أضواء الحديقة المزهرة تلاعب ماء النافورة حتى الفجر، وتنير وجوه الضيوف الأعيان بألوان قوس قزح، وبريق العيون المعجبة يتلون مع كل طعام أو شراب شهي ونادر يحل.

حين اشتعلت الشمس في كبد السماء، غرق السكان في مشاغلهم ونسوا ليلتهم، ولكنهم في آخر النهار لاحظوا أن أضواء بيت قاضيهم مازالت مطفأة، والقوم مازالوا نياما وبدا لهم السور عاليا شاهقا. وتساءلوا: كيف انسكبت عليهم منه الأضواء الليلة الماضية حتى بدا متلألئا كقصر من نار.

ومن جديد عادت الأيام تبتلعهم، والمدينة تضيق بهم، والمشاغل والخصومات تكسر عزمهم وتخنق أنفاسهم. وأنضاف هم جديد يختطف كلما ناموا أو غفلوا أو انشغلوا دوابهم وحتى أطفالهم، يأكل لحمها ويترك العظام وأحيانا يحلو له أن يمزقها ويترك أشلاءها المدماة وقد تخثر دمها، مهملة للكلاب السائبة، فتكمل تشريحها وتنهش بقاياها. وانتشر الخوف والتوجس، وتكاثر الضحايا، وهاجت المدينة وماجت، خاصة والقادم المجهول لا يلمس الديار، ولا يسرق ذهبا ولا فضة ولا مالا، ولا يأتي إلا على المنطلقين في الطرقات والأنهج والحقول من الضعاف، وتتالت الأحداث سريعة في الليل وفي وضح النهار. وساد الخوف والرعب، فاجتمع الأهالي وتعالت الأصوات واختلفت الآراء حول سبل الإنقاذ. وأخيرا قرر السكان اللجوء إلى مركز قوتهم الوحيد وأملهم الفريد.

تجمع الشيوخ والرجال والقلوب راجفة والعيون شاخصة،وارتفعت أنظار الرجاء إلى قلعة النور حيث انتصب القاضي للسكن والقضاء، وومض الأمل، وكادت تشرق السماء.

ولكن قطع فجأة الرجاء، وانكسر الأمل، فقد منعوا من الدخول إذ فوجئوا بالعمال والبنائين كالنمل، حول الدار ومعلقين على الأسوار، ويزرعونها بقطع زجاج القوارير المهشمة جمعوها في سرية تامة من داخل المدينة وأحوازها، واختاروها حادة قاطعة ذابحة حتى لمن يحاول لمسها.

وظلوا أياما يمنعون الدخول حتى انتهاء الأشغال. وتساءل السكان مبهوتين: ماذا حدث لدار القضاء؟

لما أكمل البناؤون عمهلم، وتجدد رجاء السكان، وعادوا يجمعون كبارهم لتقديم شكواهم، تناهي إلى سمع المدينة نباح كلاب شرسة تبعث الوحشية والرعب في النفوس، فقد أمر القاضي بكلاب ضخمة الجثة مدربة سوداء تحرس الدار النعزلة البعيدة، يسيل لعابها ساما أسود كلما شاهدت غريبا، وتقدح عيونها شررا حارقا، وتثني ذيولها القوية السوداء كالثعابين حول من تريد فتعتصره وتزهق روحه في ثوان قليلة.

وجم القوم وأخذهم الزهول. ثم أيقظهم من ذهولهم ما هم فيه، فأخذوا يتساءلون عن الأسباب، وقد اعتادوا مقابلة قاضيهم يوم الجمعة من كل أسبوع يقدمون الشكاوي وتفض بينهم المشاكل والخصومات، فما الذي جرى؟.. وما الذي منع الاستماع إلى ما أصابهم؟ وماذا حل بالدار ليقام ما يقام؟ وكثر الكلام والأقاويل.

«أيكون بلغة النبأ الخطير، فأخذ يعد له العدة وبدأ بالهضبة المشرفة على المدينة حتى يبعث الرهبة في القادم المجهول، فيخشى الهجوم ويبتعد

عن مدينتهم، ويأمن الأهالي على أولادهم ودوابهم؟..» وضجت المدينة، همسا أولا، ثم جهرا وعلانية والأخبار تتواتر معلنة حقيقة الأسباب، والجماعات تتوقف في الشوارع، والأفواه تنفتح دهشة لآخر الأخبار، والمنفصلة تماما عما يحدث من هول بين الديار.

– لقد اقتحم بيت القاضي!

– .. بل سرق بيت قاضينا.

– ألا يكون الجاني هو المفترس المجهول؟

– غير ممكن! فهذا لم يأكل ولو دجاجة صغيرة، بل اكتفى بحفر الجدار.

واستنكر بعضهم:

– ومن الذي تجرأ على الكلاب الضخمة والأسوار العالية والزجاج المسكر الذابح المزروع على كل الأسوار؟

وابتسم بعضهم وهو يؤكدون:

– لقد تسلل بعض الأشرار إلى الحديقة. لم يسرقوا شيئا. فقط أحدثوا ثقبا في الجدار.

سادت حالة التوتر. وأرجئت كل المقابلات واعتزل القاضي مفكرا في مقتحم أسواره.. وفي المدينة، ظلل الخوف الديار، وعزف

السكان عن أشغالهم، ولجؤوا إلى دورهم مغلقين الأبواب خشية المفترس المجهول في غياب الحراس المسلحين المنشغلين بحال دار القضاء.

وتعالى بكاء الأطفال المحبوسين وصراخهم المكتوم.

وظللت الكآبة الشوارع الخالية. ونقصت الأغذية في الدكاكين. وجفت الخضر في الحقول والبساتين، وأجدبت المزارع. وهزلت الأغنام والدواب واصفرت الوجوه، وتتالت الأيام ثقيلة غائمة منقبضة. ونعق البوم مع الرياح على السطوح.

أما على الربوة، فقد ظل البناؤون كلما سدوا ثقبا إلا ووجدوا في الأيام الموالية ثقبا آخر في أحد الأسوار يكاد ينفذ إلى دار القضاء.

ومازال قاضي المدينة يوقف الأشرار، ويسوطهم أسى العقاب. أصبح يوقف حتى المجانين والزهاد والخائفين والأطفال الباقين، عله يظفر بمجرم واحد يعترف بالحادثة الخطيرة المتكررة للزسوار، دون جدوى. وتحول جلّ سكان المدينة متهمين.. ضاقت قاعة التحقيق عن احتوائهم. ضاق السجن ضاقت المحكمة. فكر القاضي وفكر. ثم أمر بوضع الأبواق في شوارع المدينة. وأرسل المنادي معلن:

«الأراضي المتروكة حول المدينة، الخضراء والمجدبة.

المهملة للكلاب السائبة والرعاع..

والمشردين القادمين من الآفاق المجهولة..

ستتحول لجلالة المحكمة.. للفائدة العامة..

ونشر العدل والطمأنينة..

وقطع دابر اللصوص والسراق».

وتساءل السكان، وبعض أمل يعود:

– أعلم قاضي المدينة بحكاية المفترس المجهول، بعد أن صدوا عن إبلاغه؟ وهل قصد ذلك في البلاغ؟

ورغم الأميال والأميال التي أضيفت لدار القضاء التي أقيمت حولها الأسوار، لتجميع المناوئين والظلام واللصوص والمتهمين، لم يكفهم المكان..ومرت الأيام، وتتالت الشهور، وتعبت الليالي، فرحل القمر والنجوم، واختفي تماما بكاء الأطفال، وبدا مترل القاضي المدجج بالحراس قلعة متوهجة تشتعل في ظلمة الليل. ولكن.. اختفت المدينة، وظل سور قلعة القاضي دوما.. مثقوبا.[1]

[1] – من مجموعة «في ظلمة النور».

تداعيات أحمد العربي

أبوبكر العيادي

حين يتحلل الموج الغسقي الكثيف، المتدفق شلالات عبر أفق مسدود بالمكعبات الأسمنتية، ويزحف النشار الأسود القاسي، تشتعل الذاكرة الليلية بتلك الوجوه القبيحة، وتضيق الأصوات المدججة بالحقد الدفين، وتتناثر القهقهات في الدهاليز المظلمة، على تلك الهياكل العظمية الزاحفة تحت فرقعة السياط وشحنات التيار الكهربائي.

كان صوت الثأر يصخب في داخلي. وأنا أحدق في ظلمة الليل التي جثمت على المدينة كالقدر المحتوم. كانت تتدفق بكثافة فيزداد سمكها نموا واتساعا، وازداد توهجا مأخوذا بسحر هذا الرفيق الذي يحجبني عن العيون، وسط هذه الحضيرة المهجورة، رغم لفح البرد وألسنة الريح.

في مثل هذا الوقت من كل ليلة يستفز ذاكرتي أولئك النابتون في أعماقي كالأعشاب البرية، فتمور في داخلي رغبات دفينة، وانطلق لأفجر لحظات مسيجة بالذعر، وأهبط على من يسوقه القدر في طريقي كالفاجعة، ثم أعود مسكونا بنهم متجدد، متسللا عبر الأنهج المتربة

الضيقة والأزقة الملتوية، وأتدثر بمثله، وأظل أرقب الموت المتربص حتى الصباح، لا أغمض سوى عين واحدة.

في ذلك الصباح، حلقت ذقني وصففت شعري، وانطلقت أدندن بأغنية حب خفيفة. كان الجو رائعا لا يوحي بغير الحب والأمل، ولم أكن أدري أن ذئابا مخيفة تترصدني حتى لحقت بي سيارة ضخمة. عوت فراملها عند الوقوف، فتقيأت رجالا أشداء، هبوا نحوي وبيد كل واحد منهم أحبولة لصيد الحيوانات السائبة، وسرعان ما انزردت إحداها حول جسمي وكبلت حركتي، فارتموا علي وألقوا بي في مؤخرة السيارة وهم يلغطون بكلام لم أفهم منه شيئا. كانت أصواتا شبيهة بالدمدمة أو الزمجرة التي يأتيها الإنسان إثر عمل يقرفه.

ألجمتني المفاجأة فلم أقو على فعل شيء. حتى لساني تيبس، وجف حلقي، وهمدت أطرافي، وأنا أرى أبصارا زائفة، ووجوها شاحبة، وأجسادا ممتكومة، وتخشبت حركتها وانهارت إرادتها، تلفت حولي في ذهول أبحث عن أثر لأي حقيقة، ولكن لا أثر للحقيقة في تلك العيون السامدة. نفضت الغبار عن بذلتي التي كلفتني الكثير، وآلمني خرق اعتور السترة، فتوعدت – في سري– الفاعل بأشياء رهيبة، ولكن الوجوه المذعورة أعادتني إلى بلواي، وتساءلت حتى رانت على رأسي الثقيل غيمة من الاحتمالات: لا شك أن في الأمر لبسا، فليس لي علاقة لا من قريب ولا من بعيد بكل ما يمكن أن يقودني إلى هذا المواقف. وحيدا

أعيش، فمن ذا الذي يستطيب الإساءة لي، وكل الحقوق تنازلت عنها، ولم أتأخر عن الواجبات.

وهذي الأحابيل أعادتني إلى عهد كنا نجري فيه حفاة، وفي الأيدي حجارة نرمي بها الكلاب السائبة، ونسد أمامها المنافذ ليلتقطها أعوان البلدية في شراكهم. غريب! شراك وأحابيل وسيارة للكلاب! غريب!

أذكر أن صديقا لي يوما: «لا تأمن صروف الدهر فواقعنا اليوم غريب غامض»، فأجبته بأني واضح مع الناس ومع نفسي.

واضح أنا! أعرف اليوم ما أريد. أمضي إلى حيث ألقاهم فأنهش لحم من تقوده رجلاه إلى الدروب الموحشة فأنقض ككتلة من الغيظ والغضب تنشر الرعب في القلوب، كوحش مندفع جامح يبغي القضاء، وأضحك من شدة الخوف الذي ينتابهم.

كان الليل يتكدس حولي، ويتكدس معه البرد مرفوقا بهبات تجيئني بروائح مياه آسنة تزكم الأنف، وعاد الثأر يدمدم داخلي وأنا أذكر روائح الزنزانة خلال تلك الأيام العصيبة.

كانت أخلاطا دبقة من روائح عرق ورطوبة وبول وغائط وقيء انحشرت فيها الأجساد تباعا، فسقتها بما شاءت وما لم تشأ. عشنا معا لحظات الموت وخبرنا جوهر الخوف. الخوف؟ لم أشعر به في حياتي إلا حين أحضروني بين يدي ضابط عظيم الجثة، وحوله مجموعة من الرجال ترتجف لرؤيتهم فرائص الموتى. كل ما فيهم مبالغ فيه: الطول والضخامة

والصلابة والقبح. سألني عن اسمي ونعتي وسني ولم يترك شيئا إلا سأل عنه، وأنا ماثل أمامه على أربع وفي عنقي رسن كالحمار. وكانت بأيدي الرجال سياط لها في النفس وقع رهيب، خصوصا إذا ما انثنت في الفضاء تنذر بالويل كلما ضاع مني الكلام.

اخترقني بعينيه الصقريتين. كان ذا وجه لا أثر لأي تعبير فيه وجد صلب قاطع كحد الساطور. قال:

– أنت كلب. أنت كلب سائب.

قبلت الإهانة على مضض، وقلت في نفسي: إذا كان هذا كل ما في الأمر فأنا ستين كلبا ابن كلب. المهم أن أغادر هذا المكان المرعب. قرأت في بعض المناسبات عن مثل هذه الأماكن، وشاهدتها في أفلام كثيرة، ولكن لم أكن أعرف أن لنا منها، تماما مثل البلدان المتقدمة.

أضاف الضابط:

– سنحتجزك، فقد تكون مسعورا، وفي ذلك خطر على الناس، لم أفهم بالضبط ما عناه، فقلت معترضا:

– سيدي، أنا إنسان.

– بل أنت كلب.

– اسمي أحمد.. أحمد العربي.. هل تسمي الكلاب بهذا الاسم؟

– الاسم اصطلاح.. يمكن أن نطلق على الكلاب ما نشاء.

نظرت حولي أرجو مساعدة، ولكن الجمر المتقد في وجوه تلك الدواليب المرمرية صدني خائبا.

قلت والغصة تسد حلقي:

– سيدي.. أنا إنسان.. مثلك.. مثلكم جم..

فقاطعني بحدة:

– اخرس!

وانهالت على جسمي السياط، وامتدت يد تجذب الرسن فتضيق أنفاسي، ويتدلى لساني. وحين أعاد:

– أنت كلب.. فهمت؟

خنست، وخيل إلى لحظات أني رأيت بأطرافي العارية مخالب حادة. تلمست مؤخرتي وقد انغرزت فيها سكاكين الألم، وقلت:

– سيدي.. ليس لي ذيل.

فأجاب ببرود:

– أنت من فصيلة مقطوعة الذيل، غريبة عن هذه الديار.

– لقد ولدت هنا، وكذلك أبي وجدي.. اقرؤوا الأوراق التي أخذتموها مني..

التفت إلى رجاله وهو يقول:

– وهل للكلاب هوية؟

فتحركت السياط تفعل فعلها الرهيب، والأصوات تقرع سمعي: «كلب! كلب! كلب!» مشفوعة بالبصاق. تلبسني الهلع ورحت أتحسس جسمي.

صرخت بكل ما تبقى لدي من قوة وقد انطرحت أرضا أنزف قهرا ودما ودموعا:

– لكنني أتكلم.. هل تتكلم الكلاب؟ هل تتكلم الكلاب؟

وانخرطت في تشنج هستيري، أضرب الأرض بيدي وأمزق شعري. وقبل أن يغمى على جاء صوت الضابط الطرق العنيف المتواتر:

– بل نحن الذين نفهم لغة الكلاب.

وحين أفقت وجدت نفسي طريحا بزنزانة معتمة وسط جماعة تمش بعض عظام نيئة، وتهر هريرا خافتا. انتبه إلى أحدهم فارتمى كل واحد على عظمة وابتعد بعجالة مرتبكة، يحبو على أربع، ليتزوي في ناحية من الزنزانة، وينكمش إزاء الجدار، ويدفن رأسه في صدره مرتجفا.

وقبل أن أدرك أن لكل واحد منهم عقدا حديديا حول رقبته، ارتطمت ذقني بشيء صلب.

تحسسته فإذا بي لا أختلف عنهم. كانوا عراة لا يستر أجسامهم شيء. نهضت مترنحا حتى بلغت عنهم باب الزنزانة. تعلقت بقضبان الكوة حتى لا أقع، وصرخت:

– أنا لست كلبا..

فرددت جنبات الدهليز الضيق صداه:

– أنا إنسان.. سان.. سان.. سان.

وظللت على تلك الحال، أصرخ حينا، واسترد أنفاسي حينا حتى تناهى إلى سمعي وقع أقدم مسرعة، وانفتح باب الزنزانة فجأة، وانهالت على السياط المزودة بشحنات كهربائية تمزق أوصالي. طويت جذعي، وعيناي صوب الرجال الذين بدت قاماتهم كالأشباح المرعبة، تتوجسان أن يخرقني الموت في أية لحظة، وأنا أتحسس انتفاضات قلبي المتلاحقة. تضببت الرؤية أمامي، وغزت وجهي خيوط رقيقة انحدرت حتى شفتي. التحم خذي بالأرض الملساء الباردة، وانفجرت في أذني نباح بدا عاليا، ثم صار يخفت وينقطع حتى انقطع تماما، وتبعه صوت جامد.

المدينة هاجدة في هذا الليل الصامت. كانت عيناي مشدودتين إلى الأفق المسدود ترمقان البنايات المنتفشة. الساعة أزفت لأصلب غلي، وأقذف باللهيب المستعر داخل نفسي. الليل كثيف والهواء بارد يوقظ في

كل الحواس فتتضخم الهسهسة ويكبر الوشيش، لا يقطعه سوى أزيز محركات بعض السيارات الساهرة، الذي يتناهى مرتجفا أكمد. السكون يخيم على البيوت الموصدة والأنهج خرس تنتظر أن أبعث فيها الحياة.

كل الذين أوجعوني لم أزل أكرهم. لم أستطع أن أتخلص من تلك الصور البشعة، وهي تقودني إلى ذلك المكان الخانق الذي صدمني بروائح شتى تجعل الأنف في حالة عطاس مستمر. كان عليهم أن يسووني بغيري فأنبح وأكر وأهر. وكان على أن أقاوم. وإثر كل نوبة يفقد رأسي تركيزه وتحتل وشوشة غريبة مسمعي، فيتسلل الخوف إلى، وأخشي أن ينفد الزاد مني، ولكن هاجسا بداخلي يهتف بي أني مادمت أعي هذه الأحداث فلا خوف عليّ.

تنتقص بداخلي كل الأحزان حين أذكر ضروب العذاب التي ذقتها بعد عزلي. أصب بذهول، واستحالت أمامي ظلمة داكنة وصرخت: «من لي بمنقذ ينقذني؟» قل لي أحدهم يوما: «خلاصك حين تثبت أنك لست كلبا، ولكنك لن تفلح، وستفعل كل شيء لكي لا تفلح».

اختض جسدي بارتباك، وانهرت يرجمني النحيب، ولكني لم أستسلم لم أكن أرهب الموت، ولكني أخاف أن يفلحوا في تحويلي إلى كلب حين تنتهي رحلة العذاب اليومية أجلس شارد الفكر يمور بداخلي مزيج من الألم والحقد، وتتملكني الرغبة في البكاء حين يجرفني الحنين إلى بيتي وصديقتي وزملائي، ولكن الدموع لا تستجيب، وفجأة التمعت في ذهني فكرة مثلما التمع في السماء وميض، لعله الربق. استغربت هذا

الخوف الذي تسلل إلى فجأة، وأنا الذي تحديت الخوف حتى في ذلك المكان الذي أخذوني إليه لوقف النزف والرعاية المستمرة تحت حراسة مشددة. لم أدر كم بقيت ولكن كانت تلك آخر محطة في رحلة الترويع.

حن عزلوني في الزنزانة الضيقة، جعلوا حارسا يتولي بعد التعذيب خدمتي، فيأتيني ببعض لحم نيئ وعظم وصحفة ماء، فأصيب من هذا الغذاء ما أقدر عليه، وأنا مُقع على مؤخرتي اتقاء الحارس وسوطه، صادفت عظما ناتئا، عالجته فجرحني تألمت ومسحت الدم النازف بكفي، وأشع في عيني ألق غريب. احتفظت بالجزء الناتئ من العظم حتى انصراف الحارس. وفي غيابه قطعت أوردة يدي اليسرى، وكتبت على الجدار بدمي النزف: «لست ك..» كنت أكتب بيد مرتجفة ونظراتي تحلق كطير مذعور، وشعرت بالرنح والغثيان والحمى وبرغبة في البكاء. كنت أقاوم الإعياء والإغماء لأنهي الحروف الباقية، لأثبت أني أكتب، وطالما أني أكتب فأنا إنسان، ولكني هويت أنزف دما وقهرا.

لم أدر كم استلزم علاجي. كل ما أعلمه أنني أقسمت بيني وبين نفسي أنني لن أعود إلى الزنزانة ولو تركت حياتي، حتى لاحت سيارة رابضة أمام المستشفى فاندفعت نحوها تحت زخات رصاص الحراس، فاهتز الفضاء بنوع من الوهج الغريب، وملأ صدري الصرخات الروعة الأرجاء. ارتميت خلف المقود وانطلقت بسرعة جنونية.

حين فتحت لي صديقتي الباب فاض وجهها بضياء مفاجئ، ثم ركزت عينيها علي بنظرة طافحة بالتوجس والريبة. لمحت أشياء- غير

الخوف– لم أستطع تحديدها بالضبط في عينيها وفي عيون كل من طرقت أبوابهم. كلب أنا في كل العيون!

وفي غبشة فجر يوم أسود ملعون، تركتهم وجئت إلى هذا الموقع الملغوم بالموت، أزرع الرعب وأنفث السم وأنهش اللحم وحتى العظام.

كلب أنا ! أتلفع بالليل والحقد العميق. فأمزق القلوب وما يجيش في القلوب. أمزقهم بالشظايا التي صنعوها، بالأنياب التي شحذوها، وأظل وحيدا أحن إلى لحظة دفء أو لمسة حب، ومطر يغسل الأدران ويعيدني إلى ذلك الصباح الندي المشرق.

خشخشة مفاجئة هتكت السكون فتصلبت عضلاتي وتوثبت أذناي. التمع الضوء من جديد، فتبدد الظلام لحظات، وبرزت هامات منفوشة تسيج المكان. نهضت والتصقت بالجدار أجوس الظلام وانتابني إحساس غامض، وأنا أتحرك متقهقرا جهة المنحدر المؤدي إلى الجبانة، بأنني سأسقط على الأرض في أية لحظة.

كنت وحدا أتطلع ورائي مذعورا، ثم أنطلق راكضا حين تدفق الضوء، وتوهجت الطلقات بشكل مكثف.[1]

[1] – من مجموعة «حكايات آخر الليل».

شهوة العين

ابتروا أحلامي كما تبترون الثعابين

«كاتب ياسين»

حسونة المصباحي

في البداية تماما..

في تلك البداية التي تتشكل الآن في ذاكرته مثل غيمة بنفسجية في فضاء الزمن، كانت هناك جبال عالية ترتفع غرب قريته ومنها كانت تأتي الغيوم والأمطار والعواصف الشديدة.

ومنها أيضا كان يترل رجال غلاظ عابسون على بغال رمادية ثقيلة الأجسام والحركة ليبيعوا أهله القطران وأدوية يصنعونها من نباتات وأعشاب تلك الجبال التي يسكنون. وكان كلما تمرد أو بكى أو غضب صاحت فيه أمه مهددة: «اسكت وإلا سوف أنادي الغرابة يقبضون روحك! وفي الحال تخترق ذهنه صورة أولئك الغرباء بملامحهم الشرسة، وبلحاهم الغبراء وبعيوهم المحمرة، وببغالهم البشعة. وعندئذ يضم فمه ويهدأ، بينما يظل قلبه يرتجف من الهلع.

لم يكن «الغرابة» (أي أهل الغرب- هكذا كان يسميهم أهل قريته)، يقتصرون على البيع والشراء، بل كانوا يتقنون أشياء أخرى كثيرة ومن حوله كان الناس يرددون أنهم يشفون من تلك الأمراض الخطيرة والغريبة، ويخصبون النساء العواقر، ويطردون الشياطين والجن والأرواح الشريرة من البيوت والأجساد، وينبئون بالغيب، ويحذرون من شر قريب أو بعيد، وينبهون إلى جار يكيد في الخفاء. أو إلى عدو لم تكن تراه العين ولا تسمع به الأذن، وأحيانا خاصة في أيام الشتاء الباردة، كانوا ينظمون حلقات للذكر تستمر حتى مطلع الفجر. وخلالها يضربون الدفوف وينشدون البردة ومدائح أخرى للرسول ولأولياء الله الصالحين. وحين يشتد بهم الوجد، كانوا يغمضون أعينهم، وتلين ملامحهم، وتتراقص لحاهم الكثيفة الغبراء، ويتيهون في عالم لا يدرك الناس كنهه، بينما تظل أصواتهم تتمايل في الليل مع الريح ودفوفهم تحت أيديهم الغليظة تتأوه ملتاعة. ثم حدث أن كان يلعب في الوحل مع صبية آخرين عقب سحابة خريف سريعة، وإذا بولد الكبلوطي، وهو صبي شرير، يعرج قليلا، ويلهث طول الوقت وكأنه على وشك الاختناق، يحدق فيه باستغراب وريبة وكأنه يراه لأول مرة، ثم يصيح عابس السحنة، جاحظ العينين، وسبابته الغليظة مصوبة كالسكين إلى بؤبؤ عينه اليسرى: «تعالوا يا أولاد! في عينه اليسرى كنز!» أحاطت به العيون، وظل هو مكانه يرتجف في كدرونه الملطخ بالوحل تحت سماء تتسابق فيها السحب مثلما تتسابق الخيول، «افتح عينيك جيدا!» صاحوا فيه جميعا. وفتحهما حتى رآهم بشعين وقصارا كأنهم ضفادع فاجأها جفاف المستنقع الذي تعيش

فيه. وعندئذ قال له ولد الكبلوطي بلهجة الكبار المدركين لأمور الدنيا والدين: «اسمع يا ولد.. في عينيك اليسرى كتر! ولو اكتشف الغرابة ذلك لذبحوك!»

وعندئذ بدأ ذلك الخوف الذي لم يعرف مثله قبل ذلك!

هبط الليل. وامتلأت القرية بأصوات الرعاة العائدين من المراعي، وبروائح الشياه المبللة بالمطر، وبلغط النسوة وهن يهيئن طعام العشاء. وانحشر هو في الركن القصي في البيت، وانكمش في كدرونه مثلما تنكمش الفئران المذعورة. وشيئا فشيئا خيل إليه أنه يسقط وسط دائرة سوداء لزجة كالقطران. ثم سمع ضجيجا شبيها بأصوات حوافر بغال ثقيلة تتسابق على أرض صلبة.

تكتك.. تكتك.. تكتك! ووسط ذلك الضجيج العنيف، اخترقت ذهنة أشباح «الغرابة» قاتمة، بشعة، منذرة بالويل، وفي لحظة ما أحاطوا به وأسنانهم إلى الأمام مثل الخنازير، وبسرعة الريح، حملوه إلى تلك الجبال العالية، ثم أشعلوا نيرانا امتد لهبها حتى لامس السماء. وراحوا يضربون الدفوف مهللين ومكبرين: دجتدق دق! تجتد قدق! تجتتد قدق! تشتقق! تشدق تشتق! وبعدئذ أخرجوا من أحزمتهم سكاكين بطول الذراع واندفعوا نحوه آه اآ اآ اآ اآ اآ آه !!

عندما فتح عينيه كانوا محيطين به: أمه وأبوه والأهل والجيران وكلهم كانوا يبسلمون . أجهش بالبكاء.

ولعدة ليال، ظل.. يرتجف محموما تحت الأغطية الثقيلة التي كدسوها فوقه. وبعد أن هدأت الحمي، واختفت الأشباح، وتلاشت الهواجس روي لأمه ما قاله ولد الكبلوطي، وفي الحال غشت وجهها سحابة أنفعال، ودون أن تتلفظ بكلمة، اندفعت إلى الباب، وخطفت هراوة غليظة كانت متكئة على الجدار وخرجت هائجة تصيح وتتوعد. وفي الحال حدثت جلبة في القرية بأسرها، ونبحت الكلاب. وقاق الدجاج. وأطلقت بعض النسوة شتائم ولعنات، وبكى أطفال. ثم عادت الأم منفوشة الشعر، وعلى فمها زبد الغيظ وبعد أن أعادت الهراوة إلى مكانها صاحت: «لقد هرب مني ابن الكلب! ولو مسكت به لكنت فصلت رأسه عن جمجمته! ثم لم تلبث أن حولت غضبها نحوه وصاحت فيه: «وأنت يا ولد يا مخنث.. لماذا تسمح لولد الكبلوطي الهامل الجوعان بأن يحولك إلى قرد أمام صبية القرية»!

في الليل، لانت قليلا. وخفق قلبها بذلك الحنان النادر والجميل كما خطاف، واقتربت منه. ثم قالت وهي تداعب شعره ووجهه: «ألا تعرف سر تلك اللطلخة الزرقاء في عينيك اليسرى؟»،

– لا!

– إنها شهوة.

– شهوة؟

– نعم يا ولدي.. ذات يوم وأنا حامل بك، اشتهيت أكل قطعة كبد مشوية.. وكان أبوك غائبا.. ومرت الأيام دون أن أنال ما أشتهي، وعندما ولدت كان قطعة الكبد المشوية التي اشتهيتها في عينك اليسرى؟

هدأ الليل من حوله، وتلامعت نجوم بعيدة في خياله، ود لو يخرج إلى الحقول، ويسرح في العتمة الباردة حتى الصباح متحديا أشباح «الغرابة» العابسين ببغالهم الرمادية، وبشطحاتهم الشريرة، وبسكاكينهم التي بطول الذراع، وأسنانهم المندفعة إلى الأمام مثل أسنان الخنازير.

ومن الغد خرج شاهرا رجولته، وعازما على أن يمرغ رأس ولد الكبلوطي في الوحل وجدهم هناك قرب زيتونة «منصور» مستنفرين ومكروبين مثل طيور البوم قبل انفجار العاصفة. وحالما رأوه أشاحوا بوجوههم ونفروا منه «من الأفضل لك أن تعود إلى حجر أمك!».

قال له ولد الكبلوطي معنفا وهو يدير ظهره المنحني قليلا.

عاد مهزوما إلى البيت. انحشر في الركن. وطول النهار ظل يمضغ وحدته وألمه.

ثم حط الشتاء ثقلا وموحشا مثل غول الخرافات، فتعتمت الدنيا، وتغشت تلك الجبال العالية قرب قريته بكتل من السحب الداكنة. وراحت الرياح تولول في الأحراش وفي بطون الأدوية، وهدرت الجمال هائجة، وامتلأ الفضاء بأصوات الرجال وهم يطاردون جيوش الزرازير التي إمتلأت بها السماء وحقول الزيتون. وضعت بقرهم السوداء عجلا

أحمر جميلا.. وأرسل أبوه في الليل وهو ملفوف في برنسه الأشخم تلك الأغاني التي تملأ نفسه شجنا لذيذا، وتظل تهدهده حتى يغرق في نوم عميق. غير أنه مع مرور الأيام أحس أن وحدته اتسعت وطالت وأقفرت من المفاجآت ومن المتع. وذات يوم عاد إليهم حابسا أنفاسه، وقدماه لا تكادان تلمسان الأرض. لم يشيحوا عنه بوجودهم، ولم ينهروه مثلما فعلوا في المرة السابقة، اندس بينهم في واحد من تلك الأماكن السرية التي يلجأون إليها هروبا من البرد ومن عيون الآباء. ومنفرج الساقين أمام النار التي أوقدوها، راح ولد الكبلوطي يروي حكايته العجيبة، وعيناه الصغيرتان ترفان طول الوقت ويداه القصيرتان تتحركان في الفضاء وكأنهما ترغبان في أن تضيفا على الكلام معان أخرى. وكان الآخرون ينصتون إليه بانتباه شديد تماما مثلما ينصت أهل قريته لخطبة الإمام يوم الجمعة :«اسمعوا يا أولاد.. أتعرفون من أين يأتي الغرابة؟! إنهم يأتون من بلاد لا تنقطع فيها العواصف والأمطار. بلاد سوداء قائمة مثلهم يجثم عليها شتاء أبدي. وهل تعرفون أين يسكنون؟! إنه يسكنون مغاور وكهوفا مثل الذئاب والأسود والثعابين وليس هناك من يضاهيهم في فن السحر والعزائم. وقد سمعت أن البعض منهم قادر بواسطة ذلك أن يحول المرأة أو الرجل إذا ما أراد الانتقام منها أو منه إلى كلب ينبح في الخلاء، أو إلى قط يعوي من الجوع، أو إلى قرد يضحك الناس في الأسواق العامة، ومثل هؤلاء الناس يجوبون الأرض طول العام بحثا عن الكنوز السرية. وحين يعثرون على من في عينيه علامة تدل عليها، يسحرونه، وفي رمشة عين يصبح ساهيا مذهولا لا يعي ولا يدرك. وعندئذ يشيرون

إليه بأن يتبعهم، فيفعل ذلك صاغرا طيعا، ويسير وراء بغالهم الرمادية الثقيلة غائب الذهن تماما. وحين يبتعدون به عن أهله، ويصلون إلى قمم تلك الجبال العالية، يوقدون نارا عظيمة وحولها يشرعون في الدوران ضاربين الدفوف، ومنشدين المدائح والأذكار، ويظلون هكذا حتى يبلغوا تلك الحالة التي يشعرون خلالها أنهم خفاف مثل الريش، وأنهم قادرون على حل الألغاز وكشف الأسرار، وعندئذ يحيطون بضحيتهم، ويذبحونها من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاه.. وفي اللحظة التي يتفجر فيها دمها، ينكشف لهم سر الكتر المخفي!.

يصمت ولد الكبلوطي. ويلتصق الصبية ببعضهم بعضا، وعيونهم تتلامع مع الهلع. وتئن الريح غاضبة، وتخبو النار. ثم يحل الليل مليئا بالأشباح والوساوس وتحت الأغطية الثقيلة تداهمه الحمى من جديد.

بعد ذلك أصبح يغمض عينيه كلما رأى غريبا، ويتحاشى السير وحيدا في المسارب والحقول، ويتجنب حكايات ولد الكبلوطي. ومرات عديدة بال في فراشه خوفا من أن يخرج وحيدا في الليل فيختطفه «الغرابة» ويذبحونه على قمم تلك الجبال العالية، وكانت الأشباح والوساوس تطارده طول الوقت. واشتدت به الحمى ذات يوم حتى كادت تفتك به، وحين شفي منها طافت به أمه في أضرحه الأولياء، وذبحت ديكا أحمر أمام ضريح سيدي أحمد ابن سعيد.

ثم فجأ تحركت ألسنة الكبار في القرية لتروي وقائع حرب شرسة تدور رحاها وراء تلك الجبال العالية. ووقف الصبي في الريح يتنصتون

علهم يلتقطون شيئا من دويها الهائل. وراح ولد الكبلوطي يطوف في أرجاء القرية لاهثا، ومنحني الظهر وساقه اليسرى تعرج قليلا، ليتسقط الأخبار، وكان دائما يفاجئهم بحكايات أشد غرابة من ذي قبل: «اسمعوا يا أولاد.. الناس يقولون إن الحرب التي وراء الجبال العالية تدور بين الغرابة وقوم من الكفرة، مرد وشقر وزرق العيون. ويقولون إن هؤلاء يحاربون بالمدافع والطائرات والدبابات، أما الغرابة المساكين فيواجهونهم بالمذاري والعصي والهراوات والسكاكين..» وذات يوم ارتجفت قلوب الصبية حين مر بقريتهم غرباء بلية كثة غبراء، وبعيون محمرة ومنتفخة. ومن أجسادهم التي أنهكها السير والجوع كانت تفوح رائحة تلك الحرب التي بدت لهم مع مرور الأيام شبيهة بخرافة مرعبة لا نهاية لها. ثم مع قطع الحلوى الكبيرة، والأقمشة الملونة التي يأتي بها أباؤهم من الأسواق جاءتهم أخبار تقول لهم إن تلك الحرب الت قتلت آلافا من الدواب والعباد، وأحرقت مدنا وقرى وسهولا وغابات قد انتهت، وأن نساء الغرابة يزغردن فوق قمم الجبال العالية وفوق السطوح فرحا بشيء يسمى الاستقلال، ودمعت عيون الكبار من فرح لم يكنوا يدركون معناه. وبعدئذ هدأ كل شيء من حولهم، ومرت الغرانيق بطيئة باتجاه الجنوب مبشرة بخريف ممطر. ولم يعد يترل من الجبال العالية أولئك الغرابة على ظهور بغالهم الثقيلة الأجسام والحركة. وغنى ولد الزياتية عاشقا متيما على الروابي هناك، حيث ترعى شياهه:

أما بلادك بلاد أفريقيا بلاد الوخم والعلايل

أما بلادي بلاد الصحرا بلاد الزنا والفعايل

ومرت الأعوام، وكبر الطفل، وتاه في العالم الكبير غير عابئ بتلك اللطخة الزرقاء في عينه اليسري. وسلمته المحطات إلى المحطات، والمدن إلى المدن، والبحار إلى البحار. وفي ضباب مدن الشمال وثلوجها، دفن هواجسه القديمة، وتلك الحمى الشديدة التي كانت تنتابه كلما فكر في أشباح الغرابة يترلون «عابسين من أعالي الجبال على ظهور بغالهم الرمادية الثقيلة. وفي سراديب التيه وأنفاقه الطويلة تلاشت عوالم قريته البعيدة، وصور أصدقاء الطفولة، وحكايات ولد الكبلوطي التي يقف لها شعر الرأس. وذات صباح قاحل، عقب ليلة سكر طويلة وسط الضجيج والدخان، وقف أمام المرآة يستطلع أمره. وفي النظرة الأولى فوجئ بظهور تجاعيد بشعة حول عينيه وفمه. وفي المفرقين نبتت شعرات بيض. وانتبه إلى أن اللطخة الزرقاء الصغيرة قد اتسعت وكبرت وأحاطت بعينه اليسرى من جميع جوانبها حتى لاحت شبيهة بأثر لكمة عنيفة وحاقدة. والوه كله تحت الصلعة المنفردة بدا متورما، ومنتفخا بسبب تلك الآلام المتراكمة في أعماق النفس، وعندئذ أدرك أنه ابتعد تماما عن براءته، وأنه ولج تلك الغابة السوداء الباردة التي تفضي إلى العدم الكبير.. لفه الحزن، فخرج إلى المدينة الكبيرة باحثا فيها عن مكان يخفف فيه من وطأة هواجسه ومخاوفه الجديدة.

التقاه أواخر مساء في بار معتم من بارات حي «شوابينغ» بميونيخ، كان طويلا ونحيفا، بمعطف أسود يلامس قدمه، وبرأس كرأس الفقمة،

وبوجه أسمر حرقته المتاعب وآلام الغربة والطواف الطويل، وبعينين صغيرتين ذابلتين. وعقب دقائق قصيرة. تخللتها تلك الأسئلة والأجوبة العادية، اكتشف أنه من قوم الغرابة. وحين أقام الحديث والشراب. بينهما شيئا من الودّ، روي له هواجس طفولته، وأيام الحمى، وحكايات الكبلوطي عن الكنوز السرية، وطول الوقت كان ذلك الفتى يدقق النظر في تلك اللطخة الزرقاء في عينه اليسرى. وحين انتهى، ضجا بالضحك ضاربين بأيديهم على الكونتوار حتى انفجر الامتعاض على وجه الجرسونة البافارية الثقيلة الأرداف.

عند الساعة الحادية عشرة تقريبا، ودعه وعاد إلى شقته هادئ النفس وسعيدا إلى حد ما. وبعد أن شرب كأسين متتالين من «الكونياك» تمدد على الفراش بحذائه وبكامل الباسه ووسط الصمت والهدوء، سرح بذاكرته في الماضي، وفي سنوات طفولته البعيدة وراحت الصور تتسابق في ذهنه بطيئة مرة، وسريعة مرة أخرى.

وبينما هو يمارس تلك اللعبة الممتعة والمسلية في آن، رن ناقوس الباب، وفي الحال فتحه دون أن يتردد ولو لحظة واحدة، ودون أن يطوف بذهنه أي سؤال عن ذلك الغريب الذي تجرأ على أن يزوره في مثل تلك الساعة من الليل. ولم يندهش حين وجد نفسه وجها لوجه مع ذلك الفتي من قوم الغرابة الذي كان لنقاه أواخر المساء، وكأنه على موعد معه، وعابسا، وعيناه تشتعلان حقدا وغيظا، اندفع ذلك الفتى داخل شقته دون أن يحييه أو ينظر إليه. وحين وصل إلى قاعة الجلوس،

وقف وراح يتأمل بإشمئزاز اللوحات والصور التي تــزين الجـــدران. ثم اقترب من الكتب. وبعد أن تصفح البعض منها راح يمزقهـــا ويرفســـها برجليه. وكان كلما سعى إلى تهدئته أو حاول منعه من ذلك، صاح فيـــه صيحة تجمده في مكانه دون حراك ولا كلام، ومع مرور الوقـــت كـــبر خوفه، فراح يرتجف وكأنه يقف عاريا تماما في الثلج. ثم فجـــأة بـــدأت الشقة تتسع، وراحت تتمطط وتتمطط حـــتى تحولـــت إلى باحـــة مـــن الأسمنت، عارية وموحشة مثل باحات السجون. ومن فـــوق الحيطـــان الرمادية العالية التي تحيط بها. أطلت رؤوس شـــقراء، وراحـــت تتأمـــل المشهد بعيون شرسة وباردة وبوجوه كأنها وجوه الموتى المحنطين. وازداد الفتى ضراوة وعنفا، وارتفع صوته مهددا ولاعنا ومتوعـــدا. ولمـــا بـــدأ يتوسل إليه ويترجاه أن يكف عن ذلك ارتمى عليه، وجرده من ثيابـــه في رمشة عين، ثم شرع يجره هكذا على الأرض الصلبة البادرة.

وظل يجره ويجره حتى رأى الدماء تتدفق من جميع أنحـــاء جســـده وبعد ذلك كممم فمه وأوثق رجليه ويديه، ثم ألقاه مثل نواة تحت شجرة ضخمة تتصبب فوق جبل عال يغلفه الضباب، وصاح مناديا في قومه وفي الحال احاط به الغرابة. وكانوا في هذه المرة نصف عراة مثل الهنود الحمر في أفلام «الويسترن» ورؤوسهم محلوقة تماما، وعلى وجوههم العريضـــة والطويلة، رسوم غريبة بالأسود والأحمر والأخضر والأزرق والأصـــفر، وبعد أن أشعلوا نارا امتد لهبها حتى تجاوز أعلي الشجرة، راحوا يدورون حوله ضاربين الدفوف: دجتدق دق! تجتـــد دق! تجتتـــددق! تشـــتتق! تشتق! تشدق! تجتدق! ومنشدين مدائح وأذكار بلغة لم يفهم منها كلمة،

وفي لحظة ما انتبه إلى أن كل رفاق صباه يجلسون على أحد فروع الشجرة، متأملين المشهد واجمين وملتفين ببعضهم مثل فراخ خرجت لتوها من البيضة، وفي وسطهم، كان ولد الكبلوطي يقرفص متعبا وحزينا، وعلى وجهه المحفور بالتجاعيد، اليأس والخوف. راح يتململ، ويحرك يديه الموثوقتين في اتجاههم. وحالما انتبه الغرابة إلى ذلك، انقطعوا عن ضرب الدفوف وعن الانتشار، واندفعوا نحوه غاضبين وسكاكينهم الطويلة تلمع في ضوء اللهب. وفي اللحظة التي كانوا يتأهبون فيها لذبحه من الوريد إلى الوريد، استيقظ.

كان لا يزال ممدا فوق الفراش بحذائه وبكامل لباسه. وكانت ساعة الراديو الإلكترونية تشير إلى الثانية صباحا. وفي الخارج كان بافاريان سكرانان يرددان بصوتين متعبين ومضطربين:

In munchen steht ein hofbrauhaus- eins, zwei, gsuffa

1

[1] - أغنية يغنيها البافاريون في أعياد البيرة.

2- من مجموعة «السلحفاة».

الأموات يعودون من الماضي

رشيدة الشارني

لم يعد يفصلنا عن ساعة الغروب سوى وقت قليل، وبرغم ذلك مازلنا ننتقل بين القبور مصرين على الاهتداء إلى المكان الذي دفنت فيه جدتي منذ أكثر من أربعين عاما.

كنا نحاول أن نتبين أسماء الموتى على ألواح ذهب الزمن بالكثير من لونها وحروفها ونتطلع في نفس الوقت إلى قدوم الحارس حتى نطلعه على ترخيص البلدية بفتح القبر ونستعين به في التعرف عليه، ولكنني أحسست أنه محق في غيابه فأي شيء مهم يحرس فيه هذا الخراب الموحش؟

كان أبي يردد طوال الطريق ونحن قادما من العاصمة إلى قريتنا المتاخمة للحدود الجزائرية، إنه يعرف القبر بشجرة صنوبر كان قدر زرعها في الجهة الخلفية لرأس والدته حتى تحمي رأسها من أشعة الشمس الحارقة حسب اعتقاده ولكننا وجدنا المقبرة معبأة بالصنوبر، ولم يكن في مقدورنا التعرف على المكان.

كان يقود سيارته بشيء من السرعة وهو يحدثني عنها بصوت محمل بحزن قديم:

- رحلتي والدتي عن الحياة دون أن أحضر ساعاتها الأخيرة أو أحمل جثتها على كتفي كما حملتني طفلا. كنت في ذلك الوقت العصيب متأبطا سلاحي ومتوغلا به في صقيع الغابات الأوروبية محاربا في صفوف الجيش الفرنسي مع الكثير من العرب الآخرين والأفارقة الذين جيء بهم من المستعمرات التابعة للحلف.

كنا نمثل جيش المقدمة وكانت قنابل الموت تلتهم في كل معركة عددا كبيرا منا، وتترك الباقين يشاهدون مذهولين احتمال موتهم القادم، وقد تصل ذروة العذاب بالبعض منا إلى حد يفقدون فيه الحس بما يجري.. لم يكن الوقت يسمح بالحزن إذ سرعان ما تنهال علينا أوامر القادة فنسارع بلملمة جثث رفاقنا ونحن مخنوقون بدموع كل الأهل الذين يجهلون قسوة تلك اللحظات ولا يدرون بموتنا الفاجع.

كان لي صديق جزائري يقاسمني الشوق الشديد للأرض التي خلفناها وراءنا وكنا كثيرا ما نقف متطلعين إلى نسمة دافئة تأتي من الضفة الأخرى للبحر، ونحمل بليالي الحصاد وموسم الزيتون والنخيل والصحراء، ونستعرض مسيرة طارق بن زياد وملحمة خليفة الزناتي وأبا زيد الهلالي... ونتذكر التمر والشاي بالنعناع والبسيسة ونشتهي السمك وكسكسا من أيادي الأمهات.. ولكن سرعان ما نستفيق من ذكرياتنا البعيدة عند أول أزيز طائرة نسمعه في الجو.

ذات مواجهة عنيفة مع الجيش النازي، طلب مني هذا الصديق أن أتريث في الخروج من الخندق الذي كنا نتوارى فيه عندما تكون في

مساحات عارية بينما غادرة هو متجها نحو حتفه إذ سرعان ما سقطت عليه قذيفة فجرت جسده وحولته إلى أشلاء محترقة.

شاهدت مذهولا موتي الذي كاد أن يكون، داهمتني رعشة رجت كل فرائصي الصلبة.. في لمح البصر مات طاهر الجزائري متخما بالشوق لوطنه ووالدته.. تخيلت مبلغ وجعها وأنا ألتقط ببرود الموتى أشلاءه وأضعها في كيس من البلاستيك، ليلقي بها فيما بعد مع كدس من أشلاء القتلي في شاحنة تخلف عند مغادرتها للمكان خطوطا من الدماء المختلطة.

كان الموت هو المشهد الذي أعايشه وكثيرا ما كان يحصرني في رقعة صغيرة من الأرض ولا أنجو منه إلا بقدرة الله.. كنت أشعر أن الموت يطاردني ويتربص بي في كل لحظة، وبرغم ذلك لم أطلق رصاصة واحدة باتجاه إنسان.. كنت أتعمد إفراغ ذخيرتي من السلاح في أهداف خالية من البشر. لماذا أقتل شخصا بريئا لا علاقة له بمؤامرة سياسية حيكت بعيدا عنه؟

لماذا أتسبب في تعاسة أهله؟ قد يكون أرغم على حمل البندقية مثل وترك في انتظاره أطفالا وزوجة أو أما تتقد بنار الشوق كأمي؟

في ذلك الفضاء الأسود يشتد الحنين والحاجة إلى عالم أبيض.. كان صدى صوت أمي العذب يشق المسافة ودوي الانفجارات ويسكن صدري، ولم تكن سنوات الموت تلك بالنسبة لي سوى محاولات مستميتة

للحفاظ على حياتي، من أجل ابتسامة أراها ترتسم على وجهها الوديـــع لحظة عودتي.

عندا انتهت الحرب وأذن لنا بالعودة استقبلني كل الأهل ما عـــدا أمي.

قالوا لي وهم يروون تفاصيل موهما الذي مضى عليه أكثر من عام أن مرضا أصاب حنجرهما، فأمر الطبيب بنقلها في أسرع وقت ممكـــن إلى العاصمة للتداوي في أحد مستشفياهما، ولكن أخي الأكبر بخـــل عليهـــا بذلك، معتقدا أنه مجرد مرض سببه البرد القارس الذي تغرق فيه القريـــة شتاء، وأنه يكفي أن تشرب زيتا ساخنا أو تستعمل بعض الحشائش حتى تشفى.

أ حسست وأنا أستمع إلى قصة موهما المجاني بنيران أكثر ضراوة من كل تلك التي عشتها طوال سنين الحرب تندلع في داخلي، وتفجر كـــل طاقات الصبر التي اختزنتها من أجل لحظة أراها فيها.. شعرت فجأة أنني صرت وحيدا وعاريا من كل حنان الدنيا. تصورت مدى معاناهما وهـــي تغادر الكون دون كلمة وداع همسها في أذني.. أجج ألم فظيع صـــدري، وسرعان ما صار مشحونا بغضب هستيري. التقطت البندقية وأنا أصرخ بصوتي المفجوع:

– أين هو؟ الجبان.. البخيل سأقتله كما قتلها..

حاول الأهل تهدئتي وإثنائي عن ثورتي ممسكين بي وبالبندقية، ولكنني استطعت أن أتخلص منهم جميعا وأدفع بهم بعيدا عني. اندفعت إلى الخارج أبحث عن أخي في لك مكان من القرية، وقد تحول غضبي إلى جنون عنيف جعل الناس يختفون في بيوتهم طيلة النهار، وصار الأطفال منذ ذلك اليوم المتوتر يهرعون إلى أمهاتهم كلما رأوني مارا في الطريق..

كان أخي في ذلك الوقت قد اختفي في بيت أحد الأصدقاء.. ولم يظهر إلا بعد أن حملت حزني وقهري وهجرت القرية.

***

قابلنا اسمها منقوشا على أحد القبور. التهمنا حروفه الباهتة مرات عديدة. «زينب بنت عمر بن فرحات الزناتي...» أحسست بحنان غريب يلفني وأنا أقرأ أسماء أجدادي الذين لا أعرفهم وأتخيلهم ماثلين مرة واحدة أمامي بسماتهم القوية ودمائهم الحارة وجبروتهم القبلي الذي تناقلت قصصة أجيال كثيرة من عائلتنا..

شرعنا في هدم القبر وإزالة حجارته...

في هذا الصباح توفي عمي بعد أن ظل شهورا طويلة يحتضر ويهتف باسمها كلما صحا من غيبوبته طالبا منها الغفران.. وكان في الليلة التي سبقت وفاته قد نادى أبي، وألح عليه بصوت واهن متوسل أن يدفهنه في نفس القبر الذي، وأرى فيه جثتها منذ أكثر من أربعين عاما ولم يكن والدي يملك في مثل هذا الموقف سوى أن يعده بذلك. كان أبي يهوي

بفأسه على الأرض المتصلبة فيفور التراب أسود بلون الحـــزن، وكنـــت أرفعه برفشي وأنا أتخيل في كل لحظة بروز عضو من أعضائها. كنا كمن يبحث عن أسرار الماضي في باطن الأرض أو كمن يريد أن يقفز مســـافة مستحيلة إلى الوراء.

بعد قليل سأرى جدتي التي ماتت قبل أن أولد بحوالي عشرين عاما وأقف وجها لوجه مع إمرأة من زمن غير زمني، ولكن بعضا مـــن دمهـــا مازال في دمي أحسه يسري حارا في شراييني ويشحذ أفكاري.. أتـــابع نزيف التراب أشعر بعبء الماضي يسقط على كاهلي.. كم وقتا يلزمنـــا حتى نصل إلى ذلك الزمن المجهول؟

كم من الشجاعة أحتاج حتى أحيا ساعة من ماض أم أعشـــه؟ أي قدر

غريب كتب على أن أخوض تجربة رهيبة كهذه؟...

غطس أبي إلى جوف القبر مواصلا الحفر باتجاه الماضي.. اكتشفت في لحظة أن القبور الإسلامية أعمق مما كنت أتصور، ولكنها ليست تلك الرهبة التي كنت أحس بها حين كنت طفلا أمر من المدرسة بأبي الـــذي يعمل ضمن فريق مكلف بنقل جثث قدماء الجاليات المسيحية إلى أهاليهم في أوروبا أو إحدى المقابر الأخرى البعيدة عن وسط العاصمة.

كنت ألقي بمحفظتي في مكتبه المطل على الشـــارع، وأحـــاول أن أعلم نفس أصول الشجاعة وأنا أخطو بضع أمتار داخل المقبرة. كـــات

تبدو لي كمدينة أشباح بتلك الغرف الرخامية الصغيرة ذات الأبواب الحديدية الثقيلة والمغلقة على توابيت تسكن قاع الأرض وتحيط بها الأشجار الكثيفة.

كم تنصت على أبي وزملائه وهم يروون تفاصيل غريبة عن الموتى ويقولون إنهم أخرجوا جثثا مضت على دفنها عقود طويلة، ورغم ذلك مازالت محتفظة بنضارتها كما لو أن أياما قليلة فقط مرت عليها.

أفقت من ذكرياتي البعيدة على أنين صادر من جوف القبر، التفت نحو أبي فرأيته يقف مذهولا وقد ارتكز على يد الفأس محدقا نحو الأسفل وقد غطى دمعه الذي لم أره طوال حياتي وجهه وساح على وجنتيه المعفرتين بالتراب فرسم عليهما خطوطا مستقيمة.

انتفضت من مكاني سائلا:

– ما بك يا أبي؟.. هل عثرت على جدتي؟

– عثرت على عظام نخرة يا ولدي..

قال ذلك بذهوب كما لو كانت الكلمات تخرج دون إرادة منه ثم انفجر بنحيب رجالي محموم.

نظرت إلى أسفل القبر أحسست بجسدي يرتجف وأنا أرى هيكلا عظميا ضئيلا يرقد ذليلا على التراب مصوبا محجرين عميقين ومكشرا عن أسنان كبيرة وبشعة. لم يكن بوسعي أن أحدق أكثر أحسست بدوار

يداهمني وتخيلت نفسي أسقط في تجويف العينين. انفجـــرت الأســـئلة في رأسي كألغام قديمة:

هل هذه حقا جدتي؟ أين ذلك الجسد اليافع الذي سمعـــت عنـــه كثيرا؟ أين ذلك الجمال الخرافي الذي تحدث عنه الأهل؟ إنني لا أرى غير هيكل قبيح تعلوه جمجمة مخيفة؟

أحسست أنني أتضاءل أمام هذا المشهد، وكأن روحي تخرج مـــن بين أصابعي وبدا لي حقيرا وتافها.. كان أبي مايزال مطأطئا رأسه وقـــد هدته الصدمة وصار ينوح كيمامة في أعلى المسجد. حز منظره المفجوع في نفسي كثيرا. ناديته بألم وحنان وكأنني أحاول أن أقدم له تعزية متأخرة أكثر من أربعين عاما:

– أبي: أرجوك، توقف عن البكاء، لقد مضى على موتهـــا زمـــن طويل.

ولكنه واصل بكاءه المحموم كما لو أن أمه قد ماتت الآن.[1]

[1] – من مجموعة «الحياة على حافة الدنيا».

الحدأة والصياد

إبراهيم الدارغوثي

(1)

دفعت الممرضة الباب وتقدمت نحو سريري تسبقها بسمتها الآسرة.

قالت: «أخيرا استيقظت! عندما جئتك بالغداء منــــذ ربـــع ساعة كنت تغطّ في نوم عميق».

قلت: «أين ذهب جاري؟»

قالت: «من؟ جارك؟»

قلت: «نعم! جاري! صاحب السرير المقابل للباب»

قالت: «آه! الصياد!»

ونظرت مباشرة في عيني. وابتسمت.

ثم وهي تخرج أضافت:

«سأعود بعد قليل. لا أحب أن أجدك نائما وإلا فلن تتغدّى هـــذا اليوم».

(2)

لست أدري لماذا تبتسم هذه المرأة كل مرة أسألها عن «جـــاري». وتتهرب من نظراتي. وتغادر الغرفة كمن تجري وراءه العفاريت.

وقد كانت – في أيامي الأولى بالمستشفي- تهـــوى الجلـــوس إلى جانب سريري وتحادثني طويلا. وتتهرب من عملها في باقي غرف القسم.

ثم تغيّرت.

ولم يبق من حدبها على واعتنائًا بشـــئوني ســـوى تلـــك البســـمة الممزوجة حنانا ولطفا.

(3)

«جاري» الصياد.

جاء إلى هذه الغرفة بعد وصولي إلى المستشفى بأسبوعين كنت قبل مجيئه قد أجريت عملية جراحية. تعبت كـــثيرا في الأيـــام الأولى، لكـــن أحوالي تحسنت عندما جاءت «مليكة».

صارت تعينني على الجلوس. وعلى الأكل. وعلـــى الـــذهاب إلى دورة المياه. وعلى نسيان الألم والغربة. وذات يوم. وقـــد دنـــوت مـــن الشفاء. جاء جاري إلى الغرفة جاء تقوده ممرضة. تمسك به بيد. وتضـــع يدها الأخرى وراء ظهره.

انتبهت إلى العصابة التي تطوق رأسه. كانت بها بقع حمراء.

لست أدري هل هي بقايا دم أم دواء!

قالت لي الممرضة وهي تخرج:

«سلم على جارك. وشجعه. ستجري له عملية جراحية على عينيه بعد أيام».

سلمت عليه وقدمت له نفسي بكل أدب وتهيب.

حرك رأسه يمنة ويسرة وقال:

«هل مازالت الحدأة تحلق في سماء المدينة؟»

قلت: «لا أرى حدأة».

ثم أمرني بإغلاق الشباك.

قال: إنه لا يطيق جريان الهواء في الغرفة.

ويخاف أن تعود الحدأة التي أكلت عينيه تحلق قرب الشبابيك.

(4)

«جاري» الصياد.

رجل في الأربعين من عمره. له وجه شديد السمرة. تطوقه لحية كثة. ويتوسطه أنف قد من حجر. وفم يفتر عن أسنان تشبه أسنان الحصان. عندما تمدد فوق السرير بان بطنه الكبير.

رأيت داخل البطن: خرفانا ترعى. ورعاة يغنون. وكلابا تجري هنا وهناك. ورأيت ذئابا تلعق دماء الفرائس.

تململ «جاري» فأزّ السرير تحته.

قال: «هل أحكمت إغلاق الشباك؟»

قلت: «بلى»

قال: «قم وتأكد من إغلاقه يرحمك الله!»

وعاد إلى الشخير.

جاءت «مليكة» بالغداء. وضعته فوق طاولة صغيرة قرب سريري وخرجت. رفعت الغطاء عن الصحون فوجدت كدسا من الأرز الأبيض. ولحم دجاج و«سلطة». قربت الطاولة من السرير ووضعت مخدة وراء ظهري وبدأت الأكل.

سمعت أصداء صوته تتردد في الغرفة.

«قل باسم الله قبل الشروع في الأكل يا مغربي!»

قلت: «هل أقولها جهرا أم سرا؟»

رد: قلها كما تشاء!»

ثم استدرك: «قلها جهرا حتى تسمعك الملائكة!»

رفعت الملعقة إلى فمي فرأيت حدأة ترفرف وراء زجاج النافذة.

بقيت الملعقة معلقة في الهواء.

والحدأة تضرب الشباك بكل ما تملك من قوة بالجناحين والمنقار.

وتعول عويلا مزعجا.

و«جاري» الصياد يصيح لا تفتح الشباك يا «مغربي» وألا أكلتني الحدأة.

(5)

قال «جاري» الصياد:

دكاني في السوق كبير. أكبر من كل دكاكين المدينة.

يعمل فيه «خدم» من الهند ومن باكستان.

فأنا لا أثق كثيرا بالعرب.

جرّبتهم ولكنهم سرقوني.

يومها. كنت أشرف على الدكان بعيني صقر عندما دخلت قلبي دراسته بأحذيتها هي وصويحباتها. جعلني شموخها أنتبه إليها: قامة مديدة كغصن البان وأرداف ثقيلة.

ووجه سبحان الخالق الباري.

التقطت قطعة من القماش الرخيص المستورد من الصين الوطنية وجاءت تدفع الثمن.

عندما تكلمت عرفت في لهجتها «أهل الشام».

قلت: «مرحبا. يا هلا بعروس الشام».

باغتها كلامي فاحمر وجهها خجلا.

دفعت ثمن القماش وخرجت.

عندا ابتلعها زقاق جانبي ندمت كثيرا لأنني تركتها تمشي هكذا!

وما فرّطت قبلها في امرأة تشهّيتها!

ولكنها عادت بعد ثلاث أيام.

جاءت هذه المرة مصحوبة بأولادها.

سمعت بالتخفيض الكبير الذي أعلنته الجرائد الذي يخصّ ثياب الأطفال والنساء فجاءت تستغل الفرصة. ما كانت تعلم أنني أعلنت هذا الـ«الصولد» لأجل عينيها.

وأنني سأخسر بسببها الملايين!

كانت منهمكة تختار من القمصان ما يلائم أطفالها عندما اقتربــــت منهم.

سألت أحد الصغار:

«من أي بلاد الشام أنتم يا ولدي؟»

قال: «من فلسطين»

قلت: «من أين؟»

قال: «من يافا»

وجاءت بكدس الثياب

قلت: «يا هلا يا ميت هلا بعروس يافا!»

قالت: «كم أدفع لك؟»

قلت: «ببلاش!»

فتحت حقبة يدها. عدّت كمية «الريالات» وضعتها فوق الطولة.

وخرجت..

وصرت في كل يوم أعلن عن تخفيضات جديدة.

وكانت تجيء دائما.

وكنت أتغزل بها. ولا أشبع!

وكانت ترفض الرد على غزلي.

إلى أن ضرب اليهود مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

جاءت يومها لوحدها.

قلت في نفسي: «هي فرصتك يا ابن الكلب!»

سلمت عليها كالعادة: «مرحبا! يا هلا بعروس يافا»

قالت: «كفى هذرا! ماذا تريد بالضبط؟»

قلت: «وصالك يا روحي»

ردت: «اليوم! ألم تسمع بما فعل الصهاينة؟»

قلت: «وما فعلوا؟ هل أحرقوا قبر النبي؟ سنبني لكم مقرا آخر لمنظمتكم الشهيدة!

وبدأ يسخر مني، وينهنه كما ينهنه الأطفال.

قالت: «هيا بنا إذن!»

باغتني ردها الإيجابي، فارتبكت قليلاً.

قالت: «مالك؟ هل ندمت؟!»

قلت: «لا! ترقبي ساعة حتى أصلي المغرب!»

وأغلق الدكان.

ترقبتني أمام المسجد الكبير.

وركبنا السيارة.

ركبنا سيارتي «الكاديلاك».

طوت بنا المسافة الفاصلة بين السوق والعمارة في دقائق.

أحرقت كل الأضواء المانعة للسير.

ولم ألتفت إلى علامات المرور.

كدت أدهس شرطيا جاء يعترضني.

ووصلت وأنا ألهث كعداء المسافات الطويلة.

فتحت لها باب الشقة. وقلت:

«اذكري اسم الله وأنت تضعين رجلك على العتبة!»

ثم ذهبت إلى الحمام.

اغتسلت.

تنشفت.

وتعطرت.

وطلبت منها أن تغتسل. وتلتحق بي إلى بيت النوم.

شغلت جهاز التليفزيون.

وتكومت تحت الغطاء اترقبها.

جاءت بعد وقت قصير.

وجاءت معها صور العمارات المدمرة.

واللحم الآمي المحروق.

والرؤوس المهشمة تحت الحجارة.

وصياح سيارات الإسعاف المزعج.

والدم في كل مكان.

فوق الأسفلت.

وعلى الجدران.

والحجارة.

أوقفت البث بضغطة عصبية ولعنت جدّ من اخترع «التليفزيون».

عندما رفعت عيني نحوها رأيت عجبا.

كانت المرأة تتحول شيئا فشيئا إلى طائر.

نبت لها جناحان.

واكتسى جلدها بالريش.

صارت المرأة حدأة.

ارتمت على وجهي.

أكلت عيني اليمنى.

ثم اليسرى.

وطارت..

(6)

قلت لمليكة وهي ترفع الصحون وتمسح الطاولة. «أين جاري الصياد؟»

قالت: «إذا كنت ترغب في الذهاب إلى مستشفى المجانين فاسألني مرة أخرى عن «جارك» الصياد يا «مغربي!».

وخرجت.. رأيت طيف ابتسامتها العذبة مرسوما على زجاج شباك غرفتي المطلة على حديقة المستشفى.[1]

[1] – من مجموعة «رجل محترم جدا».

بائعة الحمص

مسعودة أبو بكر

«حمص يذوب من البخار..»

«فول كالزبدة.. يا من تريد أن تنمق كسكسي رأس العام خذي لك قرطاسا..»

ترقرق صوت أنثوي عبر الأزقة التي نشطت فيها الحركة يفتتح مهرجان الأصوات المتفاوتة نبراتها ووقعها وهتافها بقلب سوق «باب الفلة».

داخل سطلين من النيلون الأزرق راحت يدا الصبية بائعة الحمص تتسللان في رفق تداعبان الحبوب الصفراء الفاقعة، تخلل أصابعها بين جموعها المتراصة فتنزلق الحبات من كفها، تغريها نفس المداعبة مع حبات الفول السمراء.. استشعرت فيضا من الحماس يندلق داخلها وهي محفوفة بسطليها وأوراق اللف.. ترفع عينها إلى مدخل السوق، تلمح الزحام فيتصاعد هتافها ليتحد بخضم النداءات الأخرى.. نفس جيرانها يستقبلون اليوم الجديد بنفس الإصرار والحماس، بنفس الذراع التي لا تكل، بذات النظرات التي لا تعرف الاطمئنان، بنفس الملامح المفتقرة إلى الاكتفاء.. إلى الراحة.

«القديد غدا، والسمك اليوم.. يامن ستزور أصهارك، لك عنـــد هديتهم.. سمك جيد. سمك اليوم ترك بحره لأحضاني..».

يجول بصر الصبية في زندي «مصطفى الحوات»، فتتـــراءى لهـــا السمكات الحمراء والسوداء تنط متمرغة بين ذراعيه فترتسم ابتســـامة خجولة على شفتيها، ثم تشرد بعيدا..

كان ياما كان في سالف الزمان: فتاة تحلم بجهـــاز عـــرس يهـــزّ القلوب، عاد أبوها الصياد يوماً بسمكة في طول ذراع..

«لن نبيع هذه السمكة، لنشبع منها ولنهدي جيراننا قطعـــا مـــن لحمها»

وحين عالجتها الفتاة لتنظيفها وطهيها لمعت في بطنها ياقوتة كحبـــة فول أصبح بفضلها الصياد وابنته من الأثرياء.

«ألا يحدث أن تحتوي سمكا.. مصطفى الحوات على لؤلؤة أو ياقوتة ياترى؟..»

يشرخ حلم الصبية صوت عم الجيلاني شيخ الستين:

«خذ بخمسين.. خمسون مليما فقط سعر هذه الحزمة النضرة مـــن البقدونس، تخالها حبقا..».

يتواصل هتافه، ينقطع أحيانا ليرد على التحايا بأحسن منها..

يعلو صوت الصبية:

«حمص.. فول يذوبان من البخار.. خذي لك قرطاسا يا سيدتي» وتنشط أناملها في عقص أطراف الورق في أشكال لولبية، عن يمينها قام هرم صغير أخضر قاعدته كيس قماش.

- نهارك سعيد يا عم الهاني.. ملوخية العادة..؟

تربع عم الهاني بإجهاد واضح لضيق المساحة.. مرر صفحتي كفيه على الدقيق الأخضر اللدن.. زوى حاجبيه وقد اتسع ثقبا أنفه، وبرز صدره ثم أطلق صوتا مبحوحا ينغم هتافه في حماس: « ملوخية توزرية.. جارة الرمان والعراجين».

راحت الصبية تتأمل صاحب الصوت.. تتفرس في ملامحه وما يستر جسده بإعجاب سافر خصوصا بحركاته التي يتحدى بها شيخوخته القاسية.

طوبى له من شيخ دؤوب.. يالعنة على الذكور الثلاثة، ألا يخجلون من دأب وعلو همة هذا الشيخ الذي ينحني عند كيس الملوخية، هم النيام إلى بعد الظهر؟

عادوا البارحة في صخب هز الحارة الهاجعة، سمعتهم يتمجنون مع رفقة من السكارى فغارت برأسها تحت الغطاء إلا أنها سرعان ما عادت لتحسره عن رأسها واستوت فوق الحشية:

«يا ساتر يارب.. هل سيميزون سطل الحمص من سطل الغُسل؟»، تبا لهم..»

غدا قبل المضي إلى السوق – يجب أن تغمس في الماء الساخن سراويل ثلاثة، ستجدها بالسقيفة تفوح منها رائحة النبيذ، حتى إذا نهضت أمها واهتمت بالغسيل دعكتها بالصابون ولسانها لا يكف لاعنا حظها والأولاد وكل من تزغرد لمولود ذكر.

***

يمتد جسر التحايا.. تتمازج نداءات الباعة تتخللها تعاليق شتى، تعاليق تتناول كل شيء تتنفس عبره هموم الجميع وشكوى الجميع.

السوق مكتظة هذا اليوم.. شيء من الاطمئنان ينداح على ملامح الوجوه الكالحة..

يبدو أن قلق الأيام العادية لم يساور أحدا هذه الصبيحة.. هل ستشفع غداة الموسم هذه للسوق ياترى؟

– ما كل هذا الحمص يا ابنة أمك؟ لو ظل اليوم الغد فسيفسد طعمه وتزفر رائحته، فيعرض عنه الزبائن..

– سوف لن تبقى حبة يا عم الهاني، بماذا سيزدان إذن كسكسي رأس العام؟.. أليس بالفول والحمص!.. سترى بنفسك.. ربما عدنا بعد العصر وقد بعت كيس الملوخية بأكمله ونفذ ما في السطلين!..

– ربنا كريم يا ابنتي!..

تأملت بائعة الحمص هرم الدقيق الأخضر وقد وشاه صاحبه بقرني فلفل أخضر.. حلق خيالها إلى قدر أمها وقد استحال الدقيق الأخضر بداخله خليطا أسود لزجا، تتضوع منه رائحة زكية تسيل اللعاب.

«آه لو يتسنى لأمي أن تلقى في القدر قطعا من اللحم الخالص لا عظم فيها، إنها تكتفي دوما بقطع من فروة رأس البقر..!»

«فيه الخير والبركة يا أولاد.. كله منفعة وفيه شبع لكم.. ثم هو لحم، وكله من أصل واحد..

فلماذا التذمر..؟

كذلك كانت أمها تحسم الموقف إذا تذمر أحد أولادها من وجبات الطعام.. تجذب الصبية زمام شرودها، تعود في حالة استنفار:

– عم الهاني أنت ولي صالح..

تكشف ابتسامة العجوز الفجئية عن فمه الأدرد وهو يستوضح:

– كيف ذلك يا ابنتي؟..

– إنك دائم الرضى.. لا تتذمر لحاجة.. لسانك لا ينطق بغير الهدي والكلام الطيب.. «كثيرا ما أشتهي أن أرفع حجاب الصمت عن صدري وأتذمر أنا أيضا كما يفعل أبي..

كما يفعل الذكور الثلاثة ببيتنا.. كما تفعل أمي.. إلا أنني أستحي كلما استشعرت صمتك وقناعتك».

- الدنيا بخير يا صبيتي، سيطرق ابن الحلال بابك وستتركين الحمص والفول وهذه السوق ومتاعبها..

- قد أمسح دمعة من على وجنة أمنا تذرفها قلقا بشأن الذكور الثلاثة الطلح.

أنحبس الكلام في حلقها فجأة..

حل الشيخ حبوته وانتفض واقفا..

انداحت حمى فجائية في أعضائها.. هبت هي الأخرى على قدميها، امتدت ذراعاها لتمسكا بسطليها.. ولكن الأوان متأخر..

- كيف لم أتفطن إلى دخولهم السوق؟

- كيف لم تتفطن يا عم الهاني؟.. كيف لم نستمع إلى الإشارة؟... أترى يغفل الجميع، غير معقول أن يغفل الجميع.

- ربما أمسكوا بولد الحوات قبل أن ينادي بكلمة الإشارة؟..

ولكننا غداة موسم.. ألا يريحوننا حتى في الموسم؟

رأت الحبوب الصفراء والسمراء تنجذب بوعائيها.. رأت ميزان بائع الملوخية يرفع هو أيضا وعه معاييره.. وصناديق خضر وفاكهة..

علب زيت مستوردة.. علب تن.. تبغ .. قطع صابون لفافاتها أنيقة وجميلة. رأت أيادي طويلة الأصابع والأظافر تنقض في حنق.. تستلها من مكانها ثم تلقي بها جميعها دون فرز في مؤخرة سيارة كبيرة الحجم.

إنها نفس السيارة التي يعمل لها الباعة المنتصبون يوميا بسوق باب الفلة ألف حساب، يترصدون قدومها من بعيد.. يتحداها بعضهم بعضا، يطلقها أول بائع منتصب بمدخل السوق.

وكثيرا ما ينشغل بزبائنه أو يروح لقضاء شأن فيحدث الضرر بالبقية.

اشرأبت الصبية بعنقها بحثا عن سطليها بين كل البضاعة المحجوزة.

تلك التي لم يسارع أصحابها إلى لملمتها وإخفائها إما في زقاق فرعي ضيق أو في سقيفة أقرب منزل أو وراء عربة رابضة حذو الجدار.

كل تلك السلع التي تغني بها أصحابها وتغزلوا قاصدين بها باب الرزق راحت غنيمة في جوف السيارة.

- ألم ننذركم غير مرة بأن الانتصاب هنا محجر؟

- محجر، محجر، لا نظنكم تقولون غير ذلك.. لو رحنا إلى الجحيم حتى!

- محجر، محجرا!..

لو كنا أخلينا هذا المكان ورتعت فيه القطط والكلاب السائبة، وتراكمت فيه المزابل في زواياه، وتبول فيه السكارى هل كنتم تحجرون ذلك؟..

تقترب الصبية من الشيخ المرتجف، تحيطه بذراعيها، تتأمل حاجبيه الكثين وشاربيه المرتعشين.. أحست كأنما تحضن قصبة منخورة عصفت بها الريح.

– ويحي أخشى أن يموت بين يدي لو استمر هكذا، ارحموا هذا الشيخ .. على رسلك يا عم هاني!

– لو أن كيس الملوخية هذا يسمن ميزانية البلد لمددتكم به، خذوه، هو أيضا هنيئا مريئا، خذوا مادام الأخذ سهلا لا يكلف كالعطاء.

بداية الصباح كانت تبدو مرضية، فزي مارد نفخ على هنائها بنار شره يا ترى؟

انجذبت الأبصار ناحية «مصطفى الحوات» حيث احتد الصخب.. كان ينتعل فردة حذائه الخشن في اليمنى وباليسرى راح يتحسس الفردة الثانية التي انفلتت منه بين نفايات الخضر وكومة البطيخ وهو يرعد غيظا.

عيناه جمرتان تتقدان، عند زاويتي فمه يبس ريقه فابيض كرغو الصابون في حين تصلبت شرايين عنقه وذراعيه حتى كادت تنبجس دما.

راح يدور على غير هدى، يهوى على الصناديق المزروعة هنا وهناك بقبضة يده.. يهدج صوته سبابا ووعيدا.. يتفل وراء السيارة المتسللة بغنائمها خارج الزقاق.

- أبناء الـ... أما قدروا على غيرنا أم أن رأس الأقرع قريب من السماء؟ إن ما نحتله من مساحة لعرض سلعنا لا يساوي ربع ما تحتله سياراهم الرابضة عند ناصيتي الشارع.. نحن نشقى من شروق الشمس إلى مغيبها حتى يأكل أبناؤنا خبزا.. أتغبطوننا على هذا الخير؟؟!

- لا يغني الكلام في غير مقامه يا بني، لنقصد مقر البلدية ونطالبها بإرجاع سلعنا وموازيننا، ولم لا رخصا نسترزق بها.

- كلا.. لن استجديهم مرة أخرى، أنا ذاهب لأنهب سياراهم عجلة عجلة، وفانوسا فانوسا.. حتى البراغي لأفكنها واحدة واحدة، وأبيع الكل في أسواق سقط المتاع حتى أستعيد نظير ما أخذوا مني..!!

السوق تضيق، تضيق بمن فيها بكل ما فيها..

كذلك استشعرت الصبية الواقفة مع الواقفين، واللاّهثة مع اللاهثين والساخطة مع الساخطين...

غضون مبكرة تشد ملامح وجهها الحزين..

تطلعت إلى الرجال، يتحفز جمعهم للمضي إلى مقر البلدية.

يتشاحذون حماس بعضهم بعضا...

شدت قبضتها تلوح بها في اتجاه السيارة التي غابت عن الأبصار..

– ما الذي سيصنعون بسطلي حمص وفول؟.. أتـــراهم يغبطـــونني على دينارين يدفئان جيوبي الخاوية، يقيانني شر السؤال؟ أتراهم يغبطونني لو عرجت على سوق الأدباش القديمة لأبتاع لي فستانا؟

تهالكت على أقرب صندوق تضرب بكفها على صدرها.

– أما يزال الذكور نياما...؟ مورد رزقي الضئيل الذي يستنزفونه سجائر وشفرات حلاقة يهرق أمام ناظري.. ويتكورون دون حياء تحـــت الأغطية..

ستظل قمصانهم دون ماء مبيض.. قارورة الماء المبيض قد ارتفـــع ثمنها.. كنت سأعود بها اليوم.. إلا أن الحبوب اندلقت هنـــاك.. بجـــوف سيارتهم الملعونة.. سيرفسونها بأقدامهم..».

أين منها حماس الليلة الفائتة وهي تنقع الحمص والفول حتى تكون الحبات منتفخة هشة عند الصباح..

لقد ضاعفت الكمية على غير مألوفها تحسبا للطلب..

شخصت في الرجال عند مخرج السوق.. يفرد كل منهم قامة اهد كتفاها تعبا، وضمرت عند الوسط. ينفث كل في خطاه حماسا مرغما..

وفي غضون الوجوه تحتدم ثورة ويفور خذلان.. كانوا صـــامتين، يشيعون جثمان أمل مصلوب.. وحده ظل «مصطفى الحوات» يهدر..

من حوله تمازجت روائح الخضر والفاكهة برائحة اللحوم والسمك، وروائح الأبزار والمخللات بروائح البخور، وعبر كل ذلك المزيج تسربت عفونة نفايات عند الزوايا الرطبة الداكنة.

– عم الهاني انتظر!

نطت الصبية تستوقف الشيخ وهو في ذيل موكب الوفد الذي غادر السوق:

– السطلان يا عم الهاني، حبات الحمص والفول قد اندلقت لا ريب في ذلك، عد إلى بالحاويتين إن هم أعادوا لكم الموازين، إنهما من النيلون الأزرق..

... سأنقع الليلة نصيبا آخر من الحمص والفول ![1]

[1] – من مجموعة «طعم الأناناس».

عيّاد

صالح الدمس

وقفت حذو زميلي خلف بلور النوافذ الواسعة، ننظر إلى المدينة الغاطسة في الوحشة، تقابلنا من بعيد أبواق البلدية.. المطر ينهال من السماء خيوطا.. أنا أيضا وصلت متأخرا هذا المساء، كان من اللازم على أن أقدم في الثالثة، حتى أنظف الطاولات وأرتب الكراسي.. لكن المطر الذي يتساقط منذ الصباح جعلني أتردد كثيرا قبل الخروج،

والقدوم إلى هذه الحانة، بقيت ثلاث ساعات أمام باب الدار، أنتظر فجوة من السماء أو انقطاعا للمطر، حتى أجري في اتجاه الحانة، لكن المطر لم ينقطع والسماء ترسل ماءها خيوطا سميكة تقطع الرؤية وتغطس المدينة في الوحل والماء.. لا أحد قدم إلى الآن، الحانة فارغة، وأنا وزميلي خلف البلور ننظر في اتجاه البناءات العالية ومن بعيد تقابلنا أبواق البلدية المنتصبة على سطح المبنى، نظرت في الساعة كانت الخامسة، لكن الظلام زحف على المدينة والسحب من خلف تتهادى كجيش غاز تحمل الماء والبرق والوحشة– لم يأت أحد إلى الآن.

– لا أحد.

رجع جواب زميلي الملتصــق بي برقيــا.. تــرى مــاذا حــدث للسكارى.. لماذا لم يأتوا كالعادة يملؤون الحانة صخبا ودخانا.. ولكن بعد قليل سيأتي «عياد» يحمل في سلته ثلاث خبزات اثنتان لصاحب الحانــة وواحدة يأكل بعضها على الطاولة التي يجلس إليها حذو الصارية ويرجع الباقي إلى سلته، ليعود به إلى شقته الصغيرة.. بعد قليل سوف يأتي، أنــا على يقين من ذلك، خمسة عشر عاما وعياد يأتي في ميعاده، مع السادسة يحمل في سلته كالعادة ثلاث خبزات أنا نفسي لما دخلــت أول يــوم إلى الشغل بهذا المحل قال لي صاحب الحانة سيأتي رجل في السادسة ويسلمك خبزتين ضعهما هنا، وأشار إلى وراء المصرف، ومن يومها وأنا أرى عياد يوميا، ترى أيأتي اليوم أيضا فنتحلق حوله يحكي لنــا نــوادره الــتي لا تنتهي.. حين رأيته أول مرة كان شعره أسود مع بعض التجاعيد، قامتــه واقفه منتصب كالصارية.. طويلا كالعامود يمشي ورأسه مرتفعا.. لكنــه الآن بدأ ينحني قليلا.. وزحف البياض على شعره، وحلت الزمان منــه الكثير، فصارت له صلعة واسعة كشارع عريض تظلله الأشــجار علــى العدوتين.. اليوم سيأتي كالعادة.. لو لم يأت ستتعمق في نفسينا الوحشــة والغربة.. لا أحد قدم إلى الآن وحدنا أنا وزميلي ملتصقان ببلور النوافذ الواسعة ننظر إلى المدينة التي يترل عليها المطر كشلالات غاضبة.. المــاء يرتفع إلى فوق.. لكأنه ينبع من تحت الأرض، حتى الســيارات اختفــت كان من الممكن أن يؤنسنا صخبها وضجيجها، أن ينسينا هــذا المطــر المنهال، حتى الحوانيت التي تكون في العــادة مضــاءة أقفلــت أبوابهــا

وانطفأت فوانيسها، ترى لو لم أقدم هذا المساء أكان سيحدث شيء، ها.. إن أحدا لم يأت.

التفت إلى زميلي، كان وجهه لاصقا بالبلور ينظر إلى المدينة كانت الغربة متفشية في عينيه والوحشة تسربل وجهه: هات علبة ثقاب.

أخرجت سيجارة من جيبي، امتدت يده دون أن يجيبني إلى جيب سترته الأيمن، مدني بالعلبة دون أن يقول كلمة.. لماذا نحن صامتان؟ لماذا لا نكلم بعضنا فيزول هذا القلق وتزول هذه الوحشة؟ كم يلزمنا من رفيق حتى تنفرج أساريرنا ويفر الخوف من قلوبنا؟ أشعلت السيجارة وأعدت إليه علبة الثقاب، أعادها إلى جيبه، وعدنا إلى الالتصاق ببلور النوافذ ننظر إلى المدينة الملتحفة بالسواد، لا شيء سوى ارتطام الماء بالقاع، أمد يدي أحيانا فأمسح الغشاوة التي يرسمها تنفسنا القريب على البلور.. لا شيء سوى خفقان قلبينا واتساع عيوننا.. وهذه الوحشة الثقيلة تترل على صدورنا فنحس بالاختناق وبحاجة للبكاء.. ترى كيف يعيش «عياد» وحده في تلك الشقة؟ كيف سيقضي هذه الليلة لو لم يأت إلى هنا.. يقول لنا دائما إنه لا يريد العودة إلى شقته إلا وهو سكران أو نشوان لئلا يشعر بالوحدة.. يقول أعود فتتقبلني الجدران البيضاء كلاكفن فأرتمي على السرير كالجذع اليابس.. تمنيت كثيرا من المرات وأنا أولج المفتاح في القفل الصدئ أن يفاجئني أحد في الشقة.. سارق مثلا.. فأتشاجر معه. أو ولماذا أتشاجر معه؟ ربما تعشى معي.. أو ربما يبيت أيضا لكن لا أحد أجده في انتظاري سوى أدباشي المبعثرة وبياض

الجدران والسرير المسبول كالميت فأرتمي عليه كالجذع اليابس.. لولا الحقنة التي أشربها هنا لما نمت ليلة واحدة، حتى الأحلام لا تراودني، فراغ يملأ رأسي، فراغ يملأ صدري.. الحمد لله إن هنالك خمرة وإلا.. لكنه لم يأت الآن لم يأت كيف ستكون ليلته الليلة؟ البياض والفراغ.

السيجارة ترسل خيطها الأبيض الرهيف من بين إصبعي الممسكتين بها.. التفت إلى زميلي فإذا هو واقف حذوي، يداه مسبولتان كأننا في قفص المحكمة ننتظر صدور الحكم، أحسّ بدفء الدخان يتسرب بين أصابعي فأخشى أن تصل جمرة السيجارة إليه فأرفع يدي وأمجّ نفسا طويلا، وأنفث الدخان على بلور النافذة... حين أمد يدي لأعيد مسح الزجاج يقابلني «خيال» إنسان قادم، تسرع يدي تحك البلور.. ها هو قادم.. إنه «عياد».. أنا أعرفه من مشيته وقامته المنتصبة كعمود الهاتف، أسمر قمحي، ها هو قادم يلتحف سترته القديمة في اتجاه الحانة، تحرك الدم في جسمي، فجأة التفت إلى زميلي مسكته منن كتفيه

– هل هو قادم.

– عياد؟ نعم إنه هو.. ها هو قادم يسرع، ياله من رجل.

تراجعنا إلى الخلف تقدمنا نحو الباب المنفرج قليلا خشية تسرب الماء وظللنا ننظر إليه وهو يسرع في اتجاهنا.

لا يزال المطر ينهال، الترعات اتسعت على الشوارع وأمام الحانة، أصبحت المدينة كإمرأة ترفع ثيابها خوف البلل ولكن رجليها في الماء.. دخل «عياد» ينفض حباة المطر من شعره وعن سترته.

– يا له من يوم كلب.

قالها «عياد» وهو يجول ببصره في أرجاء الحانة ويحدق في وجوهنا.

_ أم يأت أحد؟

– لا أحد.

– لا أحد من الجماعة؟

– لا أحد.

– حتى عمك علي!

– حتى عمك علي.

– كيف العمل إذا؟

كيف العمل يا «عياد» ها إننا كالمساجين في هذه الحانة تسربلنا الغربة والوحشة، وهذه المدينة كالكلبة السائبة يبلها المطر ويوسخها الوحل، تعال جنبنا يا «عياد» ننظر إلى الشارع العريض والظلمة وأبواق البلدية.. آه لو ينطلق صفير تلك الأبواق مدويا عاليا صاخبا غاضبا:

اخرجوا يا ناس فإننا وحدنا.. أقدموا يا سكارى فإن عيادا وحيد ينتظركم.. لكن لا شيء سوى ارتطام الماء بالماء.

– كيف العمل إذن؟

– افتح لك قارورة؟

– لا .. لا تفتح لم يأت أحد إذن، كلهم فروا، المطر حبسهم في منازلهم.. حتى عمك على المتقاعد لم يأت أيضا.. لابد وأنهم في بيوتهم يتدفئون أمام اكلوانين يطبخون الشاي وينظرون إلى التلفاز، أطفالهم يلعبون حذوهم وزوجاتهم يضحكن ويتحدثن كثيرا .. لا بأس بالنسبة إليهم، ليلة وتمر، ربما من الأفضل أن يتواصل تساقط المطر، ففي البيت أيضا جو جميل، أطفال يلعبون.. زوجة تنتظر انتهاء البرامج، فراش واسع عريض وليلة حب جميلة في هذا البرد القارس، وهذا الماء المثلج الذي ينهال الآن ويرتطم ببلور النوافذ فيحسون بالبرد أكثر، ويلتصقون بالكانون ينتظرون انتهاء البرامج للولوج إلى الفراش.. لا بأس أن تمر هذه الليلة دون أن يشربوا.

– دعنا منهم أفتح لك قارورة؟

– لا .. لا تفتح لابد وأنه جميل أن يكون الواحد في بيته.. وحذوه أطفاله يصخبون ويلعبون، ربما يقلبون براد الشاي على الكانون، أو ربما يقلبون الكانون كله.. فيصرخ الأب فيهم أسكتوا.. إهدؤوا.. ولكنهم لا يفعلون يصمتون لحظات ثم يعود البراد إلى الكانون ويعود الأطفال إلى

لعبهم، والزوحج لا تزيد على تعليق: الواحد لا يفهم شيئا مما يـــذاع في التلفزة.. والأب ربما.. ربما يقول: الواحد لا يهنأ بشرب كأس شاي.. ما أشقى الأطفال، ما أجمل الأطفال، لو أن طفلا صغيرا، صغيرا جدا يسكن معي، يبيت بجانبي.. أضمه كابني، أجده في انتظاري حين أعود أحمل سلة الغلال، وقطع الحلوي أقول له: تعال يابني، افتح السلة وانظر ما فيهـــا.. ثم أغذيه.. اشربه.. أوسده.. أغطيه وأظل بجانبه أقرصه كي يفيق، كـــي يصيح.. كي يقفز على السرير بجانبي فأهتز لقفزه وأظل أرقص كطفـــل صغير مثله– كطفل صغير مثله.. لكن لا أحد أجده في البيـــت ســـوى الملاحف كالكفن، وبياض الحيطان وأشيائي التهافهة المنتشـــرة كبقايـــا القمامة.

– أأفتح لك قارورة؟.. هه «عياد».. ستبعث فك الدفء في هذه الليلة الكلبة كما قلت؟

– لا .. ليس الآن كلهم في منازلهم إذن. كلهم فروا إلى أوكارهم، وبقيت وحدي كالكلب السائب، لا أحد يفكر في، كانـــت القـــارورة تجمعنا فقط..لم تكن لحما والزوجة والأطفال، لابد وأن الجـــو جميـــل في البيت، لابد وأنه كذلك وإلا لما تأخروا، لما أبطؤوا، حتى عمـــك علـــى المتقاعد لم يأت، ليست له زوجة مثلي.. ماتت وتركته.. لكنه لم يـــأت، لابد وأن أطفاله حبسوه في المترل، كبروا كلهم الآن قـــد يكـــون الآن جالسا على أريكة يترشف الشاي، أو يطالع جريدة، هو يحسن القـــراءة لابد وأنه قلق.. لكنها ليلة وستمر.. ثم... ثم ربما يستأنس تلك الجلســـة

فيكتشف البيت.. سنوات وهو يشاطرني تلك الطاولة حذو الصارية.. قلت إننا لن نفترق بعدها ولكن ها إن أول حاجز يحجبه في بيته.. أية قارورة تلزمني هذه الليلة؟ وأي دفء ستبعثه في؟ البرد في قلبي.. البرد في صدري.. ليست القارورة التي تدفئني بل عم على والآخرون، هم الدفء والحنان والضحك والقارورة.. تري ألا يغادر أحدهم الدار ويقدم.. لا يزال متسعا من الوقت.. آه لو ينقطع المطر.. تتقشع السحب، تتمرد النجوم.. فتظهر السماء كعروس تغسل، تلمع عيونها.. فيقدم واحد منهم.. يقدم اثنان.. يقدمون كلهم.. آه.. يقدمون فنجلس هنا.. إلى هذه الطاولة حذو الصارية.. أنا أعرف كيف أنظمهم.. لا أحد يجلس مكان الآخر، لكل واحد كرسي ومكان، يأتون بخلاف لكنهم يأتون.. بعد ساعة يلتم شملنا.. ونبدأ في الضحك والتدخين والشرب.. لا نشعر بالوقت وهو يمر.. في الساعة السابعة والنصف يغادرنا محمود ليمتطي الحافلة الأخيرة.. تتواصل الجلسة مع البقية.. ثم يبدأون الانسحاب الواحد تلو الآخر.. وأبقى في الآخر وحيدا، ولكني سعيد.. أعود أحمل هذه السلة.. آه اليوم لم آت بالخبز.. لست أدري ما الذي حدث ولكني مررت على المخبزة وجدت العرف واقفا أمام الباب، دلفت بسرعة لأشتري كالعادة ثلاث خبزات لكنني لم أجد ولو كسرة.. قال لي صاحب المخبزة وكان وجهه أجهم كنهار اليوم: من أين تجد الخبز؟ عملة هذا الزمن.. يخافون المطر ويبقون في المنازل «كالولايا».. فهمت أن العامل الذي يشتغل في المساء لم يأت.. لكن لا يهم.. حتى عرفك لم يأت أيضا قل له ما تريد، على كل حال هو لا يأكل الخبز البائت.

- دعنا من العرف هيا بنا إلى الطاولة لأفتح لك قارورة.. ونمرح قليلا.. لا يهم إن لم يقدم الجماعة.. ها إننا ثلاثة.. هيا.. هيا.. الجماعة معذورون، أطفال زوجات.. مشاكل .. مشاكل الحياة.. أنت تعرف ذلك يا «عياد».

- أعرف، نعم.. في السابق كنا خمسة في الشقة التي أقطنها الآن وحدي.. مر عام ونحن نملؤها صخبا وحديثا وضحكا.. نتقاسم حبة العنب في سعادة.. ثم غادرنا ناصر.. تزوج فجأة كان صغيرا، لكن أمه أرادت لك بقينا أربعة، مر عام آخر غادرنا محمد وتزوج أيضا.. عاد بعد مدة يسب الزواج ومن يتوسط فيه، باختصار بعد خمس سنوات وجدت نفسي وحيدا.. جاؤوا بعد ذلك كلهم يشتكون يسبون الأطفال والزوجات والزواج ترى لم تزوجوا إذن؟ أم تراهم يكذبون لابد وأنهم في سعادة.. أو ربما .. ربما يريدون تسليتي بطرح مشاكلهم عليّ، مر كل شيء.. ها أني وحيد.. حتى البغايا لا يأتين إليّ.. في السابق حين كنا خمسة كن موجودات بانتظام في الشقة.. يدخل الواحد منا فيسمع همهمة أو يرى باب الغرفة مغلقا.. فيفهم.. أحيانا نتداول على الواحدة كلنا.. منذ سنة أو أكثر لا أذكر بالضبط.. التقيت بواحدة من اللواتي أعرفهن.. قالت لي: كبرت يا عياد! قلت لها : كبرت فعلا.. كان الوقت مساء قبيل المغرب بقليل قلت لها: هيا معي إلى الشقة.. نؤنس بعضنا فإن صدري سينفلق.. ابتسمت وتبعتني.. فتحت الباب ودخلنا، ولجت بسرعة إلى بيت النوم أين أسبل سريري، أطلت بعد دقيقة وهي عارية تماما.. استبدت بي الشهوة، وتملكني القرف وأنا أرى أمامي ما بين فخذيها

كلحية مؤدبي قديما.. بعد نصف ساعة حين أرادت الانصراف رجوتها أن تبقى بجانبي وتبيت هذه الليلة حذوي، لكنها أبت قالت لي: سآتيك مــرة أخرى.. المهم أنك قضيت حاجتك.. وخرجت من البيت.. فتحت باب الشقة صحت من خلفها: أرجوك لا تتركني وحــدي فــأني أخــاف.. ضحكت والتفتت نحوي قائلة: تخاف! نم يا حبيبي نم، فالصباح ســيطلع بسرعة وانطلقت.. ولم أنم.. ولم يطلع الصباح إلا بعسر.

لم يكن عياد رافعا صوته حين يتكلم.. بل كانت همهمة تخرج مــن بين شفتيه، فزادتنا وحشة وكنا ثلاثتنا واقفين خلف البلــور ننظــر إلى المدينة، وكان عياد متعبا.. كان يضع يديه على كتفينا، أنــا وزميلــي، ويهمهم لكأنه يبكي.. أحسست بحالته تلــك فتســربت إلى جســمي قشعريرة كدبيب النمل حتى أحسست أن رجلي ترتعشان، ومــا كانتــا كذلك قلت له:

– تعال يا عياد نجلس إلى الطاولة.

تبعني بثقل، وكنت أرى في عينيه بريقا حــتى إني خلــت أنهمــا تدمعان، جلسنا على الكراسي قلت له:

– أأفتح لك قارورة يا عياد؟

ظل صامتا ينظر إلى السقف تملكني الخوف وملأتني الوحشة قلت له:

– ما الذي يخيفك يا عياد؟.. ما الذي يحزنك يا عياد؟

ستمر السحب وينقطع المطر.. سيأتي عم على ومحمود والآخرون.

التفت زميلي الذي تركناه خلف النافذة ينظر إلى المدينة.. صاح نحونا.

– انحبس المطر.

قفزنا أنا وعياد مع بعضنا.. خطونا خطوتين.. وقفنا أمام الباب كان الماء ينساب والشارع العريض كالوادي.. لكن المطر انقطع.. خرجنا إلى الشارع رؤوسنا حاسرة ننظر إلى السماء كانت بعض الغيوم البيضاء كالحمام تمر مسرعة فتظهر بين تقاطيعها نجوم تتلألأ سرعان ما يغطيها البياض كفتاة تفاجئها العيون فترفع السفساري تغطي وجهها.. وكان ضخما، أطول مني. فكنت كطفل يمسك بأبيه. صحت فيه، والفرحة تحويني.

– سأفتح لك قارورة، وستشرب لقد زالت الغيوم، ودلفنا إلى الحانة يهزنا الفرح..[1]

[1] – من مجموعة «دار الغولة».

الكابوس

حفيظة القاسمي

ما رأيت كان حلما، لكنه كاليقظة وربما هو اليقظة زمن الحلم، لا أدري.. أو ربما كان حقيقة كل واحد فينا دفنها العقل عميقا، نداريها عن أنفسنا وعن الجميع. ربما.. لكنني متأكدة أنني دخلت الفراش قبل أن أرى ما أرى..

وأنني فكرت في كل الأمور كثيرا. وكل ما أعرفه عن الحلم، أنه رغبة مشتهاه حد الأنا الأعلى بينها وبين التسرب حسب رأي فرويد. لكن حلمي كان عجيبا لم أجد له تفسيرا عند جميع المفكرين، وعلماء النفس أمثال صدر بعل ودون كيشوت، وعمار العالم، وحليمة بنت العم عثمان.

أجل كان حلما. لكنه تحول هاجسا أتعب يقظتي، وحدد تفكيري ومصيري.

لقد نمتُ تلك الليلة على قلق. تخاصمتُ مع أختي من أجل عشاء الكلب.

قالت لي: اتركي قليلا من عشاءك له. فلم أفعل. فنعتتني بالقسوة. فقلت لها:

– يا أم الكلام.

فرفستني، فرفستها. لكني شعرت أن رفسها آلمني أكثر، فأمسكتها من شعرها، وأنزلت رأسها إلى الأرض، فغرفت بيدها التراب ورمته على وجهي. قالت لي:

– إنك بغلة شمطاء.

قلت لها: وأنت أتان حلق شاربها.

قالت: اخجلي!

فقلت: ولماذا أخجل منك؟!

فتركتني وذهبت ترفس كل الدنيا. وقد ترامت مؤخرتها إلى الوراء، دخلت الفراش وأنا أصطخب. دعوت عليها وعلى الكلب كثيرا. تمنيت أن تتزوج وتحمله معها. أو أن تتزوج به. ألا تحبه كثيرا!

واستغربت لهذا الكلب الأجرب المسطور كيف يفتن بيننا!

جلت بأفكاري طويلا. فهمت كل شيء إلا أن أكوت قد ظلمت الكلب.

لقد وجده أبي ذات يوم ممطر. وضعه داخل برنسه وعاد به إلى المترل. دخل به علينا ونحن نتحلق حول الموقد. وضعه أمامي، فحجب عني الدفء، حاولت أن أبعده. فلم يتحرك. نخسته بعود، فهر ثم عاد إلى

النوم. رفسته برجلي، فغمزني بغضه. رأيته يلتفت إلي، ويفتح شدقيه بقوة ثم يغلقهما في نبحة واحدة، ويعود إلى وضعه الأول.

قفزت من مكاني، تنازلت عنه للكلب، فضج إخــوتي ضــحكا، وتمتمت أمي:

– «تعال إلى ركني، وعاركني».

فانفتح باب الحكم والأمثال والنوادر. وبقي الكلب يتنعم بمكــاني كملك.

تواصل السهر إلى ساعة متأخرة. كان ذلك دأبنا طيلة الشــتاء. لا نأبه للشاشة أو لمسلسلاتها ونجتمع في غرفة منفردة بناهــا أبي خصيصــا لإيقاد النار كما القدامي، فكانت ملهانا والتحامنا.

أبي لا يطيق السهر. أما أمي، فكانت تشاركنا هرجنا وشــاينا، ثم تفترش بساطا بجانبنا وتنام، فإذا سمعت ضحكنا ضحكت معنا وهي نائمة. تقول لها:

– قومي إلى غرفتك يا أمي.

فترد: يهجرني النوم يا أبنائي حتى تناموا. فنتركها.

الكلب صامت بيننا. يمد عنقه متنعما. وأنا أكاد أنفجر. لقد أقلقني دخان الموقد كثيرا.

صاحت أختي فجأة:

- انظروا إلى الكلب.

فالتفتنا، فلم نر شيئا يستحق الاهتمام. إنه لايزال متنعما هادئا.

قالت: إنه يمضغ شيئا ملونا.

فلم نصدق، ثم صرنا نراقبه خفية. فكان يفتح عينيه شيئا فشيئا، ثم يعود إلى النوم إذا أحس بحصار الأعين. فاعتمدنا الحيلة فإن كان الكلب ذكيا بالغريزة. فنحن أذكياء بالعقل. ناورناه فناورنا. ولم يسقط في شراكنا حتى أتعبنا. وكانت الحقيقة طامة كبرى لم يتحملها أحد غيري لقد رأيناه يمضغ قطعة من فساتي.

فزعت واقفة، تفقدت فستاني. ما حال فستاني؟ هل أكله الكلب؟! أجل. لقد فعلها ابن الكلب؟!

شعرت بغيظ شديد. أردت أن أدق عنقه بحجارة الكانون. وأن أجره إلى الخارج ثم أشنقه . لكن الجميع قال لي:

- لا تفعلي.

فلم أفعل. ولأنني لم أفعل ما أردت منذ البداية، ظل الكلب سببا لكل المآسي التي لحقت والتي ستلحق.

صار، منذ أن أكل فستاني،، يلاحقني بالشم والتمسح. أبعده عني فينكس رأسه، وتذبل عيناه، ثم يحني ظهره في وضع بدا لي أول الأمر ذليلا، لكنني اكتشفت بعد ذلك أن ذكور الكلاب تضاجع إناثها بمثل ذلك الانحناء أُهره، فيتيم نظراته، ويطلق أصوات انكسار لحوحة. أتخيله يقول وكأنه يعاتبني:

– ألم تفهمي؟!!

ماذا أفهم؟ ما الذي تقصده يا ابن الكلب؟! أستشيط غضبا. يتسرب من أذني دخان كثيف، وأتخيل حاجبي غيوما راعدة، فأحمل الحجارة وأرجمه قذفا وبصاقا ونتفا لشعري فيختفي.

أقف مستثارة مستنكرة، فأراه يطل على بهدوء يفاجئني من كل مكان يحاصر طريقي، ويلغم اتجاهاتي وأفكاري بنظرات ذابلة، وبجسم طامع ذليل لأنثى خجل البرعم من نهديها وتندى.

رجوت أبي أن يطرده، فضحك كثيرا وقال:

– إن الكلاب مولعة بفستانك.

فلم أضحك.

أكتريتُ بعض الأطفال فربطوه بحبل، وتاهوا به بعيدا، ولم يحل المساء، حتى سمعت نفنفته ورائي، فغدوت إلى غرفتي أقفلها وأندس في فراشي خائفة.

إنه كلب مشرد قميء، فكيف يثير غضبي بهذا الشكل؟! كيف يؤثر على سير حياتي العادي؟!. وهل يمكن للحيوان أن يعشق إنسانا؟!!

يزداد تشنجي، وتمر أمام ذاكرتي عناوين متعددة لنصوص درسناها:

«وفاء كلب لدغته حيّة» «الكلب الوفي» «قتله الوفاء» «الكلبة فوكسة».. فيتعاظم غضبي، أحاصر يدي بين رجلي توترا. وفاء الكلب نوع من الذّل. الكلاب ذليلة بطبعها، وإلا فلماذا تقبل بالفضلات عشاء لها؟! ولماذا تقبل أن تسخر نفسها حارسة طوال الليل؟ ولماذا تعود وقد أطردها أصحابها؟!!

وقديما قالوا: إن القرد كان إنسانا استحم باللبن الحامض. وأنا أقول: إن الكلب كان كلبا استحم بالذل والمسكنة.

وهذا الكلب.. كم أكرهه! كم أكره عينيه الذابلتين، وذيله الذي يبصبص فرحا وشهوة كلما رآني.

لقد أخبرتني أختي عندما عدت من غيبة تعمدتها أن الكلب بات يعوي طيلة الليل وكأنه فقد روحه، وفي الصباح وجدته أمي يفترش بعضا من أثوابي القديمة يتمسح بها ويهرهر، وقد وجدته في اليوم الثاني يتوسد حذائي ويبكي، فبكت معه وقالت:

- هذا الكلب عجيب، وعلي أن أسأل المؤدب عن أمره.

فشعرت بالغثيان، وتبادر إلى ذهني سؤال:

– هل خلقني الله لتحبني الكلاب؟!!

صحيح أنني من مواليد برج «السعدان» وصحيح أن هذا البرج يتأثر بكوكب زحل، وتجتذبه مساحة «ذوات الأربع» التابعة للنجم الأكبر وصحيح أيضا أن عاقبتي ستكون محمودة كما قال المنجمون.. لكنني ما تخيلت أن يأتي الكلب ليؤكد حقيقة علم التنجيم وعلم خط الرمل أو.. قيس الأراضي.

كرهت المترل. وكرهت أن أعود من المعهد إليه، وباتت العائلة تتعجب لشدة حساسيتي ورقة شعوري. ثم تحول عجبها سخرية.. ثم لو ما وتأنيبا. ولم أهتم، قلت للجميع إنني مستعدة لكل شيء وحتى الانقطاع عن الدراسة والهرب بعيدا إلا أن يبقى الكلب بمترلنا.

وتفهم أخي نفسيتي، فاقترح على الحل. وفي موسم الكلب، عندما بدأت حملة تطهير المدينة من فساد الأخلاق والحشرات، أطلقه أخي في الشوارع المضاءة متعمدا، فانزاح عن صدري هم ثقيل عندما سمعت الطلق ثم العواء فالصمت. ولم أتأثر بحزن العائلة على فراقه بعد أن أنست به. وعدت إلى سابق عهدي بالمرح، وحب الاجتماع لكن المفاجأة التي حصلت بعد ذلك، التي لم ينتظرها أحد، أن الكلب عاد بعد أسبوعين من الغياب.

كنت يومها أجمع بعض الأوراق اليابسة من أسفل عريشة العنب، فرأيت عينين تطلان وقد برح بهما الشوق، فصرخت. أسرعت إلى أختي، ثم وقفت حائرة، ونادت الجميع.

لقد عاد الكلب.. أجل عاد، لكن شكله الأول لم يعد معه. فقد انقسم جسمه شطرين. اختفت قائمتاه الأماميتان، وأخفى ذيله، ولم يبق منه إلا قائمتان ورأس بعينين ذابلتين.

ولقد قال لي والدي عندما رآيا الكلب:

– اتقِ الله في خلقه.

فلم اتق. وبات شكل الكلب الجديد يحاصر أفقي، ويحرمني السعادة في النوم واليقظة، ولعل سني هو الذي عمق المسألة في ذهني، لأن درجة الوعي بالأشياء لابد أن تتخطى على أربع، ثم على اثنين كما الإنسان مثلما يقول القدامى.. وتجربتي لا تزال فتية، ولأنها كذلك، ولأنني لا أفهم الأمور كما يجب، زار الكلب منامي.

كنت ليلتها قد نمت على قلق. رفضت أن أترك له شيئا من عشائي بعد أن نفد الطعام رأيته يستقيم، ويلهث ورائي. أنفلت فيحاصرني، أشعرأن لهاثه يدغدغني وأكره ذلك يواجهني ثم يحاول أن يباغتني، فأنزلق منه، وأختفي.

أسمعه يقول:

– لن أتركك أبدا. سأتسرب إليك كما النفس.

فأستفيق مشدودة الأعصاب، ولا أنام حتى الصباح. جمعت كل ثيابي وقلت لأمي:

– لن أعود حتى يموت الكلب.

لكن الكلب لم يمت، ظلت صورته، وصوته يلاحقانني فبت أختفي منهما في كل الأماكن. ولا أستطيع. وبالتجربة، عرفت أن المكان الوحيد الذي لا يلاحقني فيه هو المحطة. فسكنت هناك. ولكي لا أموت جوعا، وجدت عملا شريفا، فقد نصبت نفسي حارسة «لبيوت الماء» أقف حذو أبوابها بعينين ذابلتين، وصحن بلاستيكي أخضر أسود قاعه، يضع فيه مسافرو المسافات الطويلة بعض الفرنكات إذا دخلوها مسرعين، وخرجوا منها بتأن وارتياح.

ويوما بعد يوم، صار وقوفي إقعاء حتى نسيت انفراد طولي. وبات الداخلون إلى المراحيض يكرهون عيني اللتين تلاحقان أيديهم المتبرمة. ولو كان الأمر بيدي، لأجبرت الداخلين على الدفع مسبقا حين يرتبط التفكير بالحصار.

نعم، لقد صرت خبيرة بطرق الاستثراء السريع ولم أعد أهتم بما يتناثر حولي من هر وسباب.

عندها تذكرت كلبي فأجمعت على الرحيل إليه.

العجوزان

نجاة العدواني

كانت المائدة ممتدة بيننا يانعة بكل ما هو أخضر، والنادل المهذب الأنيق بطربوشه الأحمر الاستمبولي على رأسه، وإليه «السروال» الشامي تهتز بين ساقيه، يجرح الصمت المطبق الذي توغل في نفوسنا بأسئلة ملحاحة:

– هل أجيئك بطبق «كباب»؟، هل أعجبتك «التبولة»؟...

ابتسم فؤاد، وقال:

– نعم، لقد أعجبنا الطعام.. لكن ضيفنا بكأس «عرق» على حسابك، أطبق «سعيد» جفنيه على ابتسامة شاحبة رفء في طرفها غموض، وجذب من «أرقيلته» نفسا مصحوبا بالتفاته إلى النهر.

هو لا يحب الكلام مثل فؤاد، طيلة وقت الغداء كان يتسلى بمشاغبة الطفلة التي صاحبتني أو يشخر بفم النرجيلة مستلا قلبها من بين أمعائها المائية.

بصمت أيضا كان يتأملني، عيناه جمرتان كساهما رماد الزمن، خبا فيهما بريق الصبا وحلت فيهما رعشة حلم يائس.

من وراء الزجاج كنت أحاكي «بردي» والنهر أيضا يعشق الصمت، اختلط خريره الخافت بشخير نرجيلة «سعيد».

سعيد وبردي عجوزان تجمع بينهما ذكريات كثيرة يتبادلانها الآن في صمت.. ولا يشركاننا في سماع الأسرار.

بتحفظ يرمق سعيد ضيوفه، ومن حين لآخر يسدل عينيه على ضحكة خافتة تختلط بحشرجة صدره الذي امتلأ من وحل هذه الدنيا بما فيه الكفاية.

أتأمله وأصغي إلى صوت لا يخرج من بين شفتيه المزمومتين برقة، كان الصوت يتدفق بطيئا من عينيه، ويقول:

– أنت صغيرة يا بنيتي، تجهلين سر هذا الرأس الأشيب كما تجهلين السر الذي أمنت عليه «بردي» ذات يوم.

وبينما كنت أحدق في تجاعيد وجهه بحثا عن سؤال تزحلق عن لساني إلى حلقي؟ هز رأسه نحوي، وقال مخاطبا فؤاد:

– المستقبل لكما، أنت وابتسام، فراسلها وهي ستكتب إليك، أنت شاب وهي أيضا أكاد أقول لا تزال طفلة، أما أنا..

وألقى بظهره على الكرسي رافعا وجهه إلى السماء:

– فقد ولى زماني..

أحسست بمرارة هذه الكلمات وهي تخرج من بين شفتيه مجرحة، مغتصبة.. كاندفاع رصاصة أطلقت في الغروب معادة بالتصوير البطيء.. ازداد وجهه شحوبا، والتمعت في مقلتيه دمعتان، إنه يكره الموت.

قال ذلك في مكتبه – إنه يكره الموت– قبل أن يدعونا إلى المطعم– ذات يوم أثناء تصفحك جريدة أو حينما تدريرين مفتاح المذياع بحثا عن أغنية لفيروز، واحدة من إذاعات الشرق الأوسط ستدفع الخبر دفعا في أذنيك: «إن فلانا قد مات، قد قتل..».

قالها وهو يرتجف خلف مكتبه الفخم كأن شبح الموت يهز جذعه من ياقة قميصه! رأيته صغيرا كطفل عجوز فأشفقت عليه منقبضة الصدر. الكاتب العظيم الذي أدهشتني كتاباته عن الموت هو الذي يفكر بهذه الطريقة المخجلة؟ الذي صارع البحر وتباهى أمامه بقوته، الذي نفخ في أبطال رواياته روح الشجاعة والكبرياء يئن تحت وطأة هاجس الموت كعجوز وحيد أعزل بين ذئاب صحراء الذي يلوح لنا بالأمل يكسر اليأس روحه؟!

أعدت النظر إليه باستغراب شديد وهو يترشف قهوته من فنجان جميل، وجهه يحتفظ ببقايا شباب غامض رغم الشيب الذي توج رأسه وزاده وقارا وهيبة. ندى الطيبة يلمع بين قسمات وجهه.

مهدد بالاغتيال؟ من طرف جهة ما؟ سألته بلهجة سريعة متوترة عن سبب خوفه وأية جهة يعني؟.. وكان جوابه مدمرا، أشعرني بأنه لا

وجود لشخصية جبارة في هذا العالم الأرعن، وأن المـــوت أقـــوى مـــن الحياة..

نطق لسانه كأن أخطبوطا يعتصر فؤاده، كأنه يدلي بوصيته الأخرية وهو يحتضر خلف مكتبه وقد غطى عينيه بيدين متشابكتين وكأن الحيـــاة خمدت في الأصابع والعينين، حين هدج صوته النعام:

- إنني سأقتل من داخلي- من نفسي- سأقتل بهـــذا الشـــيب.. ورفع يده إلى رأسه يطبق بأصابع متوترة على بعض الشـــعيران المتفرقـــة هلعا، ثم أضاف، وأصبح الآن يحدق في صباي باشتهاء ممـــزوج بحســـد واضح:

- أليس حراما أن نهرم نحن الكتاب ونموت دون أية شفقة على ما في صدورنا من حياة- من تعب ومعاناة- من عوالم. أف لهذه المخادعة.. كان صعبا على أن أجد الجواب عن أسئلته، وأحسست بـــبرد يقـــتحم أطراف جسدي وبثقل في ركبتي، وأنا أتخيل نفسي أجلس في مكانه وقد علا الشيب مفرقي وحدق الموت فيّ بعينين حمراوين واسعتين- ووجدت نفسي أطابقه الرأي وأكثر منه أخاف هذا الشبح المرعب، لكـــن رغـــم ذلك استجمعت قواي وهدأت نفسي- وأشرقت عليه بابتسامة دافئـــة وزاهية.. وقلت له وهو مازال يتحسس أعضاء جسد المـــوت الشـــائه اللزج:

إن الحياة جميلة وأنت لا تزال في عز الشباب. من يقرأ رواياتك لا يفكر أبدا في أنك ستخشي الموت يوما، والكتاب وحدهم يقدرون على هزم الموت، هذا الجبان الذي ظل يتسلط على الأجساد بعد أن تبلي كبقية الأشياء الزائلة، لكنه لا يستطيع التسلل إلى الروح الصامدة، إلى الحياة رغم فناء أجسادنا إذا آمنا بأننا سنبعث في ارواح القادمين من بعدنا، وسنكون أشجارا تستبدل أوراقها كل خريف لتستعيدها طرية نضرة في الربيع.

وحين انتبهت إلى نفسي وجدتني أوجه الحكم الخطابية إلى سعيد الذي اعتبره أستاذي توقفت عن الكلام ونهضت أصلح ثوبي الذي جعده الجلوس.. لكن صوت «وديع الصافي» الذي جاء يمحو الصمت أعادني إلى المطعم فلاحظت سعيدا يردد وراءه بصوت معذب تسربله حشرجة دافئة:

(ع الهدي يا باع الهدي

لا تخلّي يشوفك حدي

يا درب الولدني

يا سطعشر سني

يامين يرجّعني صغيّر

وياخذ مالك يا دني..)

كان يحرك يده إلى اليمين واليسار، وقد زادته الكأس التي أحكم شدها بقبضته، انتشاء، أصبح غناؤه أكثر وضوحا وتجلى في عينيه إلى جانب التماع الحزن الأصم بريق من السعادة المؤقتة، وأصبح وجهه منبسط الأسارير.

قال فؤاد:

شعرت أن فؤادا يريد فتح الحديث، فأجبته:

– ما رأيك في بطلة رواية سعيد الأخيرة؟

أردت استفزاز سعيد وحرمانه من الحلم الذي جاد به عليه «وديع الصافي» كأني أقول له: عد إلى الواقع فالشباب لا يشتري بالمال.

كان سؤالي حول شخصية امرأة خانت زوجها مع رجل هارب من واقعه لينسى، لكنه في النهاية يعود تحت سياط الضرورة.

قال فؤاد مثارا بسؤالي وغاضبا منه، خصوصا وهو يدعي الاختصاص في أدب الاستاذ ويعيد نفسه المحامي عنه:

– أنت لم تفهمي قصد «سعيد» كما كان يجب أن يفهم، هذه البطلة كانت بمثابة مجدلية بعثت لتطهر ما علق بروح الهارب الذي جاء إليها من دنس الواقع المر.

وتصارعنا كثيرا، وكنت في كل مرة أحاول استفزاز سعيد أكثر، لكن بقدر ما توتر فؤاد وخرج عن صوابه إلى حد الصراخ بقي سعيد يرمقني بابتسامة هادئة زادته هيبة، وكأنه يقول لي:

– افعلي ما شئت، فأنا راض بثورتك يا صغيرتي جعلني ذلك أدير وجهي إلى «بردي» علني أسمعه يردد أغنية «وديع الصافي» التي علقت بلسان سعيد الذي صار مثل أسطوانة مشروخة، ولكن النهر واصل همهمته، وكأنه يرثي لحالي قائلا: غدا ستكبرين يا طفلتي وترددين أغنية «وديع الصافي» بعد سعيد.

أما أنا «بردي» فالماء يغسل تعب السنين عن وجهي فلا ترون تجاعيدي ولا تدركون هرمي، ولا تسمعون غير همهمة خافتة فها فرح السعداء ودموع الجرحي «بردي» نهر لا يخرج على مجراه، لا يخون من عاشره، ليس بحرا يهدم الذكريات بموجه. ويكسر الزمن بصخبه وينسي «بردي» يحتفظ صامتا بأسرار كل الذين مروا ذات يوم من هنا، ربما كان بينه وبينهم زجاج نافذة، أو ظل شجرة، لكنهم دائما أحياء يتحركون على صفحة خده الهادئة.[1]

[1] – من مجموعة «مرايا لجثة واحدة».

الأبيض والأسود

الأسعد بن حسين

الآن وبعد أن تأكدنا من مصيرنا فإننا غير نادمين عما اقترفت يدانا، وعلينا أن نغنم السويعات الباقية لنا في الحياة كي نعيش: نلعب الشطرنج.. لقد أحسنت إدارة السجن صنعا إذ وضعتنا في زنزانة واحدة ومكنتنا من رقعة شطرنج فلم نطلب طيلة الحياة غير العزلة واللعب.

تعود معرفتي براجح إلى سنوات طويلة.. كنا طفلين جمعتنا رقعة شطرنج في ناد ثقافي.. أذكر أننا منذ أول «طرح» جمعنا سعينا إلى تحقيق لذة اللعب فلم يلهث أي واحد منا وراء الانتصار، بل كنا نصلح أخطاء بعضنا ونحاول أن تدوم الجولة أطول وقت ممكن.

حين غادرنا النادي يومها كنا سعيدين بعقد الصداقة الذي وقعه الشطرنج بيننا.

ورغم اختلاف حيينا، وحالتينا الاجتماعيتين، فقد استطاعت صداقتنا مع الأيام أن تصمد أمام الهزات وتتمتن.. وأصبحت معها كل برامجنا مشتركة دراستنا الثانوية والجامعية، سكننا.. مقهانا.. أذكر أننا

حين نجحنا في اجتياز مناظرة الابتدائي اتفقنا أن[1] نشيد بناية عندما نكبر، يكون طابقها الأعلي سكنا موحدا لنا، وطابقها الأسفل مقهى اتفقنا على تسميته مقهى الرقعة.. يكون بهوه ثمانية أمتار على ثمانية، وكل متر مربع منه عبارة عن مربع رقعة شطرنج.. أرضيته بيضاء وسوداء رخامية.. وطاولاته القليلة في شكل رقع شطرنج أما كراسيه فأفراس وأرخاخ وبيادق وملوك.

كان كل شيء في ذهنينا يعمل بالشطرنج.. ولم نكن نعلم أن معاهدة صبيين ستتحول مع الأيام سيفا مسلطا على رقبتينا.. كانت السنوات تمر ونحن نلعب الشطرنج.. تتغير القيادات النقابية والسياسية.. ونلعب الشطرنج، تتوالى خيبات منتخب كرة القدم ونحن نلعب الشطرنج.. ببساطة لم نعش مراهقة الأطفال ولا نزق الشباب كالآخرين.

ولقد حملت لنا السنة الأخيرة من دراستنا الجامعية مفاجأ ة سارة من والد راجح.. إذ منحنا الأرض اللازمة والمال الكافي لإنجاز حلمنا.. ولم تدم الأعمال طويلا، لنرى حلمنا يتحقق.. مقاهانا الأبيض والأسود... ينتصب شامخا أمامنا.

لم يكن الاشتغال في الوظيفة يهمنا بقدر ما كان يهمنا أن نتفرغ لمشروعنا.. وقضينا السنة الأولى به في أبهى صورة.. نمينا مكتبتنا الخاصة بهذه اللعبة..

[1] – هذه القصة وقع تحويلها إلى شريط سينمائي قصير بعنوان «صبرية» ضمن مشروع «أحلام أفريقية».

أدمنا اللعب حتى صارت لنا سمعة محترمة في البلد.. إلى جانب أن الزبائن كانوا يتكاثرون وإيراد المقهى يزيد.

وبرزتا فجأة في مقهانا.. لتقتحما حياتنا.. آه ما أصعب أن تعيش صداقة قوية امتحان الحب.. جاءتا ذات يوم شتوي ممطر بحثا عن الدفء، واكتشافا لهذا المقهى العجيب.. وكنا في زحمة دراستنا وانغماسنا في الشطرنج قد نسينا قلبينا فلم ينبضا قط بحب امرأة.. عاودتا المجيء، بشكل مطرد، أزال الكلفة، ونزع عنهما صفة الزبونتين لينفجر الحب فجأة، وليتحول سريرانا الصغيران إلى سريرين كبيرين.. لقد التزمتا في بداية اقامتهما معنا باحترام صداقتنا أنا وراجح.. وتعلمنا منا دروسا كثيرة في قواعد الشطرنج.. لقد عرفتا أن ما يجمعنا أقوى من الحب، بشكل يجعلنا نسختين متطابقتين سلوكا وطبعا ورغبات.. ليلة الحادثة أقفلنا المقهى باكرا، على غير العادة، أعدتا العشاء، ولبنا الخمرة، لم نكن نشرب كثيرا أنا وراجح، كنا نكتفي ببعض الكؤوس من فاخر الشراب في مناسبات متباعدة، لكن ليلتها– ولأننا كنا سعداء ربما– شربنا بشيء من الإفراط.. المهم أننا لم نفق من نشوتنا إلا والرقعة قد أخذت مكان الصحون.. أذكر أن فائزة – حبيبتي– التصقت بي كثيرا.. أذكر أيضا أنها كانت همس في أذني ضرورة أن أنتصر.. وربما شاهدت نجوى – حبيبة راجح – تحفزه وتحرضه على الانتصار أيضا.. لم نتعود أن نلعب بنية الربح والخسارة.. كانت المرة الأولى التي أواجه فيها راجحا بنية التغلب عليه، كنا نبطئ تحريك القطع على الرقعة.. لم يسمحا لنا بإصلاح أخطائنا.. وكان على كل واحد منا ألا يراجع حركة قام بها.. أذكر أن

راجحا لعب ليلتها بالجيش الأسود نتيجة قرعة كانت الأولى من نوعها بيننا.. فكنت سابقا له بحركة.. ومع كأس الخمرة الأخير وبعد تفكير دام أكثر من اللازم، رفع راجح عينيه إليّ.. رأيت فيهما بريقا لم يسبق لي أن شاهدته فيهما، هل كان بريق الحقد؟ أم بريق الاعتذار أم بريق الشعور بالخيبة؟ المهم.. لم يمعن النظر كثيرا، بل اندفعت يده اليمنى لترمي ما تبقى من قطع على الرقعة.. وصعد مباشرة إلى غرفته.

أذكر أيضا أنني لم ألتحق مباشرة بغرفتي رغم أن فائزة سبقتني إليها.. بل شغلت آلة القهوة وأعددت لي فنجانا أحتسيته وأنا أعفر في ظلام المقهى سيجارتي.

حين صعدت إلى غرفتي كنت قد حزمت أمري.. فتحت بابها وعلى ضوء المصباح الصغير.. شاهدتها عارية على الفراش تبتسم قبل أن تخاطبني «أما وقد أوصلته إلى تلك الحالة.. فلن أرفض لك الليلة طلبا!!!».

أذكر أني افتعلت ابتسامة وطلبت منها أن تغمض عينيها فقط.. وإذا استجابت.. أسرعت إلى الخزانة.. وجذبت منها ربطة عنق.. لففتها حول رقبتها وبدأت أضغط طرفيها أحسست الأنشوطة وهي تضيق حول عنقها ففتحت عينيها.. حاولت الصياح فما استطاعت.. حاولت أن تدرأ عن نفسها الموت بيديها فلم تقدر.. وسرعان ما خارت قواها وجحظت عيناها وتهاوت على السرير جثة عارية هامدة.

أذكر أني خرج بعد ذلك إلى البهو.. تهالكت على الأريكة الكبيرة واشعلت سيجارة.. وقبل أن أجذب منها نفسين سمعت باب غرفة راجح يفتح، وبعد لحظات رأيته يخرج وفي يمناه سكينا.. تبينت رغم خفوت الضوء بقايا دم أحمر قان عالقة به.. التفت نظراتنا.. ابتسمنا.. وقمت أحضنه. كانت بعض الدموع تنهمر من عينيه.. همس في أذني «لم يكن أمامي حل آخر» أجبته: وأنا أيضا.. إنها المباراة الوحيدة التي لعبناها معا، ومات فيها الملكان في نفس الوقت!! ابتعد عني ابتسم قائلا: «جهز الرقعة.. سأهتف إلى الشرطة.. مازال أمامنا متسع من الوقت كي نلعب آخر مباراة خارج القفص»، مشي بضع خطوات ثم استدار قائلا بجدية مفرطة: «إذا حكموا علينا بالإعدام لا تنس أن تطلب منهم دفننا في قبر واحد.. مع.. رقعة شطرنج»!!!

وها إننا ننتظر انبلاج الفجر كي نذهب لتعليم الجن والملائكة لعبة الشطرنج..[1]

[1] – من مجموعة «معجزة أخرى للحب».

صخب الذاكرة

فوزية علوي

برد ثقيل يسري في الجسم فيتكور ليصير بلا رأس، يبعث في القلب عصيرا حامضا، ينتابني الدوار، ألتف على نفسي في لحافي، عقربا استاءت لذيلها فأرادت قطعة.

آه.. من يصب على ماء حارقا لأستعيد شكلي العمودي؟ الثلج يتـــراص في القلب ويعسكر في الحشي، تتكلس الأطراف وتتورم الأجفان وللجلد حرق بارد، ماذا لو أوقدت النار يا صالحة؟ ماذا لو أتيتني بقرص فوار أو هاتي قدحا من الزيزفون الساخن وسطل ماء يضطرم أرمي فيـــه قوالـــب الثلج هذه.

طقطق الفحم ما أعذب شذاه، ذكري ذرة مشوية وبيض وفـــول، ذكري أسنان بيضاء تقضم في جذل وامتنان، ذكري أقدام راقصة تبلـــع المكان وعلى الزمان تدوس.

شكرا يا صالحة، يا سيدتي الطيبة. حطي الكانون علـــى الخشـــبة واحذري حرق الزربية، تلك أعز من روحي يا صالحة أمي نسجتها أيـــام كنت في المهد أرأيت ألوانها؟ فيها الوبري وفيها البني وفيها مـــا صـــبغته بالحناء، ضعي الإبريق يا صالحة ودعي الماء يعانق بخاره، دعيه وئيدا فأنـــا

مللت «الإكسبريس» وهاتي بخورا حطيه على الجمر، ودعي الروح تتعطر.. آه يا ليلة العيد ويا عطر الصبا ويا مسجد الحي القديم، ويا قناديل الفرحة وقرقعة الصواني، ويا لذة الكعك المضمخ بالورد والأحلام. متعبة أنا يا صالحة وحزينة، فاصبري على ضجري ولا تلوميني.

ما أعظم هذه المرأة كيف تفهم ما أريد وأنا لا أتكلم؟ بل لعلي أتكلم وأنا لا أعي في خضم عاصفة الثلج التي غزت خارطتي.. لعل نفسها الطيبة تستلهم إلهاما ولها من الحدس ما يغني عن السؤال.

ألك في رأسك ما في رأسي يا صالحة؟ أتتساءلين عن خطوط الطول والعرض وتميزين بين المساحة والحجم؟

أيؤلمك الزمان وبك المكان يضيق؟ يختزل، كعين النملة يصير. أيهمك إن كنت وجدت حكمة أو صدفة؟ ألك هذا الدوار؟ أتقرئين الوجوه والعيون؟ ألك من ضياعي ومن ألمي؟ أينتابك البكاء مع الغمام ومع الريح تجنين؟ أتلعقين الندى؟ أتتبعثرين كالرمل وتنتثرين كالمطر؟ أصرت يوما ذبابة وسبحت في قعر فنجان من القهوة أم كنت التحفت الرماد ذات كانون جمرة تنتظر الزفاف؟ قولي.. هل كنت كل هذا يا صالحة؟ أم أنك كتلة من الصبر والعرق والحب دون أشكال أو أحجام.

تأجج الفحم، تضوعت ناره، وسكنه قوس قزح، هللي يا شرائط العيد الملونة. واركضي يا طفلة مجنونة وراء الطبل والمزمار وجوبي الأزقة

بأكف تحني وقلب راقص كالشجر، واستمرئي الحياة أقراصا من الحلوى يوشيها اللوز وحب الضوبر.

فار الماء وسال العطر، فهنيئا لك يا قلب، ترجلي تدحرجي يا كرة الثلج وذوبي وسط هذا الماء الدافئ فها قد طلع النهار.

عانقت أصابعها المجمدة قدح الطين، لكم تعشق شذاه! كانت تضع القطعة الصغيرة تحت لسانها تمتص روحها فتبيض شفتاها ويتفطن إليها المؤدب فينهاها غاضبا، «لحمك تأكلينه» ألم تسمعي قوله تعالي «خلق الإنسان من صلصال كالفخار».. ثم يأمرها بغسل لوحها في حوض صغير آسن الماء، غطى الاخضرار حواشيه، وأغرى بعض الضفادع فسبحت فيه محدثة هرا، كلما غفل المؤدب أو ذهب ليصلي العصر.

كان من عادتها أن تغطس لوحها في «المحاية» ببطء شديد فترى السطور كيف يغمرها الماء واحدا واحدا وهي تردد عن ظهر قلب، الرحمان علم القرآن.. والطور وكتاب مسطور في رق منشور «كان وقع الكلام على نفسها شديدا ينتابها كالسحر، وهي تتخيل الجنة كلما حان للشمس مغيب، تراها في الشفق واحة ونخيلا وظلا ظليلا وتينا وزيتونا وماء وعيونا ترى الجواري حسانا يرشقنها بقلائد المرجان، وهي تضحك طروبا وتستحم في الكوثر.

ينهرها المؤدب يسرق حلمها تستفيق وتتعالى أصوات الأطفال «القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة» والعصا تطقطق فوق اللوح

ورائحة الطين والقش اليابس تتمازج بالأنفاس، رائحة أليفة حفظتها الذاكرة وبها تستحم كلما ضاقت بها المدينة.

أين ذاك السحر وذياك اليقين؟ والمدينة ملوثة وحزينة والعمر ركام من سنين متورمة مقهورة والقلب ماسورة لهم ثقيل.

إيه ما ألذ الزيزفون لكأنه اللقيا بعد غياب طويل فيه شذي النعناع وريح مطبخنا القديم.. مشتاقة إليك يا أمي وإلى الثوم المتدلي كقناديل العرس من السقف وإلي ثوبك المعطر بالتوابل والحب.

يا.. كم أشتاق إلى خصومتك الطويلة مع دجاج يدنس المكان وأنت طاهرة تصلين وحرصك مع ذلك على كل بيضة وكيف تحفين الفراخ بعطفك الراذع وكيف تحفظين أسمائها كالأولاد «الأسود والأرقش وطويل العنق» وتستائين للدجاجة العجوز حينما تموت.

تستفيقين مع الفجر شعاع نور تبذرين الحب وترويين القرنفل و«الست مريم» وتوقدين.. ومع إطلالة الشمس ونحن نيام تدغدغ أنوفنا نسمات قهوتك العاشقة وتدقين بقديمك الصغيرتين أنغاما تهفو لها قلوبنا من بئر النعاس.

مقرورة أنا يا أمي فأين يداك تغمراني بالدفء، وأين صوتك يبدد الوحشة الجاثمة كالعنقاء على قلبي؟

لا تغادري الساعة يا صالحة فأنا متعبة وأضيفي الفحم فأنا أخاف فتور النار، لا، لا، ترقيني ولا تتوهمي أن جنيا عشقني فسكن حشاي..

إنما أنا مشتاقة وحزينة، أريد الزمن مهرا في يدي أسيره كما أشاء، وأريد الأيام كتابا أعود إلى صفحاته الأولى، كلما اشتقت وأجتاز حاضره إن لم يرقني إلى مستقبل كأنه العيد مالي كحباحب الحقل كنت جذلي بلا مال ولا عطور ولا فساتين؟! مالها السماء كانت وسيعة والأشياء لها طعم الفرح؟ وما لدريهمات «الخميسية»[1] يأتي بها الأطفال إلى أبي تفرحني كأنها كنز سليمان، وأشتري البلح والرمان والخروب فأراها من ثمر الجنة. ومالي قرفة هذه الأيام؟

لا طلاء الأظافر مبهج ولا الأحذية البراقة ولا الفساتين، مالها الرأس تميد؟ تنوء تحت وزر النظريات والأحكام والشعارات، فنحسب حسابا للمناصر والمعارض والمخادع والمحايد، ويتأول علينا ونحن لا نقصد ونقصد ولا نفهم ونفهم فنتجاهل ونتبرم نتبرم ولا معنى.. إلى الجحيم يا حساباتهم ويا انتصاراتهم ويا نكساتهم.. دعوني.. دعوني فقد ضقت.. للماء الساخن فعل ساحر في قدميها سريان الروح بعد موت كاد يكون نهائيا، تنشرت أصابعها كالبطة وأحست بالحرارة تجتاحها فاستقام الظهر بعد أعوجاج، استعادت إحساسها بالمكان، وقفت تتعلم المشي بعد غيبوبة طويلة خالت نفهسا فيها كرة من الثلج. عمدت إلى قارورة الزيت صبت كثيرا على رأسها، شعرت به ينساب يتنقط على جبينها وقفاها. تراءى لها كأن يد أمها تدلكها فاسترخت. أي مرهم كان في كفها وأي تحنان؟! وكم كانت تأنس إلى مغزلها تلف عليه شالها وتمرره على جسدها ترقيها

[1] – نقود يأتي بها الأطفال إلى المؤدب «الشيخ» مساء الأربعاء احتفاء بعطلة الخميس.

مرددة: «كانت من أمها اخرجي من فمها. وكأنك من خالها اخرجي من خلخالها وكأنك من جارتها اخرجي من فارتها»[1]

– من ذا الذي يخرج يا أمي؟

– عين خبيثة لعن الله أولاد الحرام.

وتضحك في قلبها وتقبل أمها بامتنان مرددة في سرها «مازالت البركة» ويحنا يوم يرحل هؤلاء الطيبون.

غادري الساعة يا صالحة يا امرأة طيبة ولا تتأخري عني غدا، فمن لي سواك في هذه المدينة الصفراء؟

هي ذي النافذة. كيف غاب عنها أن تفتحها؟ لكم كانت تشعر بالاختناق والبرد مع أن الجو يبدو أرحب خارج قلعتها الإسفلتية.. فتحتها.. ما أوسع الأفق!! ما أشف السماء؟ لكن مرأى الأشجار وهي تتعرى بعث في جلدها كدبيب النمل أفاقت، عادت تستشعر المكان والزمان.

غرفتها في طابق علوي والوقت مساء، هي تعرف أوبة الشمس هذه والحزن المسائي الذي يحدثه المغيب، أما اليوم فبعض ديسمبر الرتيب، لكم غدت أيامها متشابهة كالأوراق التي تتعامل معها كالوجوه الممسوخة التي تحيط بها وكم صار لغياب تلك العيون التي أحبت جرح ممض في النفس يذهب غورا في القلب فيرشح الجبين.

---

[1] – ربلة الساق.

مدت بصرا مترنحا إلى الأرض وقد كساها رذاذ من مطر عـــذب والصاعد إلى أنفها روح التراب المبلل فأغمضت عينيها.

هو الصلصال، وهو اللوح المغموس، ورائحة المســجد، وأنفـــاس الصبيان، وهو وجه ابيها الداكن السمرة كـــالطوب بشـــاربه الجليـــل. وكلامه الشجي العذب، يا لشوقي إليك يا أبي، ويا لبرنسك يا ســـيدي، نتخفى تحت ظلاله الرحمة فراخا وديعـــة.. نتكـــدس، نتـــدفأ نتـــزاحم نتشاكس، تنهرنا بلطف، فنخبو وتتسلل إلى أنوفنا روائح عجيبة: تـــراب وزبيب وتبغ وشعير، وتسبينا حكاياك وصوتك يتهادى في صحراء اللغة جوادا يقطف النخيل والأقمار.

ونطرب لكلامك المسبوك، ونود أن نعيده فنعجز «الصيد الأصفر صوال، جال في الغابة، وقال:

وين هي صبرة

وينها ضفايرها،

وينها مسايسها،

وينها خواتمها،

نشمّ في ريحة بخور

وحنة وسخاب جلاب

وعطور..

وتشئب أعناقنا تحت البرنس، وتشخص العيون وتفغر الأفواه دهشة وإعجابا، وأمي في ركن البيت تستمتع بزغردة مغزلها يدور في المهراس، ويدها تجذب خيط الصوف في حنو، ثم تكدسه على يسارها في غربال امتلأ، فتتعهده بين الحين والحين بكفها كأنما تخشى عليه شرا ما.

ويسرقنا النوم وتناجينا الأحلام ومع الشمس ننط كضفادع الغديروهيم في السوق الفسيحة، وننتشي للروائح المنبعثة من كل مكان: فول بالكمون، وأمعاء مشوية وبخور جريدي وعصير ليمون، وروث بهائم، ومناجل تحترق تحت لفح الكير وشاي بالنعناع ونحن نجري.. نجري نتسلل بين الحشود المتدافعة، تسبينا أكداس البضاعة: فلفل أحمر ورمان ولوز وثوم وسمك مجفف وأحذية مطاطية وسلال وأغطية من صوف ومرايا وحكايا وصور «لعبد الحليم حافظ» و«عبد القادر الجيلاني» و«رأس الغول»، وكتب لإبطال السحر و«الحصن الحصين» و«دلائل الخيرات» ورجل أبرص يبيع إبر «البابور» ومبيد الحشرات، وآخر يدعي أن له مادة عجيبة تصلح كل مكسر: صحونا أو كؤوسا أو رؤوسا، وحرباء تتدلى من عنق شيخ وصدفة لسلحفاة فيها مادة عجيبة يلعقها نساء متحلقات....و..... و.... ونحن نجري، مهرجان الفرحة هذا تهبه لنا السماء كل أسبوع، ننهض فنجده بحرا هادرا، صاخبا كأنا لشمس ولدته.. سبيل السلال لا ينتهي والبغال والأحمرة والعربات والخرفان

والنساء محملات بالبضاعة والشبق، وطقطقة اللوبـان تحـير العشـاق والعيون العسلية، ومواعيد حب تخبئها القلوب إلى السوق القادم.

وعند المساء تقفر الساحة وتبقى الجلبة في رؤوسنا ونقـوم بجولـة حظ نبحث فيها عن نقود سقطت، أو خاتم نسيها بائع أو قرط، وتقـول أمي كلما عدنا فرحين: «هو رزق الأطفال تهبه الملائكة»: ونظل نضـفر حزنا خفيا حتى تعود لنا البهجة مع السوق الجديد، فماله السوق في هذه المدينة اللعينة مختنق معلب كئيب؟ وماها البضائع بلا لون ولا طعـم ولا رنين؟

وماها الوجوه ضائعة مقفرة بائسة؟ ذا رجل ينوء تحت أثقال الجزر والخردل لا يدرك من المدينة إلا الأرجل والأحذية الوسخة وذا الطفل من سلب فرحته؟ وماله يعصره البكاء أين كعكة وحكاياه؟

وذا المنتفخ الأوداج ماله يتداعى، دافعا منطادا أمامـه ويتخايـل بنظاراته السوداء متصورا نفسه في غاية الأناقة؟ والنساء مطليات بكـل الألوان ولا بهجة في العيون، والعجائز يبعن الدشيش والحمص والمسلوقة وماء الوجه، والأصابع كالعناكب البائسة تعد الـدريهمات وللـرؤوس حسابات وفواتير، كراء وماء وهواء نفذ.

***

أحست بنفسها تميد، جرت إلى الحنفية تفجر ماؤها على رأسـها فأحست براحة عظيمة وجرت إلى خزانتها تجمع ما وصلت إليه يدها من

ثياب، حشتها مبعثرة في حقيبتها الصغيرة، وأجالت بصـــرا مـــذعورا في الغرفة القارسة.. كتبها لابد لها منها لكنها متعبة ولن تجد الوقت لقراءتها ستقضي الوقت تعشق وتتداوي فماذا تفعل بالأوراق؟

لحظات وكانت في الشارع الطويل تبحث عن ســيارة أجــرة ولم تكترث لصديقتها تناديها: «إلى أين يا مجنونة؟ غدا يحاضر «ب» المقبل من «السوربون» الطلبة سيأتون من كل الكليات ماذا دهاك؟ هـــلا سمعـــت خبرا سيئا؟ هل أنت مريضة؟».

اسمعيه أنت واشبعي بالأطروحات، أما أنا فمصدوعة وأبي مـــريض أشعر بأنينه لابد من عيادته وأمي ولاشك تنتظرني في قلبها فعاشوراء على الأبواب وكسكسي القديد أشم الساعة نشره متضوعا في الزقاق.

سجلي أنت المحاضرة وسأعود..

لهثا جرت والدمع في قلبها والحكايا وحينما احتلت مقعدها كـــان الشيح يعبق والمطر يوقع على زجاج السيارة في لحن شجي.[1]

[1] – من مجموعة «علي ومهرة الريح».

الورد والرماد

محمد آيت ميهوب

شابان جميلين كحبتي سنابل القمح.. كم من قطرات مطــر رأيناها تتسكع في جفونهما. والشمس الغافية تحت مصابيح حينا العتيقة، كنا نراها تلمع في عيونهما.. إيه يــا تــراب الذكريات كيف لم نستطع أن ندفن فيــك صــورة تلــك الصبية، وذلك الفتيان الصــغيرين وإن جــاوزا الــثلاثين، البريئين وإن قاربا الثمانين.

كان لهما وجه طفل بعيد وغريب.. إنني الآن وبعد ما مر، ما مــر مــن قصص وحكايات، أحاول أن أرسم أمامي صورتيهما كهلين فلا أرى غير خيال ذلك الطفل يرقص في ذاكرتي من زاوية إلى زاوية وهــو يضــحك بسخرية قائلا: «إنني هنا، فلا تقع في غير الطريق».. آه يا صحاب الزمن الأول، أنتم الذين أصبحتم الآن حروفا تكتب عنــوان الحــديث، هــل مازلتم تنصتون إلى وقع خطواتهما وهما يمران بيننا؟ وأنت يا ناديا أمازلت تذكرين تفاصيل تلك اللعبة على سطح بيتنا بعد كل غروب نشــيعهما فيه؟ ومحمود أنت الخجول، أما زالت أنفاسك تتقطع ويشحب صــوتك كلما تلصصنا عليهما وهما يتبادلان القبل تحت خيمة القمر؟

كان ذلك أيام الحرب الثانية نحن آنذاك لم نكن نعلم ما معنى لفظة «حـــرب» ولم نكـــن نـــدرى أننـــا نعـــيش تلـــك الســـنوات: 1945،1942،1941،1939.. لم نكن نعلم أننا عشنا تلك الفتـــرة، بعد ذلك بزمن طويل.. كل الذي أتذكره هو أنها كانت أولى الأيام التي فتحت فيها عيني على الشارع، أي على الشمس والقطط والناس.

ومازلت أتذكركم كان من الصعب علينا أن نفهم أن الناس الذين فتحنا عليهم عيوننا والقطط التي نداعبها والأسفلت الذي نرهقه بلعبنا، قد ودوا قبلنا. كنا هنا فيجب أن يكون كل شيء لنا.. حتى الشـــابين، لم نفكر فيهما يوما: من أين قدما وإلى أي بلد ينتميان ولم يكـــن يعنينـــا أن كانا فرنسيين أو ايطاليين أو ألمانيين.. كنا لا نفقه كلمة مما نلتقط منـــهما ولكننا ما تساءلنا يوما: لم لا يتكلمان لغتنا؟ والصليب الذي كانت تحمله الفتاة، لم يجعلنا يوما نستغرب: لم أمهاتنا ليس لهن مثله؟.. هاهما يظهـــران عند أول الحي فعلينا الانقطاع عن اللعب ومراقبتهما وهذا يكفي..

كانت أماسي صيف ذلك العا رقيقة ودافئة، تصور لنا الشارع جنة صغيرة بحقوله الصفراء بعد انتهاء الحصاد ودروبه الطويلة الممتدة أماما في حالة عناق حار مع السماء. وما إن تنتهي القيلولة حتى نندفع من بيوتنـــا إلى الساحة الكبيرة حيث الركض والغناء والعراك.. وتأخذنا الفرحة بين جناحيها وتصعد بنا تارة إلى السماء وتـــارة إلى الأرض ويصـــبح العـــالم خارجة الساحة مرآه لنرى فيها سوى صورتنا البهية، ونخشـــى انقطـــاع

اللعب ونجزع من سماع اللهاث فنروح نزاوج بين الألعاب فتتوالد ولا تموت.. وما يمنعنا عن مواصلة اللعب.

ولكن فجأة، تتوقف الرحي عن الدوران وينقطع رغما عنا صوت موسيقاها الحنون، فنلوذ بصمتنا ونستمع إلى شهيق العيون وهي تنتظر القادمين.. كنا نعلم سابقا أننا سنترك اللعب في ساعة معينة وننصرف اليهما رغم ذلك فقد كانا دائما مفاجئنا كما يفاجئ الخطاف عشه عند كل ربيع.. وبغته يخرج أحدنا من الحلقة ويهمس وسط الضجيج: «هيه! هاهما قادمان!».

نصطف إلى الحائط الطويل وتسكن فينا كل حركة إلا اهتزاز العيون ويبدو لنا أن كل شيء من حولنا قد توقف واستطاب السكون. حتى تلك الشمس البرتقالية نراها تجلس إلى كرسيها لترقب القادمين مليا ثم تجفف عرقها وتعود إلى أبنائها الصغار في منزلها البعيد.. آه! يا رفقة الذكريا!: لا تتحركوا! ولا تفكروا! نسيم الخطى يظللكم شمسا وفتيلا لأيام الصقيع!

هل كانا فعلا يمشيان؟ أأرجل هي تلك التي نراها تتقدم إلينا؟ والقبلات المتزاحمة على الرصيف، أحقا أقدام بشر هي تكل التي سكبتها على شفاه الطريق؟.. ما أقسى غبار الذكريات!.. لا، ما كانا يمشيان كمشية الطيور فقد كانا يسيران ولا يسيران، رقص هي خطاهما وربما نشيد من أناشيد الغيوم.

لقد حاول بعضنا تقليد مشيتهما في أحايين كثيرة فما نجحوا: ها هي رجله اليسرى تتقدم فتجيبها رجلها اليمنى وها هي رجلها اليمنى تبرز فتتقدم رجله اليسرى.. يا عجبا! أين رجلها اليسرى واليمنى؟ إنهما هناك. أجل! ولكنهما لا يتقدمان.. نوقظ كل الحواس ونحاول القبض على الضائعة متلبسة بالغياب، فإذا بنا نفاجأ بأن الشابين لا يتقدمان البتة. أليسا على الطريق؟ بلى. بلى. إنهما مع الطريق.. رقص وعزف ناي وتنهدات قطرة مطر تقاذفتها أورق شجرة عجوز وابتسام لوجة اختفى رسامها عند الأصيل.. ثم ها هما يبلغان مقاعدنا.

عند ذاك، نصبح حجر الجدار وتضيق بنا الساحة ثم تضيق وتصبح عينا كبيرة بها نسمعهما ونكلمهما صامتين، بل حتى الصمت لا يعود له صوت. أما الشابان قيريان على وجوهنا ما يجعلهما يشفقان علينا فيبتسمان وربما توقفت الصبية وصافحت أيدينا ببعض حلوى وربما توقف الفتى ورمى إلينا بكورتنا المستلقية على الطوار تنتظر عودتنا إلى اللعب من جديد. وما هي إلا هنيهة حتى يعدوان إلى سيرهما واختفائهما بين أنغام الخطوات: ها هي، انظروا جدا إنها على يمينه، لا، كيف ذلك، إنها على يساره، بل هو الذي على يسارها.. وسرعان ما نسأم البحث ونترك السؤال إلى الغد.. وحين تحتضنهما معاطف الطريق، نرفع أبصارنا إلى الشمس فتراها تجر خصلات شعرها الحمراء وتتهيأ لرحلة طويلة بين السهول ونسمع صرير باب أبيض يغلق، فنلتفت مسرعين إلى أبواب منازلنا الزرقاء.

إلى أين كانا يغدوان؟.. لم نستطع أن نكشف ذلك.. لماذا كان عسيرا علينا أن نقبل أن لهما مثلنا بيتا وسريرا، إلا أننا كنا نراهما يؤوبان وفوقهما في أعالي السماء، الطيور تؤوب أم لأن ميقات عودهما كان حين قدوم القمر ذلك الكهل المتسكع الذي يقضي الليل هائما بين الشوارع والحقول.

كم ساءلنا آباءنا: أين تضع الطيور مفاتيح منازلها حين تطير وملابسها بلا جيوب؟ وكيف في السماء هناك داخل السحب البيضاء، يمكن أن يتكئ إنسان على جدار من حجر؟ وهممنا بأن نسأل الآباد عن الشابين وأين يخبئان رأسيهما حين تعمنا العتمة، ولكننا خشينا خوف الآباء من اختطاف الصبيان ويحذروننا ألا نبتعد عن الحي. وذات مرة خمن رؤوف وكان أذكانا، بأنهما عندما يصلان إلى آخر الطريق حيث تعانق الأرض السماء يتوقفان برهة ثم يتبخران فجأة كما كانا يظهران.

لكننا استطعنا أن نعلم من أين كانا يقدمان وما عاد ظهورهما أمامنا بغته، مفاجأة كاملة.. ذات مرة، قدم أحدنا يجرى وصرخ كمن يريد أن يلفظ خبرا ثقيلا حمله عليه: «لقد اكتشفت أين يجلس الشابان» وصمت. تحلقنا حوله وأخذنا نسأله أن نعلم بما علم فرغب عنا وبدا غير مكترث بتوسلاتنا. وعندما مللنا السؤال وانصرفنا عنه، استلان وعين منا أربعة يذهبون معه في الغد. وطبعا لم تكن بيننا أية فتاة.

في الغد، كانت شمس الماء حارة جدا ولكن ما كان يقدر أن يوقفنا شيء. فقد حزمنا أمرنا وبعد أن تأكدنا من ألا أحد صغيرا أو كبيرا

سيتابعنا، غادرنا الحي بخطوات ثابتة وخطوات قلوبنا تسبقنا وخطوات قلوبنا تلاحقنا.. بعد دقائق أصبح الحي وراءنا، وانعطفنا إلى حي آخر، وهنا راح صديقنا يزيدنا شوقا وألما ثم اقتربنا من سور طويل عله بعض القضبان المشكبة ورأينا داخل السور قبورا غريبة بعضها من الرخام وبعضها غرف طويلة وبعضها من حديد، وعلى كل قبر عصاتين واحدة طويلة والأخرى صغيرة ملصقة بأعلى العصا الطويلة، وفي بعض العصاتين علق جسد حزين. فتذكرنا بسرعة وصايا الأمهات بعدم الذهاب إلى مقبرة النصارى. فجحظت عيوننا وأحسسنا بالصقيع يمرق إلى عظامنا الطرية، لكن صديقنا وقد أخذته نشوة الزعامة، راح يسخر بنا وينعتنا بالأطفال الصغار فأجبرنا على متابعته صامتين وكان ذلك حبيبا إلينا.

أمرنا أن نسير على أطراف أصابعنا وألا نلتفت حولنا ثم صار يبتعد عن السور إلى أن توقف عند شجرتين متلاصقتين وزعنا بينهما. وكما يفعل لص خبير، أشار بإصبعه دون همس إلى مكان ما داخل المقبرة. لم نستطع أن نتبع اتجاه الأصبع فأخذ يعيننا بأن يمسك بيد رأس أحدنا وباليد الأخرى يوجه الإشارة.. محاولة، محاولتان ثم رأيناهما.. كانا جالسين أمام قبر تحت شجرة ورقية التفت بالمكان مقوسة الظهر، وكأنها امرأة تحتضن رضيعها وهي تجري هاربة به. وكان القبر غريبا بين القبور، فإضافة إلى العصاتين والجسد المصلوب، أحاط بالعصاتين رسما حديديا لقب كبير يميل إلى الطول، وينتهي في الأسفل ضيقا صغيرا كأنهما مقيدتان.. انتظرنا أن نسمع حديث الشابين. كنا لا نفهم لغتهما ولكن كانت تكفينا الأصوات. انتظرنا ربع ساعة ثم نصف ساعة ولم نسمع

صوتا واحدا. كانا طوال الوقت لا يفعلان سوى تبادل نظـــرات بعيـــدة ترسلها العينان إلى العينين وعلى الشفاه بسمة دائمة وكأنها لا تنتهي ولا تبتدئ.. وأحيانا كانا يميلان بناظريهما إلى القبر فكان في نظراتهما دهشة واحتراق.

مضى وقت طويل والشارع كأنه لحظة انتظار.. لم نسمع صوتا ولم يزقزق عصفور ولم يمر بشر ولم نتكلم نحن أيضا ولم نشك وقفة اللصوص. وعندما ارتدت الشمس جلباب المساء وغلفت أشعتها القبور والصـــلبان بلون الورد والرماد، رأينا الشابين يقومان ويســـتعدان للعـــودة. مشـــيا خطوتين ولتفتا إلى القبر ينظران بصمت. ثم رأينا الفتى يدني الصبية إليـــه ويقبلها في عينيها وجبهتها. وفي تلك اللحظة فقط، سمعنا الصوت وكان تأوهات وأنينا. فتصلبت حناجرنا ورغبنا في التنفس وشرب الماء.

غادرا المقبرة والصمت لم يزايل وجهيهمـــا والبســـمة تـــرقص في عيونهما وأخذا يسيران إلى حينا فخرجنا من مكمننا حذرين وقبل أن نقفو خطاهما، سرنا إلى المقبرة ونظرنا إلى القبر الذي كانا أمامه فرأينـــا فوقـــه صورتي راقديه وكانا شابا وفتاة.

لم نحاول بعد ذلك اليوم الذهاب إلى المقـــبرة والتجســـس علـــى الشابين ولم نتحدث بما رأينا إلى بقية الأطفال وواصلنا تمضية الوقت كما ألفنا، رحيلا بين لعبة ولعبة حتى يقدم علينا الشابان فنودعهما. وأصبحنا نختم ألعابنا بلعبة وهناك تقف الفتيات الثلاث اللاتي كن معنا: ناديا وليلى ونجوى. وكانت مكافأة الثلاثة الأوائل جولة مع الفتيات وبعـــض قبـــل:

الأول مع ناديا والثاني مع نجوى والثالث مع ليلى، على أن الأمور قليلا ما كانت تنتهي بسلام. فما ذنب من ليس لهم على الركض قدرة حتى يحرموا من معانقة ناديا؟ وما ذنب نجوى التي كانت تطمئن إلى عبد الرزاق حتى لا تتوسد ذراعه ويضحكان معا؟ فينقلب الاحتفال خصاما وتهرب الفتيات ضاحكات خائفات.. وحين يرضى الخصوم- وما أصعب ذلك!

كنا نفرح ونسعد إلى حد البكاء فنقيم احتفالا هو عبادرة عن حلقة تتوسطها ناديا والمتاسبق الأول فيتعانقان وسط صخب تصفيقنا ويتبادلان قبلتين كلمح البصر.

وذات مساء من خريف ذلك العام- ولعله **1939**- بينما كان الشابان مارين بحينا، توقفت سيارة عسكرية رأينا داخلها كثيرا من الشبان عربا ونصارى. ونزل منها ضابطان تقدما إلى الشاب وطلبا منه شيئا ما. فإذا به يخرج بعض الأوراق نظرا فيها على عجلة وأشار إليه بالصعود في السيارة. تردد قليلا ناظرا إلى الفتاة ثم هم بالصعود، فإذا بها تسير إلى الضابطين وتتحدث إليهما بما يشبه الصراخ. فكان الضابطان يجيبانها وعلى محياهما قسوة وابتسامة. وحين أراد أن ينهيا الحديث، عادا إلى السائق وأمراه بالانطلاق. فدت السيارة يمينا وانعرجت الفتاة إلى اليسار.

منذ ذلك اليوم، أصبحنا ننتظر قدوم الفتاة وحيدة فنصطف كعادتنا ونتابع خطاها وبدت في الزيام الأولى من غياب الفتى ذاهلة

كشمعة آخر الليل، وكان شالها الرمادي يتساقط على أكتافهـــا حمامـــة مكسرة الجناحين. وشعرنا نحن الأطفال الذين لم نفهم شيئا آنذاك بما هي فيه فوددنا لو دنونا منها نواسيها ونراقصها وأصبحنا نتحسر على أيـــام الصيف البعيدة، أيام السباق والصراخ.

وما كانت الفتاة لتنسانا دائما ففي كثير من الأوقـــات، كانـــت تنحني عند قاماتنا الصغيرة وتوزع حلواها التي لم ننس مذاقها ثم تبحـــث بعينيها عن الكرة وتركها إلينا، لكننا كنا نرغب إلى أكثر من ذلك، كنـــا نحلم بأن ندخلها إلينا ونتمازج بها وبأن نأخذها من يديها ونطير بها معنـــا إلى الأعالي، حيث مدينتنا البعيدة وبأن نسرق من الـــزمن لحظـــة فنـــأتي بالشاب الغائب ونصطف إليهما، لكن في الخريف، تتساقط الأوراق ولا تطير وليس للساعة فيه أن تنحرف عقاربها وتلتهم بعض الدقائق.

بعد ذلك بشهور أصبحت كلمة «الحرب» تردد على ألسنتنا نحن أيضا وقال الآباء إن «الألمان» سيقدمون وأمرونا بالاختفاء تحت الأسرّة. فرب منا الشارع والقطط والشمس وغبنا عنا ونمنـــا أيامنـــا فشـــهورا فسنوات ولما أفقنا، أألفينا أنفسنا كبارا راشدين.. انتهت الحرب وأتـــت حروب وضاق بنا الشارع فما عدنا نلعب أو ننتظر. أصبحت ناديا حبيبة لا تقبل الصعود إلى سطح الدار والجلوس وسط حلقة مـــن الأطفـــال، ورصن عبدالرزاق فترفع عن الصراخ والبكاء يوم لا يلمس من نجـــوى اليد. وما عاد الشابان يمران بحينا الطويل. لقد اختفيا ووراءهما، اختفت سيارة عسكرية جرح صرير أبوابها هدوء الوادي الحزين.

أترى نسينا مقبرة الغياب؟

ربما نكون قد نسينا ذلك الفتى وتلك الصبية.

نعم، لقد نسيتهما فعلا ولكني كلما جزت تلك المقبرة المسيحية الصغيرة، أحسست بمعول ينفض عني الغبار وبشلال ماء يندفع يجلو الصدأ.

فأتقدم إلي سور المقبرة وأقف عند ذلك الضريح تحت الشجرة الورقية أنظر إلى الصليب والقلب الحديدي مازال يحتضنه وبغطي المسيح، وقد بدا منهكا وحزينا. ثم أنزل بناظري إلى سطح القبر أتأمل صورتي الشيخ والعجوز وهما يرقدان معا ويبتسمان كما كانا دائما..[1]

[1] – من مجموعة «الورد والرماد».

الحوذي

فوزي الديناري

- الرحمة يا بنت الناس.

خرج الصوت من بين أسنانه ممططا مضغوطا كعواء ذئب جريح يتألم كان يتألم وهو ينظر حوله بعينين دائختين، زم شفتيه وأطلق صوتا كالأنين:

- الرحمة يا بنت الناس.

تفرقع الصوت المتضجر في سماء رمادية اللون مشربة بزرقة كامدة ينساب منها ضوء شاحب.

أحس في أعماقه أنه ينهدم واستشعر وخزا حادا يتسرب عبر مسام الجلد يثير فيه الرعشة تلو الرعشة.

تشرب وجهه المحتقن كل آلام الدنيا وهو يحملق في الفراغ ويستغيث.

- الرحمة يا بنت الناس.

تكومت زوجته فوق جسده النحيل، وهي تضرب صدره بجمع يدها تصرخ بجنون:

- أكرهك. أكرهك. أكرهك.

تكأكأ الجيران حولهما يتابعون المشهد المزلوف لديهم وقهقهاقم تملأ الدنيا.

ضحك الجيران.

ضجوا بالضحك

ولكنه لم يضحك.

كان يتألم. استشعر مرارة في حلقه الجاف.

وكانت تتألم. استشعرت غصة في القلب المجروح.

تفرس الوجوه التي تضحك في صخب وانزلقت دمعة حارة على خذه. صاح:

- الرحمة يا بنت الناس.

- وأضاف.

- ها قد أصبحنا كركوزا يا بنت الحلال.

تقدم واحد من الرجال وحاول تخليصه من قبضتها. صاحت الزوجة منفعلة:

- دعني.. دعني.. دعني أشرب دمه. دعني أفقأ عينيه وأرتاح.

زوجي سبب شقائي وشقاء أطفالي يا ناس. أتمنى لو أخنقه بيدي هذه وأرتاح.

غرست يديها المعروقتين في عنق زوجها ضاغطة في جنون.

انقضت عليه بوحشية ضاغطة بأصابعها الطويلة المعروفة على عنقه محدثة خدوشا كالندبة. انبثق منها دم متخثر وأطلقت عقيرتها بالبكاء والصياح المر تندب حظها العاثر الذي رماها في عصمة حوذي منكود.

يخرج الحوذي. كل صباح بعربته يجر أذيال الخيبة ويرجع في المساء إلى حيه القصديري المسربل بالأوساخ والروائح النتنة والأوحال صفر اليدين والجوع ينهش بطنه الذي نتأت منه أمعاء متصلبة كأسلاك الكهرباء.

صورة كاركاتورية مضحكة لزوجة لا تكف عن الشكوى، منذ زمن بعيد.

أحس أنه يختنق. صاح مستغيثا:

- الرحمة يا بنت الحلال! إني أختنق أكاد أموت.

– موتك راحة يا سبب شقائي.

تدخل بعضهم وهم يضجون بالضحك وخلصوه من الزوجة الهائجة المنتفشة كديك مغرور يريد العراك.

اشتد غضب الحوذي وهو يتحسس الدم المنبثق من عنقه فانهال على زوجته بدوره لكما وضربا مبرحا ذاكرا أمها بأقذر النعوت.

ضربها.

ضربها حتى كاد يدق عنقها، ولكنه كف فجأة عن ضربها وضمها إليه في عنف وقبلها في شعرها ووجهها الممتلئ بالدموع وهو يرد كالمحموم.

– اللعنة على الفقر. اللعنة على الفقر.

مسحت دوعها بكم فستانها ونظرت إليه بعينين مسترخيتين ثم دفنت وجهها في رقبته. بدت رقيقة وحانية.

– لا تغضب مني يا حلالي، إنه فوق حدود احتمالي.

التفت إلى الأجساد المتحلقة حولهما واستقرت عيناه على الأبناء الغارقين في ثيابهم القذرة. كان الأولاد الصغار يتابعون المشهد في رعب نظر إليهم في حنق مشوب ببعض الحنان والألم. العجز، ابعد عنه الجسد الأنثوي اللاهث المتشبث به في رفق. دفن حزنه في القلب البائس. ساق

حماره وانصرف، وفي السوق يبيع حماره ثمن قوارير خمر يصبها في جوفه ويحلم.

تنطفئ خيوط الضوء تماما ويخرج الحوذي من الحانة مذهولا يتمايل مع نسمات المدينة المتعفنة.. يعربد ثم يصمت فالعربدة في الشوارع أمر محظور.. يحاول التطلع إلى الأفق البعيد ولكنه يسقط في جب سحيق ضاق ذرعا بأكوام القمامة.

يحتجب وجه القمر النحيل في السماء الرمادية الواطئة، وتغط المدينة في نوم ثقيل مرتدية عباءة الليل.

ينظر الحوذي إلى الدنيا من موقعه الجدي ويصيح ملء فم يضج بالمرارة:

– الدنيا فارغة، يا إلهي فارغة.

ثم ينفجر في ضحك هستيري مبحوح يشبه البكاء.

ملاحظة:

حين يتذكر الحوذي حماره، رفيق دربه الذي فرط فيه مقابل ثمن زهيد تتدحرج دمعة بلورية على خده، ويردد في تبرم وانفعال:

– لا بأس. لا بأس حمار واحد قادر على جر العربة.[1]

[1] – من مجموعة «تصاوير في الماء والنار».

ليت هنداً

حياة الرايس

تهالك على السرير الحديدي، فغاص به في غلالة شاحبة منبعثة من السهارة.. فارق ذهنه الغرفة مخلفا جسدا هامدا، تجمعت كل حياة في أصابعه السمراء التي تحاصر لفافة تبغ وأعواد يسحب منها أنفاسا ينفثها سعالا.

النار تقاوم «أعواد التبغ».. الذهن يعيد تفاصيل اللقاء الإذاعي مع «صديقه» الصحفي.. لقد كلفه هذا اللقاء عشاء كاملا، وعدة قوارير من الجعة. ورغم أن العشاء لم يكن فاخرا فقد استدان «محمود عيسى» ليدعو صديقه إلى مطعم متواضع، وسط العاصمة وانزوي به في ركن هادئ ليسمعه قصائده الجديدة، ولا يزال إلى الآن ينتظر ثمن القصيدة التي نشرها في إحدى الجرائد الأسبوعية ليسدد دينه.

النار تتثاءب وتتمطي فوق «أعواد التبغ».. الأصابع تتحرك من حين إلى حين، لتنفض رمادا لا يقع في المنفضة.. الذهن يغرق في تفاصيل اللقاء ويتلذذ به كرغيف اخرج لتوه من التنور.. فجأة انتصب واقفا امتص بشراهة نفسا جديدا من لفافته فخرج من بين شفتيه خيط دخان يرقص زهوا:

– «لقد كنت نجما متألقا هذه الليلة في سماء الإذاعة. غصبا عن كل «الأصدقاء» .. ليت هندا سمعت صوتي هذا المساء.. وليتني استطعت أن أخبر ليلي وسعاد وبثينة.. ولكنه كان لقاء مباشرا ولم أكن متأكدا من إجرائه حتى آخر لحظة اغتبط وزهت تجاعيد بينه، المحزونة دائما. اهتزت شفتاه الزرقاوان وانفجرت عن أسنان صفراء.

– «أين هي؟ أين الرسالة التي فتحتها، ثم طويتها على عجل، قبل دخولي الإذاعة؟ هل قرأها أم لا؟.. الرسالة التي استلمتها اليوم من الجريدة!.. ليتها تكون من هند..» سحب نفسا متوترا:

– «لقد حيرتني هند إنها تراسلني للمرة الرابعة، دون أن تذكر عنوانها أبدا..! ومن غير أن تضرب لي موعدا كبقية المعجبات، آه ليت هندا!..

«أعواد التبغ» تنطفئ.. يشعلها من جديد الرماد يقع مرة على الأرض ومرة في صحن به آثار طعام البارحة، أو قبل البارحة أو قبل شهر.. إذ يحدث «لمحمود عيسى» أن يغيب عن غرفته، التي يستأجرها مع صديق له مدة قد تطول أو تقصر..

لم يجد عناءً كبيرا في البحث عن الرسالة، لقد كانت مطوية في جيب سترته.. فتحها ثانية وغاص في غلالة السهارة.. بين يديه الخشنتين ورقة، ناعمة، شفافة زهرية، حيّر عطرها ذاكرته؟.. هل يعرف هذا العطر؟.. هل شمّه سابقا؟.. توغل في الورقة الشفافة كمسافر يدخل مدينة

جديدة، مأخوذا بلذة الاكتشاف.. يهيم ببناياها، ثم يختار أجمل بيوهّا: فيلا ذات باب خشبي، من الأبنوس، في حديقتها الخلفية، أرائك سعفية، منتشرة بين خمائل الورود، وهند تحتل أقصاها مسترخية، تترشف شايا بالنعناع، وتقرأ شعره، تجمع الياسمين، وتقرأ شعره.. والشمس، قبل أن ترحل، مالت على خدها تقبلها، وتترك حمرها مرسومة على بشرها، البرزنزية.. وحيرة ذلك اللون حيره! ولم يجد له وصفا.. حيره لون شعرها أيضا، وعنواها!.. ورسائلها المختصرة جدا.. التي لا تتحدث فيها إلا عن حبها للبحر والشمس والشعر.. الفكر حائر.. والنار تقاوم أعواد التبغ.. عيناه تلتقيان بأكوام الليل، تتهاوى على النافذة الصغيرة، المجردة من كل ستارة.. تتوغلان في العتمة.. وجه مستدير تحف به جدائل سوداء.. هند قمر عال، عال.. ودخان سيجارته يعلو، ثم يتبدد.. - «ترى كيف تعيش هند؟.. بيت كبير يطل على البحر.. غرفة واسعة تدخلها الشمس، من كل جانب، غرف دافئة.. أثاث عتيق نادر.. تحف ثمينة.. أخوة.. أب وأم يجتمعون حول المائدة، ثم يفترقون.. أو ربما لا يجتمعون.. لذل تضجر هند، فتقرأ الشعر وتبحث عن شاعر.. هند في حاجة شديدة إلى شاعر لاشك أن أباها، صاحب مركز كبير، وثرٍ، لكن هل يستطيع أن يوفر لها كل شيء؟ هل يمكن أن يشتري لها الحب؟.. هند في حاجة إلى رجل يحبها.. هند تعيش في رفاهية كبيرة.. وتملك كل شيء.. ربما لها سيارة أيضا، تأخذها إلى المسافات النائية،، لكنها ملت كل ذلك. ووجدته تافها، هند تفضل قراءة شعري، في ذلك الركن، القصي من الحديقة الخلفية.. هند تجد طعامها جاهزا، سخنا، لذيذا كيوم مشمس.. تدخن

سجائر أجنبية، طرية بدون أعواد تبغ، سجائر لا تنطفئ. لكن هل تدخن هند في المقاهي؟.. لا أقبل ذلك؟.. سأقنعها بعدم جماليته.. أستغفر الله هند لا تذهب إلى المقاهي، بل تفضل البقاء في الحديقة الخلفية تتلذذ بقـــراءة شعري..

ترى كيف تنام هند؟.. على فراش وسرير، من الخشب الخـــالص، تندس بين وسائد الريش.. وأغطية الصوف.. آه كيف الدخول إلى عـــالم وسائد الريش؟.. وكيف الوصول إلى العوالم الممرية؟.. آه ليت هندا!..

ترى هل تتزوجني هند؟.. هند جريئة ستقف في وجه أبيها القـــوي وتقول له:

– «أريد أن أتزوج شاعرا» هند شجاعة لذلك أحبها.. هند تملك كل شيء ولا ينقصها إلا الشعر.. وأنا أملك الشعر.. وهو كل شـــيء.. عندما!» انطفأت «أعواد التبغ» بين أصابعه، بعدما وقع رمادها عل حافة سترته، ثم تدحرج على الحشية..

«آه لو تتزوجني هند!.. سأغرقها شعرا.. ســـأملأ بيتـــها الكـــبير قصائد.. ولكن أباها هل يقرأ الشعر؟.. هل يقدر الشـــعراء؟.. أم تـــراه عدو الشعر؟..».

أشعل سيارته من جديد:

– «إذا تزوجت هند سأحقق كل أحلامي، سأطبع كل كتبي على نفقتي الخاصة، لن أتسول في دور النشر بعد ذلك، بل سأقيم دار نشر..

وسأعرف كيف أجعل كل الشعراء و«الأصدقاء» يـأتوني صـاغرين، متوسلين، متسولين، زاحفين، متملقين، ذليلين.. وحتى أولئـك النقـاد. سأصغرهم كلهم حتى يدركوا حجمهم الحقيقي. سأنسـيهم خـيلاءهم، وغرورهم، سأذلهم على أعتاب مؤسستي.. لن يستطيعوا مقابلتي بسهولة ستجعلهم السكرتيرة ينتظرون أشهرا حتى يظفروا بخمس دقـائق مـن وقتي.. سأستقبلهم فقط ليتفرجوا على مكتبي الفخـم، كـلا سـأكون منشغلا بالتليفزيونات وتوقيع الصفقات.. لن أسـتقبلهم! أمـا ذلـك الصحفي الذي أجري معي لقاء سطحيا، سأجعله يدفع ثمن ذلك العشاء أضعاف أضعاف ما دفعته، وصاحب الجريدة، الذي يقتّر على تقـتيرا.. سأعرف كيف أصفي حسابي معه.. سأوقف جريدته وسأعيده بائع فطائر كما كان.. لم لا؟ وأنا الرئيس المدير العام وعلاقاتي راسخة مـع كبـار المسئولين.

أما «الأصدقاء» فلن أجلس معهم، في المقهى أبدا، سأمر أمـامهم، مع امرأتي الجميلة، الأنيقة هند، دون أن أكلمهم.. هند هي كل شيء في حياتي الآن.. فلتذهب المعجبات الأخريات إلى الجحيم!.. لن أسترضـي ليلى أو دعد، ولن أتوسل سعاد، بعد الآن.. لست أدري لماذا أحببتهن؟ إنهن عاديات جدا، بل تافهات. كما أني لا أفهـم سـبب غـرورهن؟.. سأنتقم من سعاد، وأنسيها تلك التسلية اللعينة، بضرب المواعيد الباطلة.. كم انتظرتها في البرد، تحت المطر، وعلى الأرصفة.. حتى أعتلج البرق من دماغي.. سأجعلك تنتظرين يا سعاد! العمر كله..».

توترت أصابعه، فأوقدت «أعواد التبغ»، سحب نفسا منهمكا وعلق.

- «لعينة أنت يا هند!.. لماذا تبخلين على بموعد أراك فيه، ونتفق خلاله على كل شيء؟.

آه تضرمين الشوق.

وتحتمين بالبعد.

لقد فاض صبري.

فلابد أن يهتدي إليك ليلي.

عاد إلى رسائلها يقلبها.. يعيد قراءتها يؤولها.. لعله يجد عنوانها!.. فجأة هب واقفا، انتبه مأخوذا نحو النافذة، كأنما ناداه أحد! رجع نحو السرير، استدار نصف دائرة، داس برجله عقب سيجارته، على أرض الغرفة: «لقد وجدتها!.. سأنشر قصيدا أحمله رسالة إليها: إلى عاشقة البحر، الشمس والشعر..».

***

مر أسبوع أو أكثر، تلقى فيه «محمود عيسي» رسائل كثيرة.. لكن رسالة هند لم تصل.. وأتعبه عناده.. لماذا هند بالذات؟.. وأحرق من أجل ذلك أكواما من «أعواد التبغ».. حدسه يقول له: إن هندا تختلف عن كل الأخريات، وأن شأنا كبيرا ينتظره معها.

***

وفي يوم ذهب فيه إلى الجريدة يسلم قصيدا وجد رسالتها، فضها بتوتر، استحى وندم لما فلتت منه صرخة أمام المحررين: «لقد ضربت لي موعدا!..». ضربت له هند موعدا. وجعلت علامتها إليه ديوان شعره الذي سيكون مفتوحا بين يديها في مقهى – أفريكا– في الرابعة والنصف من مساء الرابع عشر من أكتوبر.

***

هيأ للموعد بفرح وتوتر وخوف.. وعندما اقترب من المقهى ارتبكت خطاه، ارتفعت يده لتفك ربطة عنقه، أراد أن يرجع، أن يركض، أن ينسحب، لكنه صار أمام المقهى، تمنى ألا تأتي ليبقى «الحلم» أو أن تتأخر على الأقل ليستطيع أن يعدل رابطة عنه. كان يبحث بعينيه في كامل أرجاء المقهي عندما أخليت أمامه طاولة ارتمى على أحد مقاعدها واحتلها.. سوى شعره، عدل كتفي سترته، وغاص داخلها، احتمى بها من خوفه، قفل أزرارها، فضمت جنبيه أكثر، أحس بالأمان كأنما يقفل باب غرفته على نفسه ألقى نظرة أخيرة على سترته إنها أحدث ما عنده، بل هي الحداثة نفسها عندما اشتراها، وقف أمام المرآة، ونظر إليها بعين إحدى معجباته.. وهي الآن من نصيب هند.. غاصت عيناه في نسيجها المخملي، فأحس بالهدوء نوعا ما، أشعل سيجارة سحب منها أنفاسها متتالية ثم داسها بسرعة:

«تستطيع أن تأتي هند الآن».

لقد تأخرت، ولكنه سينتظرها كامل اليوم،و لن يفرط في حلمه بسهوله.. خف الزحام في المقهى، فلمح امرأة متروية تقرأ كتابا، خفق قلبه: «لابد أنها هند.. عدل أنفاسه، ثم سار إليها، فوجد أن التي بين يديها ديوان شعره: فتاة في مقتبل العمر، شعرها أسود، لكنه قصر جدا. قمحيه اللون، تميل إلى شحوب، ترتدي بنطلونا جينز، فوقه كنزة خفيفة بيضاء.

أبقت هند على الديوان مفتوحا بين يديها وجعلت تقرأه، وتستجلي شخصية شاعرها من خلاله، تحدثه عن نفسه وتزيح برقة حجب بواطنه، تثير مواطن وتدغدغ أخرى، وهو يستمع إليها ويستلذ حديثها، يطلب المزيد، ويدمنها.. كأنما فقد نفسه فجأة وصار يبحث عنها عندها، وأصبح شاعرنا لا يستطيع الاستغناء عن هند، كإنسان تعود أن يصحو دائما على صورة وجهه في المرآة.

***

كانت هند تريد أن تعرف كل شيء عن «محمود عيسى» أين يكتب؟.. كيف يعيش؟.. وقد طلبت منه مرارا أن يأخذها إلى بيته مصدر وحيه وإلهامه.. لتتعرف على العالم الجديد الذي أسسه، والجنة التي يهرب إليها من جحيم الآخرين، والفردوس المفقود الذي استعاده، والحلم الضائع الذي وجده، واللذه الهاربة التي شد عليها بقبضته.

– «خذني إلى بيتك، إلى ركنك الدافئ الذي يزخر بالينابيع حيث الأثاث الأسطوري. والكائنات الغريبة، إلى حديقتك الخرافية، أين شجرة

الزيزفون الغريبة، إني لم أسمع بها قط وأريد أن أراها، أريد أن أذهب إلى البيت الذي اعتلى أمامك حجرا حجرا ومازال يكبر..

أريدك أن تأخذني إلى القارات الألذ ذات الأراضي السماوية، إلى المدن الغريبة، إلى الجزر القصية حيث تلوح أجنحة الأحلام، إلى النجوم الواعدة، إلى نجمة السعد إلى البحار السبعة.

أريد أن أدخل عالمك الغرائبي حيث الدهشة، والانبهار..

***

واقتحمت هند في يوم من الأيام عليه بيته ومن يومها اختفت.. إلى أن كان اليوم الذي تلقى فيه محمود عيسى رسالة منها تقول فيها:

«صديقي الشاعر، لقد راعني أن يجمع الفقر بيننا! صحيح أنك أعطيتني الشعر، ولكنني لم أستطع أن أعطيك شيئا، لقد عشت طوال عمري، في عاذلة تتوارث الفقر، لقد كنت أظن أن الشعر والشهرة سينقذانني من فقري.. ولكني جارنا الجزار إسماعيل كان يملك بيتا مؤثثا، لا ينقصه شيء وعندما طلبني للزواج!.. فكرت.. أعتقد أنك ستقدر الموقف!.. «هند»[1]

[1] – من مجموعة «ليت هنداً».

اعترافات رجل ميّت

محمد عيسى المؤدب

ينبغي أن أرحل هن هذه الديار الخربة، النتنة.. همساهم ترفس أعصابي.. قسمات وجوههم الخنزيرية، قهقهاهم، حركاهم المريبة كلها شرانق تتهافت على جثتي.. ماذا بقي إذن؟.. كل أشيائي الجميلة قتلوها في القرية.. صبوا عليها قذاراهم ثم أحرقوها.. الكلاب.. قالوا إني معتوه..

النوبي شيخ متهالك معتوه.. شيخ أيضا؟.. جسدي هيكل ذاو لا يصلح إلا للمقابر.. عيناي ضيقتان، خاويتان تسربان الشؤم وتنفثانه في البيوت والأزقة.. وإضافة إلى ذلك فأنا أبكم وعاهتي هذه ليست قضاء وقدرا، بل لعنة نزلت على من السماء.. فأنا في اعتقادهم كتلة لحمية ميتة تتراقص في قشبية مهترئة.. طاردوني تقاذفوني كرة منكمشة بين أرجلهم.. نهروني.. سرقوا كل ما بحوزتي وتشمتوا بي.. وحدي كنت أبكي وألعق جروحي.. أبكي وأحضن قش التبن..

لا أدري إن كنت مجنونا كما يقولون ولا أدري أيضا إن كنت لا أصلح لشيء حقا؟.. أعترف أنني فقدت الإحساس بكل شيء.. نعم، لا أعلم كيف ضاع مني أنا الرجل الذي يشفق على قطة جائعة أو دجاجة

تاهت عن فراخها أو حتى ضفدعة داهمتها إحدى الأحجار.. كل ما أتذكره أني استفقت ذات يوم وقد ضاع مني إحساسي.. ذاب.. تاه لا أدري أين؟.. لم أنزعة ولم أبك ولم أذهب إلى مستوصف القرية.. خيل إلي ساعتها أني تخلصت من ورم كان ينوء به جسدي.. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أخشى أحدا أو أحسب حسابا لشيء أزمع القيام به.. فمثلا يمكنني أن أتبول في أي مكان يروق لي.. أفعل ذلك بنشوة لا تعادلها إلا نشوة سيجارة الحلوزي.. كما يمكنني أن أسابق السحاب وأستحم في الوادي وأنام في الطرقات وأتصيد أفخاذ النساء ونهود الصبايا ولا شأن لأحد بي.. قد يضحكون مني أو يلعنونني لكنني لا أنزعج البتة ولا أحجم عن حماقاتي، كل شبر في هذه القرية يظهر لي سرابا أو كثبانا رملية متناثرة هنا وهناك في أحسن الحالات.

وأحيانا عندما تخنقني نوبة عصبية تتراءي لي المنازل والدكاكين كتلا نارية متوهجة.. كنت أتهاوى على الأرض وألتوى، أضرب على التراب بقبضتي حتى تنكشف النتوءات، ويخيل إليّ أني أغرق في مستنقع مزدحم بضفادع تقذف حمما نارية، تتراكض بشكل فوضى ثم تلف رقبتي وتبعثر أنفاسي.. تنتابني رغبة في الصراخ.. أفتش في حنجرتي عن صداها.. يتشنج فكاي، لكني لا أقدر أو أني لا أريد.. فقط تتساقط دموعي وأبكي.. وأبكي وأفزع إلى سيجارة الحلوزي فيغلفني طعمها وسحر التواءات دخانها بسكون لذيذ.

حينئذ أعود إلى بيتي.. لا .. هو ليس بيتا بالمعنى الصحيح، بل مأوى مجاني للحشرات.. هي مقرفة، مصاصة دماء، هذا صحيح، لكنها لا تربكني أو تفسد مزاجي.. في بيتي هذا، لا يوجد شيء ثمين أخاف عليه.. فانوس نفطي.. أغطية قذرة.. ثياب ممزقة وبعض الكتب والجرائد القديمة.. آه.. نسيت صورة أبي أيضا المعلقة على أحد الجدران.. وأنا لا أرغب في وجودها هناك ولا أرغب في إزالتها.. أمرها لا يعنيني ولا يسرني أن أرى خلقة أبي.. ذاك النتن، القذر..

مازلت أذكر تلك الليلة السوداء.. هل كانت حلما مزعجا؟.. أكان ينبغي أن أعود في تلك اللحظة إلى البيت؟.. أفّ.. يا إلهي كيف حدث ذلك؟.. لا أدري.. لا أدري.. كان فوقها كأنّ شيطانا ماردا لبسه.. يضغط عليها وهي تتغنج وتئن تحته بنسق سافر.. النور كان ذاويا.. تفرست جيدا.. أجل، كان أبي.. هل يعقل؟.. زوجها لي إذن ليزوق بها أيامه الأخيرة ويسكب في دمائي شتى أصناف السموم.. لم أشعر بشيء ولم آتِ حركة، كأن الأمر لا يعنيني بصقت عليهما ولا أظن أنهما تفطنا لي.. جريت إلى الخارج ومشيت لا أدري أين وكنت حينها أبكي.. أبكي.. أبكي.. لم أعد إلى البيت منذ تلك الليلة إذ حدث ما أنساني كل شيء.. كلفني سي بوبكر برعي أبقاره وأغنامه ووعدني ببناء بيت كبير لي لا يشاركني فيه أحد.. حتى تلك الحشرات لن تنفذ إليه.. وبالطبع سأتزوج امرأة أخرى اختارها حسب مزاجي لا مزاج ذاك القذر.. كم كانت أمينة لذيذة!.. حلما تعصف به مطارق القهر!

لم أستمر طويلا في التطلع إلى الأفراح المنتظرة إذ طردني سي بوبكر بعد خمس سنوات.. طردني شر طردة وعفر وجهي في التراب.. امتصني ثم رماني كالكلب.. يومها لم أغضب ولم تعاودني تلك الرغبة الهوجاء في الصراخ.. كان يمكن أن أقتله أو أحرق الإسطبل على الأقل لكنني انسحبت من أمامه في سكينة مريعة وسرت في طريق لا أتذكر اتجاهه.

أيتها الأيام العبقة بعطر الجنة، أعرف أنك استثناء في حياة معتوه مثلي.. لكني تذوقت عسلك واغتسلت في مياهك وقطفت من ثمارك..

كانت حلوتي سعدية زوجة سي بوبكر تجيئني إلى الإسطبل غزالا مقهورا مثلي.. أنثى هدّها صحراء زوجها.. تعصرني في الليل وفي النهار تشهد بأني معتوه، أبكم وهي وحدها التي تعرف صوتي.. آه.. هل أصدق؟.. فخذاها ممتلآن، عصير للاشتهاء والجنون، جائعة، همة تداهمني ونغرق سويا في قش التبن.. نساء القرية يلعنني دائما في السر والعلن.. يبصقن على خلقتي أنا المعتوه، النتن في نظرهن.. أما حلوتي، مجنونتي فكانت مبهورة بي، لكن في الإسطبل فقط..

كان ينبغي أن أنسى وأنا لا أحسن غير ذلك.. عندما مات أبي رفضت أن أمشي في نازته ونسيت أيضا أنه كان أبي.. لم يمت ندما على حماقته معي.. مات بسبب تلك الجنية زوجتي التي فرت لا أدري أين مع أحد أقربائها.

وحينما عدت إلى البيت أتلفت كل شيء يذكرني بأبي.. أبقيت فقط على صورته ولا أدري لماذا.. ليلتها خيل إلى أن الثعابين تتربص في كل الزوايا.. تندلق ألسنتها المساربة.. ترسم أشكالا مريعة وتتحين فرص مداهمتي.. لكني، أغمضت عيني وتجاهلت ببرود غريب كل شيء..

لا أدري لماذا اعترفت بكل ما حدث.. شيء خفي انزرع في مسام جسدي ودفعني إلى ذلك بلا رغبة.. ربما أيضا إصراري على الرحيل جعلني أفتش في ذاكرتي عن تلك الدوائر السوداء.. لا أدري.. لا أدري.. المهم عندي أن يعلم ابني يوما أني لم أكن معتوها ولا ميتا.. ولا أبكم أيضا كما زعموا.. ستخبره سعدية بكل شيء.. قطعا.. بكل تأكيد ستخبره بسر الأيام الهاربة من الجنة.. ينبغي أن أرحل عن هذه الديار الخربة، النتنة.. صوتي، هناك.. بعيدا.. بعيدا.. يناديني.. لكن، أين؟.. لا أدري.. لا أدري..

الذهاب إلى المغسل

الأزهر الصحراوي

أيقظته أمه مع الفجر.. ففتح عينيه وفركهما بيديه، ثم رفع رأسه، واتكأ على الوسادة إلا أن النعاس داهمه من جديد، فاستلقى وراح يغط في نوم عميق وكانت أمه قد فرغت من تكديس حصيرتها وأغطيتها الصوفية. وحشيتها القديمة، وبعض الملابس الخشنة التي يستحسن غسلها في مغسل النهر لما يتطلبه تنظيفها من جهد وعادت أدراجها إليه فوجدته نائما، فانقضت عليه في حركة تشبه الغضب،

وأزالت عنه الغطاء وهي تردد «سأجبرك على النهوض يا ابن الكلبة..» فنهض مذعورا وهو يتلقف الغطاء ليستر عورته إذ من عادته النوم عاريا وانتصب واقفا فلبس سرواله على عجل، ثم أخذ إناء الماء فغسل وجهه واتجه صوب الأتانة المربوطة قرب شجيرات الهندى، فحل رباطها وأخذ البردعة بكلتا يديه ووضعها فوق ظهرها وشدها إليها بحزام وقفز فاستوى راكبا، واتجه صوب البيت فوجد أمه قد انتهت من فرز الأثاث الذي يستحق أن يغسل في النهر وطلبت منه أن يساعدها في حلب عنزتيها فأمسك العنزة السوداء من أذنيها وشرعت تحلبها وهي تقول: «لقد رضعها ذلك الجدي لم يبق شيئا!.. شيطان! كيف يخرج من الزريبة

ويمتصها بكل هذه النقمة؟.. لا لا أعتقد! إني أحكمت غلق الباب.. أمرها يحير!.. هل تتسلل إليها تلك العرجاء ليلا وتسرق حليبها..؟ وهمس: اصمتي هل تسمعين وقع حوافر دابة وراء البيت؟ اصغي.. وانساب الصوت من وراء البيت مناديا: «غالية يا غالية، صباح الخير يا غالية» فردت: صباح الخير، انتظريني لا أستطيع.. لا أستطيع اليوم حر.. ستدركينني في مغسل النهر، لا تنسي البراد والكأس، لقد حملت معي الشاي.. لا بأس لا بأس إياك أن تتأخري.

وأسرعت غالية، فوضعت بعض الحليب والخبز فوق خشبة شدت بمسامير إلى الجدار ليكون فطور أولادها النائمين بمنأى عن خطر الكلاب والقطط والنمل، ووضعت البقية في جراب قديم وتذكرت البراد والكأس فغسلتهما ووضعتهما إلى جانب فطورها وفطور ابنها، وسارعت إلى الأتانة فقربتها ووضعت فوق ظهرها الأثاث بإحكام وعناية وقفزت فاستوت السة على ظهرها وناولها الشكيمة فأدارت رأس الأتانة، وطلبت منه أن يسير وراءها ليستحثها على المسير بعصاه الدافلة، وانطلقت الأتانة تنوء تحت ذلك الحمل الثقيل وهي تصعد المرتفع، في حين أن كلبها المرقط قد سبقها وهو يجري في الطريق فيبرز ويختفي ويطارد الطيور.. ومزق السكوت في ذلك الصباح نهيق حمار انبعث من بين الشعاب، فقالت أمه دون أن تلتفت هذا حمار ذهبي نهيقه مزعة كصوت الرعد.. هيا بنا نرسع سيهاجم الأتانة ويسقطني.. لو علمت أنها ذاهبة لانتظرت يوما آخر.

نهق حمار ذهبية ثانية فبدا قريبا جدا فلعنت أمه الشيطان وقالت وهي تلتفت: «حتى هذه اللعينة تتباطأ كي يدركها الحمار».

أنا طيلة حياتي على موعد مع الشقاء والعذاب.. اضرب اضرب كي تسرع، وكان الولد يسير خلف الأتانة شارد البال قد يكون أحس بالتعب، هل يجلس ليرتاح قليلا ثم يستأنف السير؟ حاول أن يكلمها في ذلك ولكنه يعرف ردها ستقول له: «إنك رجل والرجل لا ينال منه التعب» سوق لن يفعل، وسيجهد نفسه فالمغسل لم يعد بعيدا أنه وراء هذه الربوة مباشرة وفجأة تسمرت عيناه حول مشهد غريب مما جعل أصابعها الصغيرة عرضة للتعثر بالنتوء الحجرية المتكاثرة على طول الثنية، وكان بين الحين والحين يهوي على مؤخرة الأتانة بعصاه الدفلة فيصيب أرداف أمه، فتتأوه، وتشتم عورة أبيه وجد جده، وتمضي دقائق فتلين، وهدأ بانتهاء الألم ثم تشرع تستغفر.. "أستغفر الله. أستغفر الله لقد لعنت الأموات إنهم يتألمون الآن في قبورهم.."، ثم أخذت تلاطفه بكلمات رقيقة غير أنه لم يعر شتائمها اهتماما فالأمر المحير هو هذا المشهد الغريب في تفرده، هل الطيور تعرف مثل البشر؟ وهل أن نفوسها مليئة بالأحقاد والضغائن؟ إنه فهم السبب الآن، طائر «الحاج قاسم» وغراب يتطاردان ويحرمان قرب جثة «حاج قاسم» [1] آخر الغراب يحاول نتف ريش الجثة ليتناولها والآخر يثنيه عن فعلته بمنقاره الطويل وجناحيه الكبيرين، احتد الصراع بينهما: مناورات وخداع واختيال في الهجوم والصد يالها من بسالة في التصدي والصمود! لعل الحاج قاسم يدافع عن أمه وأخيه وقد

[1] – حاج قاسم – اسم يطلق على نوع من الطيور في تونس.

يكون ذلك الفتيل قد ولى، نادى أمه وأشار باصبعه إلى المشهد فالتفتت ببطء وهي تدعو على الأتانة أن يحولها الله جثة هامدة لتعبث بها الكلاب السائبة، واطبته قائلة «أسرع في خطوك فالشمس شارفت على البزوغ ومغسل النهر ضيق وأثوابكم هذه كأنها ممزوجة بالقطران فكأنكم حمير ولستم بشرا.. ثم إن النساء الغاسلات كثيرات فالعودة المدرسية على الأبواب وزردة سيدي «بوذراع» لم يبق بيننا وبينها سوى أسبوع. «إلا أنه لم يكترث لكلامها، فهي مهذارة كعادتها وظل منشدا إلى ذلك المشهد وأحسست بانشغاله وحيرته فهي تعرف هوسه بهذه الأشياء التافهة فخاطبته برقة قائلة: «الأمر بسيط يا كبدي إن هذين الطائرين كانا آدميين في قديم الزمان..» فأمسكها من ركبتها وسألها متعجبا كيف ذلك؟

فهذا أمر عجيب!؟ فقالت وفي صوتها شيء كأنه اليقين «هذا وارد في كتاب الله والحاج صالح وقد حج ثلاث مرات على التوالي، حدثنا بذلك فقال «الغراب كان طائرا أبيض اللون كالثلج أو هو أشد بياضا يسر الناظرين، وهذه الحادثة وقعت في عهد سيدنا سليمان كليم الحيوان. وحدث أن سيدنا سليمان هذا أعطاه الله حقيبة نقود وحقيبة قمل وأمره أن يعطي الأولى للعرب والثانية للعجم، فعكس الأمر فحدث الانقلاب الكبير، ومن وقتها والعرب مع القمل والعجم مع الذهب إلى يوم الناس هذا، فغضب سيدنا سليمان... أما الحاج قاسم فالأمر معه مختلف فبعد ما كان بشرا بباعه وذراعه، ولما بلغ من العمر عتيا سافر للحج، وبينما هو على مشارف مكة إذ اشتد لفح الهجيرة وأخذ منه العطش مأخذه ولم يجد

ماء فأرسل له الله قربة لبن ليطفئ ظمأه لكنه توضأ باللبن ليدخل بيت الله طاهرا فمسخه الله طائرا على هذه الشاكلة».

وسكتت الأم وطأطأ الصبي رأسه وانهال على مؤخرة الأتانة ضربا وو يغمغم بأصوات ليست مفهومة ويقول في نفسه: «فعلها الغراب، فعلها ابن الكلب ماذا لو أدى الأمانة؟ هل نكون على هذه الحالة من البؤس والخصاصة؟ هل أن نعيقه المزعج في أجواء القرية كل مساء تعبير عن ندمه وتكفير عن جريمته التي اقترفها؟ أم أن ذلك من قبيل النكاية والشماتة..!

ثم سليمان هذا عفو سيدنا سليمان لماذا تسرع في الأمر؟ وكان حزمه في غير محله، كان عليه أن يتودد إلى الغراب ليعطي كل ذي حق حقه هل هو تواطؤ!؟

لقد وجد العج و«الروامة» الكفار الأموال مكدسة في بيوتهم فهم أصدقاء الغربان ولذلك غلبنا على أمرنا فشتان ما بين القمل والذهب!!».. وتعاظلت الخيالات في ذهنه، ولم يفق من تهويماته إلا على صوت حمار ذهبية وهو على مقربة منه، ودعته أمه إلى مسك الشكيمة كي تترجل، وأيقن أن مهمته أضحت الآن أكثر صعوبة، فحمار ذهبية سيؤرقه، وعليه أن يمسك العصا ويقف بينهما يضرب الأتانة من خلف لتتقدم ويضرب الحمار من أمام كي يتراجع إلى خلف، فهذه رغبة زمه وجارتهم ذهبية أما الحمار والأتانة فهما في انسجام ووئام: هو ينهق وهي تلتفت وتحرك ذيلها وأذنيها.. جارتهم ذهبية تضاحك أمه وتبتسم ابتسامة

خفية، وعرف أنه هادم لذات ومفرق بين الفين وسوف لن يسلم من جلد ذاته.

أشرفوا على القرية التي بها مغسل النهر.. كلاب ذلك الحي ردوا كلبهم على أعقابه وأحاطوا به من كل جانب واستسلم فسلم.. مروا ببعض البيوت فرأى الفتية والصبايا.. صبية تغتسل في الماء وترنو إليهم لعلها تعجبت من قدميه الحافيتين.. طفل آخر يتبول في الطريق رأسه محلوق وبطنه منتفخ.. نساء أخريات ورجال آخرون واقفون ويمشون وماء يجري.. بشر كالماء بشرهم وجلودهم ومياه تجرى على الحصى.

وصلوا المغسل فتخاصمت أمه مع ذهبية وأسباب الخصام لا يعرفها والحمار مازال يشهق والأتانة تشهق وهو يتوسطهما.. تحت الأشجار الكبيرة والممتدة على طول النهر رجال وشبان كثيرون يرقدون هناك وأمامهم قطعان الأغنام يرقبونها.. في المغسل نساء كثيرات يتضاحكن، الجارة احتجزت بعض الأمكنة.

أما هو فقد كلف بحراسة الدابتين وأمر أن يحرص على التفريق بينهما الأتانة تنظر إلى الحمار، والحمار ينظر إلى الأتانة ثم يشهقان بنغمة مؤلمة كأنهما على عطش وجوع.. الشمس ارتفعت وصارت في كبد السماء محرقة ومؤلمة. الرجال متكؤون على مرافقهم والأشجار تحميهم من الشمس وأبصارهم متجهة صوب النساء اللواتي كن يشمرن ثيابهن، فتنكشف سيقانهن المكورة وأفخاذهن المبيضة، ويقمن بحركات رشيقة

ومنتظمة، ويبالغ في التشمير كي لا يبللهن الماء والرجال يجلسون القرفصاء والماء يجري.

نادته جارهم ذهبية فأسرع إليها، وجلس قبالتها يتأمل الماء الذي يجري، تنهدت فالتفت إليها فرأى فخذيها في الماء ولم يبق منها خارجه إلا نصفها الأعلى ويدها اليسرى تلامس شيئا أسود تحتها.. يدها تمشي وتجيء التفت التفاتة خجلى فلم ير من نصفها الأسفل سوى ظلال منكسرة، حدق مليا لا شيء سوى بعض السواد يلوح تحت يدها أما الفخذان البيضاوان فقد ذابا في الماء فهما في الماء كالماء الذي يجري في الماء، وانتفض واقفا وسمع أصواتا وضحكات وقهقهات، وانفلت الحمار فركب الأتانة وقف الرجال ووقفت النسوة وصاحت به أمه: انتظر يا مجرم؟ ضحك ضحكة تائهة وهم بالإسراع إليهما ليفرق بينهما فاخرجت ذهبية رجلها من الماء فعثرت بها رجلة فسقط في الماء قربها والتفت فوجدها ترنو إلى تحت الأشجار وتضحك، أما الكلب فقد أخذ في العواء.[1]

[1] – من مجموعة «أضاعوني».

جولة في دماغي

آمنة الوسلاتي

بدت لي صرختي أقرب ما يكون إلى صوات حيوان تدهسه قدم قوية، ولعل فمي المفتوح إلى الحد الأقصى لانفتاح فـــم أمام طبيب أسنان، هو الذي جعلها قوية إلى هذه الدرجة.

وتوقف الطبيب عن دندنته بأغنية رديئة رائجة وقال:

– انتهي كل شيء لقد مرت الإبرة.

وتكلمت بحلقي لأسأله:

– إلى أين؟

فقال:

– إلى الدماغ.

وصرخت ثانية.

فقال حانقا:

– الصرخة الأولى ألما، وهذه؟

وحاولت أن ألاقي بين فكي فلم أقدر. كان يقف بينهما حاجز قوي لم أدرك شكله.

وبدا لي أنهما يتناظران في حزن، فحزنت لهما. وعاد الطبيب يدندن بذلك اللحن، فملأني قرف. وأشرت إليه وأصوات بدائية تخرج من حلقي أنني أريد أن أغلق فمي فقال ضاحكا:

– الفم كالدكان، يفتح عن طيب خاطر، ولا يغلق إلا بعد قضاء الشؤون.

وبينما كان هو يغرق في الضحك، كانت تجتاحني موجة من الغضب عاتية، وقررت أن أوقف كل هذا.. وتبينت أن يدي قد شدتا إلى الكرسي الضخم، وأنني رهين وضعية استلقاء لا فكاك منها. ونظرت إلى الطبيب بتوسل، فأقبل علي مرحا وقال:

– ستأخذك إبرتي إلى أجمل رحلة يمكن أن يقوم بها إنسان.

وواصلت التوسل بعيني وملامح وجهي، فوضع يده على صدري، وأشار إلى شاشة صغيرة كانت تنصب أمام عيني منذ استلقيت على الكرسي، وواصل:

– سيكون هنالك ألم شديد في البداية، ولكن للتغلب عليه ينبغي النظر إلى الشاشة وتتبع ما يبث عليها من صور.

ويبدو أن ملامحي امتلأت غباوة، إذ ضحك الطبيب بصوت عـال وهو يقول:

– لماذا تنظر إلى بهذه الطريقة؟ بعض من الألم في البداية، وبعد ذلك ستنسي كل شيء.

وانشدّ انتباهي بعنف إلى كلمة «الألم»، وغابت الشاشة وطبيبـها. وانتصب فوق رأسي كالشيطان وهو يؤكد:

– سنبدأ الآن.

ولسعني ألم حارق اخترق دماغي من أسفل. وكبـت صـرختي، وتابعت لسعة الوجع بعينين مغمضتين، والطبيب يصيح:

– افتح عينيك، انظر، تفرج، ستنسي كل ما تحسه.

وتحت وطأة الاحتراق فتحت عيني. كانت الصور ما تـزال غـير قارة كأنها تبث من مكان بعيد والطبيب يحرك شيئا ما داخل فمي ويقول بحماس غريب:

– أنظر، تابع، أنت ترحل عبر دماغك، أنظر هذا المكان، يبدو أن الإبرة تمر عبر حقل طفولتك.

وانجذبت إلى ما يبث على الشاشة، وحواني الذهول.

بيتنا القديم، وطفل ببطن مندفع إلى الأمام وساقين نحيفتين يذرو التراب في الهواء. ثم يلتفت يمينا وشمالا يملأ فمه بالتراب.

وامتلأ فمي بطعم الأرض اللذيذ وسال لعابي، وضحك الطبيب وهو يمسح اللعاب من على شفتي المتباعدتين وهتف:

- كنت تحب أكل التراب!

وانقشعت الحجب، واستوت غرفة واسعة، تحوي أسرة جماعية وفردية. واعتراني حرج..

هل تكشف الإبرة عن غرفتنا أمام عيني هذا الغريب؟

وتبينت أن الطبيب كان يتحدث عن قداسة السرّ في مهنته..

ولكنني كنت مأخوذا أكثر إلى ما يحصل على الشاشة، وهتفت:

أمي! ولكن انفتاح فمي لم يترك الكلمة تتكون، واكتفيت بتقلص حلقي ورئتي. كانت أمي تغتسل وسط قصعة نحاسية ضخمة، وتصب الماء على شعرها المجعد وتدلك جلدها المشع بليفة من الحلفاء القوية.. بينما يفور إلى جانبها سطل أسود موضوع على كانون ضخم.. ها هو أبي يدخل، واستغربت أنني لم أفرح لرؤيته. كانت بيده عصا، داعب بها ظهر أمي العاري ثم أنهال عليها ضربا.. كانت تتلوى دون أن تتوقف عن صب الماء على رأسها أو عن دلك جلدها الأبيض.

ولاحظت أن الصورة تقترب إلى وجه الشاشة أكثر فأكثر، وتبينت بوضوح أن عصا أبي تركت خطوطا بنفسجية عل ظهر أمـــي، وغمـــرني حزن مقهور، وتقبضت أصابعي على جوانب الكرســـي، ونظـــرت إلى الطبيب بتهديد يبدو أنه روعة، فقد رفع يديه إلى الأعلى، وهـــو يقـــول مهدئا:

- حسنا، حسنا، سننتقل إلى حقل آخر.

وحركت رأسي في رفض عنيف فقال:

- لن أستطيع استخراج الإبرة إلا بعد مرورها على أكثر من حقل في دماغك، تلك هي البرمجة.

ورفست الهواء بساقي المثبتتين إلى الكرسي في مستوى الـــركبتين، وأدركت أنني وقعت في فخ غريب، وحز في نفسي أن يعرف هذا الرجل الغريب حبي لآكل التراب، وأن يرى أمي وهي تغتسل، وأن يتفرج على أبي وهو يداعبها ويضربها. وقررت أن أضربه حالما يغلق فمـــي ويفـــك قيودي.

وصاح.

- افتح عينيك! لماذا تغمضهما؟ انظر، الإبرة تمر بحقل آخر.

وقابلت الشاشة بين صورتين: إحداهما ثابتة يمين الشاشة والأخرى شريط من الصور على يسارها.. كانت الصورة الثابتة تحويني وزوجتي في إطار مزهر. وكانت عيوننا تلتقي في نظرة خالدة.

وكان شريط الصور الأخرى متقلبا غير قار.. رأيت فيه زوجتي تركبني وتدفع بقهقهاتها إلى عنان السماء، ورأيتني فيه أطاردها بفردة حذائي داخل مقر عملها.

ودهشت لما أرى، ونظرت إلى الطبيب في استخفاف وتكذيب، فقال:

- تأخذ الحقائق أكثر من شكل، والإبرة تنقل ما تجده أمامها.

وحاولت أن أركز نظري في الصورة الثابتة، صورة الزهور والوئام، لكن قوة الجذب كانت أقوى إلى الشريط المتحرك.

ورأيت زوجتي وهي تلج مكتب رئيسنا في العمل وهي تسوي شعرها وتفتح باقة قميصها.

وانتابني ذلك الرعب الذي ينتابني في كل مرة استرجع هذه الحادثة. كان ذلك قبل زواجنا ببضعة أيام، وكنت أعبر ممرا مجانبا لمكتب رئيس المؤسسة عندما لحظتها وهي تسوي شعرها وتفتح ياقة قميصها وتلج مكتب «الرئيس».

غمرني فرح طفولي، هل سأعرف الآن ما فعلته في مكتبة بضعة أيام قبل أواجنا؟ هذا سؤال لم أجب عنه، ولا أريد.. منذ سنوات طويلة، منذ ثبتنا في الصورة المزهرة.. فهل يمكن أن أجاب عنه الآن؟

ووجدتني أصرح مغمض العينين: لا أريد أن أعرف، لا أريـــد أن أعرف.

وتغيب الشاشة والطبيب وجولة الإبرة داخل دماغي..

وعندما بدأ الهدوء يعود إليّ، كنت أمني نفسي بأن أغلـــق فمـــي، وأفك قيودي وأقتل الطبيب.

وجاء صوته هادئا:

– لقد انتهى كل شيء. أنت الآن بخير.. يبدو أنـــك تعـــاني مـــن حساسية مفرطة للألم، وخوف كبير من الإبر.[1]

---

[1] – من مجموعة «صخر المرايا».

راقصة المآتم

بقلم: ناصر التومي

كانت وحيدة أمها، لا يعرف بالضبط هل عافت نفس آلام الزواج ثانية أم كانت تنتظر الزوج المناسب؟ كل ما يعرف أن كثيرين تقدموا لطلب يدها في سني الترمل الأولى، فلـــم يجدوا منها قبولا. وعندما نضبت منـــها نضـــارة الشـــباب افتقدت الطلب.. كان لابد من بعض الهمسات والإشارات المبهمة في الأسمار الليلة من أهالي القرية، لتتضخم بعد لأي،

فتصبح اتهامات متضاربة، تختلف من سمر إلى سمر، ومـــن مســـامرة إلى آخر، فهي تارة زوجة مارد من الجن مع أنها لم تصرع ولو مرة واحـــدة، وتارة ترمي بالفجور، ولم يلاحظ عليها ذلك ولو مرة واحدة. قد تخاطب بعض الرجال كجميع النساء، فتوصم هي بما تكره ويكرهون، وتنجـــو الأخريات لمجرد أن لهن بعولا. أما هي فقد جاء بها زوجها الراحـــل مـــن الشمال في هجرة طلبا للرزق، وقد شحت به أرض الجنوب.

في السنوات الأولى من الطفولة تحضر بصـــحبة أمهـــا الأفـــراح، وتحاكي اللواتي أكبر منها سنا في رقصهن. وكان لابد أن تكف البنت عن الرقص أمام الرجال لاكتمال أنوثتها، ولكن حليمة تمـــردت، وأصـــرت

على الرقص، وعبثا حاولت معها أمها وبعض الشيوخ، وصفعت ولطمت، ومست في عرضها وعرض أمها، وهددت بالضرب حتى الموت إن هي ركبت رأسها، وأصرت على عرض رقصها الشيطاني، بجسد اكتمل نموه أمام أرهاط من شباب القرية، فتنتشي نفوسهم فلا يكاد يسعهم المكان رغم رحابته، وسرعان ما يسيل لعابهم، وتكاد أبصارهم تخترق ستر شيطانة الفرح.

صارت حليمة الوقود الجديد الذي يسخن بيوت السمار بالقرية، فهي آية جديدة لما قيل في الأم. فالبنت لم تكن ابنت الزوج الراحل. عدوا الأيام والأشهر والسنوات للوصول إلى نتيجة حسابية مغلوطة من أساسها. فهم يجهلون تاريخ موت الأب المزعوم بالتدقيق، كما يجهلون تاريخ ميلاد البنت، وقد يتواصل السمر حتى آخر الليل، ويعدون الشهور والأعوام ولا اتفاق بينهم. وقد يتنازعون في تحديد هوية الأب الأصلي للبنت، التي أصبحت تعد لدى بعضهم «ابنة الحرام»، ويذهب أحدهم إلى أن الأم قد زنت قبل موت فقيدها، ونامت حليمة ببطن الأم ولم تستيقظ من سباتها العميق إلا بعد موت الزوج، معللا القول بتاريخ من نسيج خياله الجنح، ومدعيا أن الزوج قد باح له في أحد الأيام بأنه غير مكتمل الرجولة، فقد عاشر امرأة لما كان في الهجرة بالشمال ولم تنجب منه، مع أنه سبق لها أن أنجبت من غيره. وتبرز في ذهب أحدهم فكرة جهنمية تبرق لها عيناه، وعندما يلفت الانتباه إليه يصرخ فيهم:

– وإن كانت موتة الرجل غير طبيعية.

– ماذا تعني؟

– اكتشفت أنها حامل وكانت على علم بعقم رجلها فخافت الفضيحة.

– وكيف؟

– نساء الشمال خبيرات بهذه الويلات.

– يا لطيف.

... وتختمر في تجويف رأس أحدهم «تكرة» أعني فكرة تهزه هزا، يتململ، ويحرش أجزاء حاسة من جسده في غير وعي، ويعبث بشاربيه، يزيل ما علق بهما من بقايا الشاي، وتطن الفكرة أعني «التكرة» في رأسه، وتهم باختراق تجويفه فتحطمه وتحطم السامرين:

– بل لم تزن إلا بعد موت الزوج.

– كيف وهي لم تنجب البنت إلا بعد ستة أشهر؟

– بل سبعة أشهر والشيطانة «سبوعي».

– هذا حسابك أنت والحقيقة غير هذا.

– وما أدراكم أن الأشهر ستة وليست سبعة؟

– وما أدراك أنت بأنها سبعة وليست ستة أكنت الزاني؟

– أعوذ بالله.

وفي ركن مظلم من المكان يتعالى صدى تنهيده العجوز تبر، وقبل أن تتسابق الرقاب لمشاهدة العجوز والتعليق والمداعبة كالعادة، تحل عقدة لسانها، فتنساب في كلام محرج للصبايا عن الزواج وفحولة الرجال وأصنافهم وقالت متنهدة:

– بنت جنون.. بنت شياطين، اللي يتزوجها ما يموت كان مجنون!

ولاقت كلمات العجوز لدي السامرين القبول الحسن، كانت في الرؤوس خلايا مظلمة فعششت فيها ثم ازدادت سوادا، ولما اكتملت الرؤية الوحشية، تحركت الأبصار عبر الأركان، وتغيرت الجلسات، وعملت الأظافر القصديرية في الرأس عمل المحراث في الأرض، وانفجرت الشفاه عن أسنان صدئة في معنى الخوف، مما يسكن في الرأس من سواد التخمين، وضمت إحداهن طفلها إليها وبصوت لا يكاد يسمع قائلة، وكأنها جزعة من كلماتها، ولعلها حسبت أن معانيها قد تتجسد فكبتت أنفاسها رعبا:

– اغتصبها الجن وقتل زوجها؟

– يا حفيظ.

وقالت إحداهن:

– وقبلت هي؟

وكأن العجوز تنتظر هذا السؤال من إحداهن، فسرعان ما قالت، وهي ترفع نصفها الأعلى ناحية السائلة، ومشيرة بأصبع كالحة:

– بل قولي لعلك اشتهيتيه لنفسك.

قالت السائلة بكل ذعر:

– بعيد الشر ورجلي مثل الجمل.

قالت العجوز وهي تحملق في رجل السائلة:

– فلو تزوجني جن أم حليمة لجررتكن كلكن إلى فراشه، قالــت جمل...

وتعالي الضحك من الجميع حتى كادوا يستلقون على ظهــورهم، وكأن العجوز بهزلها قد أنهت السمر، فتسابقوا إلى الخــارج يمســحون دموع الضحك بأطراف ثيابهم، فتعالى سعال أحدهم، واختنق آخر بلعابه فشرق، وقال أحدهم:

– «عجوز الهم لا يبرد لها عظم»..

وغير أحدهم القولة المستحسنة والمضحكة في العجوز فقال:

– «عجوز الهم لا يبارك لها في عظم».

وغير أحدهم الصيغة عمدا، فقال:

– «عجوز البوم يراها تشوم».

وكأن أحاديث الأسمار وازع جديد، يدفع بحليمة إلى التحدي والتمرد، فلا تصغي إلى واعظ ولا إلى معاتب، بل تسمعه ما يكره، وتنفلت من أمامه وقد علا صوتها حد الزعيق في نبرات حادة لاذعة، كانت تعمد إلى كل ذلك حتى تذيق الويل كل متدخل في جياتها. فترى في عيون هؤلاء الرجال، شهوة لاهبة لضمها وعناقها، فيعمدون إلى إخفائها وهم يغضو من أبصارهم فجأة بينما نظراتها تحرقهم جرأة. اكتملت أنوثتها فغدت محط أنظار الجميع وإعجابهم، وهي تتلوى بينهم في رقص يسلبهم إرادتهم، وتتعب الجفون من تحديق يطول، ويصخبون حتى الصراخ وهم يحاولون الاتفاق على قرار يزيحها من الحلبة، مع أن نفوسهم كانت تبارك هذا الحضور وهذا الرقص، وتحلم بالوصال، كانوا ممزقين ظاهرا وباطنا شر ممزق.

مانعت الأم أول الأمر بما أصرت عليه ابنتها، ولما أعيتها الحيلة تركت الحبل على الغارب، ولاحظت ما صار عليه حال الرجال من اضطرابات غير خفية، فألسنتهم مشاكسة، تخترق حجب الصمت في عتاب تارة، وطورا في سب وشتم، بينما لا يكادون يستقرون في تموجات الجسد الساحر. وهي لا تزال تذكر صرخة العجوز قائلة:

– إن سراويل الرجال قد ابتلت، ومن لم يغتسل قبل صلاته فقد خاف زوجته ولم يخف ربه.

ضج الاحتفال ليلتها على رصاخ العجوز تبر حتى إن إحدى النساء انطلقت من مجلسها رامية بابنها الرضيع كيفما اتفق وانقضت

على الراقصة ملقية بها أرضا. وتعرت البنت عن فخذين زادا في شهوة الرجال، وأردفت العجوز قائلة:

– وحق سيدي الناصر، لن يجرؤ أحد على الاقتراب من زوجته بعد أن رأى من الأوراك ما رأى..

سموها بما تكره، لهم لو قيلت في زوجاتهم لدقوا أعناقهن، ولو لم تكن لهم براهين، رأت في ابنتها أداة للانتقام بتسيير من القدر. فليحترق الرجال حرق البراغيث، ولتنفجر النساء كمدا وحسرة، وهن يرين رجالهن يزنون بعيون أحمرت من طول السهر.

عبثا حاولت النساء إخلاء حلبة الرقص من حليمة، ورأت بعضهن أن احتكار حليمة للحلبة هو الذي ضخم شغف الرجال بها، فعمدن إلى مشاركتها، رغم المعارضة الشديدة من رجالهن، ودفعن بصباياهن لأول مرة للحلبة، عساهن يحطمن أسطورة البنت حليمة. ويطول سجال الراقصات الساعات فيتساقطن إعياء ونوما في أحضان بعظهن، ولا يسعهن إلا أن يتركن الحلبة للبنت الساحرة التي لا تعرف للإعياء سبيلا. وصرخت العجوز تبر من جديد في النساء:

– أمسكن صباياكن عن الرقص وإلا زنى بهن رجالكن.

انقضت ثلاث نساء والشرر يتطاير من عيونهن على ساحرة الرقص، يجررنها من شعرها ويحثثن عليها الترا، ويغرسن أظافرهن في جسدها، ويعضضن ما وصلت إليه أسنانهن، وكأن العجوز تبر بكلماتها

النارية قد رمت سحرهن بسهم فبطل تأثيره، جرت النساء والصبايا إلى ديارهن، يتوعدن ويهددن بمقاطعة الأفراح التي تحضرها «بنت الشؤم».

وقالت إحداهن بأعلى صوتها:

– لا يوجد في القرية رجال.

فأجابتها العجوز تبر في نبرة بين التهكم والنقمة:

– بل هم كثيرون ولكن ما قدرتن على إطفاء شهوتهم.

وقالت أخرى وهي تلتف بلحافها وتجر صبيتها جرا:

– ارجموا هذه الساحرة ومن يقبلها في داره..

وفي جرأة عجيبة وفريدة لا تقدر عليها إلا تبر العجوز، قالت:

– لو عرفتن كيف تملأن عيون رجالكن، لهانت، ولكنكن لا تتزين ولا تتعطرن إلا في عرس أو ختان، ولو كان لرجالكن مافعلتن، إن الرجال لا يشتهون بأوساطهم ولكن بأعينهم وأنوفهم.

وجن جنون الرجال وكاد أحدهم يصفع العجوز الثرثارة التي لا يلجم لها لجام، ولكن للعجوز حماة من أبناء كالجمال لن يقفوا مكتوفي الأيدي لمثل هذه الأفعال مهما كانت الدوافع. وسرعان ما أقفر المكان.

باتت القرية ليلتها تهذي بحمى الحديث. البنت حليمة مبعث الانتشاء والإحساس بالمتعة، والخيالات المجنحة في دروب الوصال،

والانسلاخ من القيود المكبلة للنفس التي لا تفتأ تنشد الخلود في اللـــذة ولا شيء غير اللذة. رغم حقد النساء على البنت، فكـــن يـــرين فيهـــا أنفسهن، ويعلمن أن رجالهن قد تصاعدت شهواتهم إلى حـــد الانفجـــار والجنون، وعندما سيختلون بهن ستكون لهن ثمرة هذا الانتشـــاء وذلـــك الجنون، ولكن عندما يتذكرن أن أزواجهن لا يرون فيهن غير الســـاحرة حليمة، تصيبهن حمى الفتك بالبنت واستئصال مؤشرات اللذة. صرخت العجوز تكشف ما بأنفسهم وتفضح مشاعرهم، وكأن الصـــارخة تقـــرأ صفحات ما يبطنون، وتهتك أسرار المضاجع، فلا يعبؤون بها ساعة الهـــزل وقد يستغرقون في ضحك هستيري وهم يرددون:

- عجوز الهم لا يبرد لها عظم.

- عجوز البوم يراها تشوم.

وغابت الابتسامات وزعزعت النفوس، فالصرخات تصبح وقودا لتضخم اللهب.

باركت أم حليمة الحدث، وتنبأت بزلزال يخسف الأرض خســـفا فلا يبقى ولا يذر. ولعلها رأت في ابنتها إحدى أيدي القـــدر العاملـــة في الخفاء، ورأت في صرخات العجوز تبر الهشيم الذي يزيد الحريق سعيرا.

لازمت حليمة الدار أياما لا تبارحها، كدن يمزقن منـــها الجســـد، ورأت في عيني أمها بعض الارتياح مع بريق هـــو إلى الوعيـــد والحقـــد الأعمى أقرب.

نمت في صمت البيت الرهيب، لا تكاد الأم تزور أحدا ولا هي تزار. في أعين القرويين يسطح ذلك البريق الخاطف، المترجم عن ارتباك عفوي ضخمته الأيام إلى نفور، مصحوبا بغض للبصر، وكأن المرئي غير سار. أنفاس أمها لاهثة، مشحونة بفحيح النقمة، يهتز لها البدن حتى يكاد ينفجر، وتتمرد روحها وقد تقمصها شيطان. كانت تصغي وهي طفلة إلى مس الصبيان بما يسمر به الكبار ما يمس حياة حاضنتها، فلم تكن تحفل كثيرا، وما إن دب فيها الوعي بما يحدث حتى كانت هذه الهمسات تترل عليها كالصواعق، وتحيل السماء الصافية إلى سماء غاضبة تطلق حمما تبتغي المحق.

وسرت عدوى الفحيح إلى أنفاسها. لم تكن تعي الوعي الكامل بالمصير المنتظر، وهي تصبح هدفا للنفور والحقد الأعمى، لم تحاول الخروج من الدائرة الحمراء، فهي تجر عبر التيه الأسود، وكأنما تقاد إلى فردوس مفقود. كان الصراع القائم في الحلبة لا يدفعها للانسحاب، وهي الآن في قمة معاناتها به، تنتظر بتزكية من كامل حواسها وجوارحها الطوفان الأكبر.

سقطت أم حليمة أرضا، وشهقت الموت. كان المشيعون قلة، صعقت البنت لجحوظ الموت، أغمى علهيا، وعندما استيقظت انتفضت كالمجنونة وانطلقت صوب جثة الأم تهتز وتتلوى. تهدل شعرها على كتفيها، وبحركة منها غشي السواد ملامح وجهها، ثم خرقت حجاب الصمت بصرخة دوي لها المكان، وصاحبت ذلك بقفز وتلويح يديها في

كل الاتجاهات، مبرزة أظافر كالمخالب في تحفز للفتك، وكشرت عن أسنان حادة تبتغي النهش وتدور حول نفسها عديد المرات ثم تسقط أرضا، وتستقر على عجزها، وتحرك رأسها بعنف في كل الاتجاهات في إيقاع الاختناق، ويضفي الشعر المتهدل على الحركة قتامة السواد، ورهبة المشهد، وتنتفض من جديد منتصبة ثم تسرع في فوضى كبيرة هنا وهناك، وقد مدت يدها في محاكاة الوطواط الطائر في سواد ليل بهيم، كانت ترقص الموت.. ظهور حليمة موعده مناحة، لم يكن يعرف من أين تخرج، رغم الاحتياطات المقامة للحيلولة دون حضورها، تضفي مزيدا من اللوعة، وتضخم الإحساس بالخطب برقصة الموت التي عرفت أسرارها كما عرفت أسرار رقصة الطرب. الرقص تعبير يجسد الحدث.

انشغل السامرون من جديد براقصة المأتم التي أضنت الجميع. فرضت رقصها في الأفراح وكذلك فعلت في المناحات، وكأنها بذرة من بذور الأقدار بعثت لمن حجبوا الحقيقة، انشق السامرون إلى فريقين، ادعى شق أن حليمة ابنة سفاح أو ابنة شيطان من الجن، وها هي بذرة الإثم تهم بالغوص في بحيرة الجن. أما الشق الثاني فلم ير فيها غير ضحية من ضحايا الاتهامات والشكوك بغير برهان، وأن الأقدار لتصب جام غضبها على القرية عن طريقها. قالت العجوز تبر بصراحتها وتهكمها المعهودين وهي تشير إلى زوجات أبنائها:

– امتنعن عن أزواجكن وإلا ولدتن ألف حليمة، فرجالكن لن تهدأ لهم شهوة مادامت ابنة الشيطان حية حتى ولو كانت «جاصة العقل».

كانت ليلة من ليالي الصيف المقمرة حين تعالى الصراخ والزعيق من كل كان:

– الحريق!! الحريق!! الحريق!!

– النار تأكل المحصول!!

– البيدر يشتعل!!

كان المشهد رهيبا، النار تلتهم المحصول من كل جانب. السعير الملتهب يسمع له حفيف الحيات، وحمرة مهيبة أحالت المحيط إلى بقعة ضخمة من الدم. كانت البنت حليمة ترقص بأعلى كومة من البيدر وقد لفها دخان وشرر. الرقص تعبيري مصحوب بمعاناة الاحتراق البطيء، بهتت معالمها وهي تتخبط بين حمرة وسواد، وانبعثت فجأة من اللهب صرخة دوي لها المكان، ارتعشت لها فرائص الحاضرين الذين لم يحركوا ساكنا أمام اشتداد الحريق. الصراخ يخترق المسامع والأفئدة فتخرس فيها المبادرة ويسومها الويل والثبور.

انقطع الصراخ، وخمدت النيران إلا من أدخنة ورائحة احتراق جسد آدمي. قالت العجوز تبر وهي تشير بعصاها السوداء نحو الدخان المتصاعد:

– عادت حليمة إلى حالتها القديمة...

قال أحد الشيوخ:

– اتقي الله يا عجوز، أشعلت النار وصرخت الدخان..

لم تقو الهامات على مغادرة البيدر وقد فقدت الإدراك كل الإدراك والإحساس كل الإحساس.

الفهرس

– مقدمة: عبد الرحمن مجيد الربيعي 5
– خطرة العم عصمان: محمد العروسي المطوي 17
– القنطرة هي الحياة: مصطفى الفارسي 27
– حديث الرقم: عز الدين المدني 43
– مقابلة في الطابق الخامس: محمد صالح الجابري 53
– الهمس المكتوم: محسن بن ضياف 61
– المليار: عمر بن سالم 73
– البرنس الذي نسجته لي جدتي بعد موتها: سمير العيادي 85
– المتفقد: محمود بلعيد 97
– وعد الأخرس والعلاقات المتوترة: محمد الهادي بن صالح .. 109
– فوانيس المدينة: عبد القادر بن الحاج نصر 115
– حافلة الليل الممطر: محمد الحبيب السالمي 119
– خرافة النخلة العرجاء والشيخ الصدئ: رضوان الكوني ... 127
– ثلاث قصصة: حسن نصر 137
– قريتنا والزمن الذي يمضي: أحمد ممو 143
– قطار الساعة التاسعة: محمد رضا الكافي 157
– إحدي وعشرون: ناقلة ذهب 165
– ليس لهذا السحر مقابل: عروسية النالوتي 171
– سأتركك تتذوق هذا الطعم: حسن بن عثمان 177

– زرنيخ: صلاح الدين بوجاه 187
– الشيخ والحسناء: بوراوي عجينة 203
– حكاية الأسوار: حفيظة قاره بيبان 211
– تداعيات أحمد العربي: أبو بكر العيادي 217
– شهوة العين: حسونة المصباحي 227
– الأموات يعودون من الماضي: رشيدة الشارني 239
– الحدأة والصياد: إبراهيم الدارغوثي 247
– بائعة الحمص: مسعودة أبو بكر 259
– عياد: صالح الدمس 271
– الكابوس: حفيظة القاسمي 283
– العجوزان: نجاة العدواني 293
– الأبيض والأسود: الأسعد بن حسين 301
– صخب الذاكرة: فوزية علوي 307
– الورد والرماد: محمد آيت مهيوب 317
– الحوذي: فوزي الديناري 327
– ليت هندا: حياة الرايس 333
– اعترافات رجل ميت: محمد عيسى المؤدب 343
– الذهاب إلى المغسل: الأزهر الصحراوي 349
– جولة في دماغي: آمنة الوسلاتي 357
– راقصة المأتم: ناصر التومي 365